فرانسوا دوكريه



الحضارة والتاريخ

ترجمة

يوسف شلب الشام

الطبعة الأولى ١٩٩٤

فرانسوا دوكريه



ترجمة
يوسف شلب الشام

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

Carthage ou l'empire de la mer

وقفة عند قرطاجة

« نحن ، أغنى الحضارات الأخرى ، نعرف الآن أننا لسنا خالدين . كنا قد سمعنا الحديث عن عوالم اختفت بكاملها وإمبراطوريات سقطت وزالت مع كل رجالها وكل أجهزتها ... وكنا نعلم جيداً أن كل الأرض التي نراها أمامنا إنما هي مصنوعة من الرماد وأن الرماد له معناه وكنا نلاحظ عبر شُجُف التاريخ أشباح مراكب ضخمة كانت محملة بما خلفه الفكر من ثروات » (١) .

فإذا كانت ثمة حضارة قديمة ما تخطر على بالنا مباشرة عندما نقرأ هذه الصفحة الشهيرة لبول فاليري ، فإنما هي تلك الحضارة التي أبدعتها قرطاجة وإمبراطوريتها والتي ابتلعتها هي أيضاً « هوة التاريخ » . والواقع ما الذي بقي اليوم من أثر هذه الحضارة التي ولدت منذ ثلاثة آلاف عام في البحر المتوسط الغربي وورثت تقاليد حضارة فينيقية عاشت هي الأخرى آلاف السنين ؟ ، ماذا بقي من أثر هذا الشعب الرصين المغامر في الوقت نفسه والذي كانت مسيرته على غرار مسيرة ملاحيه الذين شقوا أعالي البحار؟ حتى آلهته ماتت هي الأخرى .

فيما اتفق على تسميته بالتاريخ « الكلاسيكي القديم » لا يحتل مصير قرطاجة الفريد أي مكان ، فهو لا يكاد يخصص له إلا بضع صفحات من تاريخنا ـ تاريخ المناهج الرسمية والكتب

المدرسية ـ وذلك بمناسبة الفتح الروماني لقرطاجة بعد «الحروب البونية » . وقد أظهرت هذه المواجهة ، المأساوية التي دارت أحداثها المتعددة المفاجئة خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد مدى القوة التي كانت تتمتع بها هذه الحاضرة الأفريقية ومدى الموارد التي تعتمد عليها الإمبراطورية القرطاجية ، ولكن هذه القوة كانت تقترب من نهايتها ومواردها توشك أن تقع بين يدي خصمها العنيد، لقد أخطأت قرطاجة في الواقع في أن تكون عظيمة في اللحظة التي كانت فيها روما تنمو وتتسع .

يهدف هذا الكتاب في المقام الأول إلى بيان المراحل الرئيسية لمغامرة شعب . فتاريخ عالم قرطاجة يعود إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد ساعة قامت موجة التوسع الفينيقي الكبرى ، وينتهي بعد الانتصار الذي أحرزته فيالق (سكيبيون) سيبيون إميليان بحريق العاصمة المهيبة التي اختفت تحت خرائبها وغابت عن الأبصار. على أن الفصول التالية لا تهدف إلى الكشف عن التاريخ وحده وإنما تريد أيضاً أن تكشف عن حضارة كانت برهاناً على نشاط وحيوية نموذجيين .

لقد أراد فلوبير من هذه الحضارة أن يشيد ببعض مظاهرها التي لم تكف عن أن تثير فينا الرؤى والأحلام . فمنذ الجملة الأولى من كتابه « سالامبو » كما تذكرون ينبعث سحر العالم الذي اختفى : « حدث ذلك في ميغارا ضاحية قرطاجة في حدائق هاميلكار (حملقرت) ....» ولكن فلنترك هذا الإنشاء الرومانسي الفاخر ووفرة مافيه من مظاهر دخيلة غريبة ومافيه من غلو في الأهواء ولنسع بكل رصانة ـ ولكن بابتعاد مع الأسف عن اللمسة الشاعرية أيضاً ـ وبدون وهم الإدعاء بأننا « نبعث »

ما كان في أيامه عبقرية شعب ، وبدون أن نعيب أيضاً تلك الهنات التي كانت سبباً في ضياعه ، لنسع بكل بساطة إلى أن نتعرف على المعالم التي يسهل علينا تبيانها من هذه الحضارة التي طواها النسيان .

بعض مظاهر الحياة القرطاجية ـ أو على الأقل مايمكننا أن نفهمه منها ـ يحيرنا ويبلبل أفكارنا . وبعضها الآخر يصل إلى أن يبعث فينا النفور من قسوته البالغة كما يبدو لنا . ولكننا نعترف عن طيب خاطر بدون شك بأن مثل هذه الطقوس وتلك العادات التي تبدو لنا اليوم بربرية ينبغي لها أن لاتتلوث في أعيننا حضارة كاملة وألاّ تنسينا نشأة مذاقها الأصيل .

والخلاصة أننا نريد من هذا الاقتحام السريع لتلك الحضارة أن نوضح ذلك الذوق العنيف في الحياة والمخاطرة الذي كان يثير الحماسة والحيوية في صدور رجال صيدا وصور الذين كانوا «بحارة ذائعي الصيت ولكنهم كواسر مثل سباع الطير » (الأوديسة) . والواقع أن الحضارة القرطاجية على الرغم من انتشارها في حوض المتوسط الغربي عن طريق تلك المراكز التجارية للإستيراد والتصدير التي كانتها المحطات البونية (الفينيقية القرطاجية) فإنها بقيت موسومة بأصولها الشرقية . وإذا كان الفينيقيون قد اشتهروا منذ أقدم العصور بأنهم رواد البحار فإن القرطاجيين بقوا مرتبطين بهذا النداء الباطني الذي كان يرسم لهم الطريق ، وعندما تكلم أپيان مؤرخ الإغريق عن المدينة البحرية الأفريقية الكبرى ألم يلجأ هو نفسه إلى الصورة المعبرة لمركب ذي مرساة ؟ . (٢)

« كنت تقولين ياصور : أنا نفسي تاج الجمال ! »

من الكنعانيين إلى الفينيقيين

بعد ستة قرون من خراب قرطاجة لم ينس المستوطنون الأفريقيون ذوو الأصل الفينيقي ـ أو الذين اعتبروا أنفسهم كذلك ، لم ينسوا الاسم الأول الذي أعطاه لأنفسهم أجدادهم البعيدون والذي يذكّرهم ، عندما ينطقونه بلغتهم الخاصة ، بأرضهم الأصلية الأم ، كتب القديس أوغسطين يقول : « وهكذا إذا سألتم فلاحينا من أنتم سيجيبونكم بلغتهم البونية (الفينيقية) : نحن كنعانيون»(٣)

كان الكنعانيون يؤلفون الجناح الغربي من الساميين وقد شادوا حضارة مدينية هامة في فلسطين وفي قسم من سورية وعُرفوا بهذا الأسم المحلي منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد (٤) . وعُرفت معظم المدن الساحلية وبخاصة بيبلوس (جبيل القديمة) على أنها مرافىء كنعانية في وقت لم يأت فيه ذكر قط للفينيقيين في أية وثيقة معاصرة . وهنا تقوم ملاحظتان ، فأولاً من الناحية الجغرافية كانت الأرض الكنعانية ـ على الرغم من صعوبة تحديدها بدقة بسبب حدودها المتحركة ـ تغطي منطقة أوسع بكثير من الشريط الساحلي الذي كان عليه أن يحمل اسم فينيقية فيما بعد (٥) . ومن ناحية ثانية هنالك ملاحظة ذات صبغة زمنية هي أن تاريخ الكنعانيين يقع كله في عصر سابق للغزوات التي قامت بها شعوب البحر .

زد على ذلك أن هذا التاريخ كان موسوماً إلى أعمق الحدود بالعلاقات التي أقامها الكنعانيون مع جيرانهم وأقربائهم العموريين (٦) الذين كانوا بداة في بادىء الأمر في أعالي سورية ثم مالبثت قبائلهم أن استقرت بعد ذلك فوق هضاب الأردن وبعض مدن مابين النهرين . ولذلك إذا أمكننا القول إن إرث الكنعانيين انتقل إلى الفينيقيين فمن المهم ألا ننسى أن هؤلاء الأخيرين إنما ورثوا في الواقع

حضارة شديدة التعقيد لم تنشأ ضمن إمبراطورية موحدة كما هو شأن حضارتي مصر والعراق ، وإنما في ممالك مدن مزروعة على طول سواحل سورية وفلسطين .

وقد انفتحت هذه المراكز التجارية منذ عصور مبكرة أمام عناصر أجنبية حملت إليها أو نفذت إلى عقر دارها وكانت تزداد عدداً وتأثيراً كلما مر الزمان فهذه الأرض الكنعانية العتيقة الواقعة عند ملتقى العوالم القديمة في هذه المنطقة من الشرق كانت أشبه بميناء واسع تصب فيه وتختلط تيارات منبثقة من جميع الآفاق . فمن جهة كان ثمة طرق برية للقوافل تمتد إلى ماوراء بلاد العموريين وتسمح بالوصول إلى الفرات والعراق فتكون بذلك أنسجة بيبلوس (جبيل) معروفة في ماري . كما أن زخارف مميزة اشتهرت بها الحضارة السومرية وُجدت منقولة إلى أعمال تم إنتاجها على ساحل المتوسط دليلاً على تدفق تأثير معاكس قادم من الشرق . ومن جهة أخرى يمكننا ملاحظة مؤثرات مميزة وصلت إلى هذه المدن نفسها من قبرص وكريت وموكيني ومن مدن آخيَّة أخرى ومن جزر بحر إيجة (٧) وأخيراً من وداي النيل أيضاً (٨) . ونحن نعرف من أسطورة أوزيريس أن جسد هذا الآله الذي حملته الأمواج معكوسة ، وبفضل العناية التي بذلتها الإلهة إيزيس عاد الملك الإله من هذا الساحل الفينيقي إلى أرضه في مصر . وتقدم لنا أمثال هذه الأسفار البحرية الإلهية أمثلة واضحة على التيارات الاقتصادية والثقافية التي كان يتم تبادلها بين الجانبين : وقد سمحت لنا نتائج التنقيبات الأثرية الحديثة بأن نبرهن على أن مرفأ مثل أوغاريت (رأس شمره) الذي دُمّر في نحو من عام ١٢٠٠ ق . م قد تمكن من أن يمارس وحده علاقات قوية مع كل من بحر إيجة والحثيين والعراق ومصر .

وفي خلال تاريخهم الطويل توجب على الكنعانيين أن يتحملوا ضربات وضغوط الإمبراطوريات الكبرى التي كانت تتوسع من حولهم وتشتد ضرباتها أكثر فأكثر. وفي خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد نفذ الآراميون إلى سورية ، وكانوا قبائل سامية تجوب فيافي العراق ، وعلى الرغم من استقرار بعض عشائرها وتحضرها فإن الموجة الآرامية غطت شيئاً فشيئاً كامل الهلال الخصيب . وفي حوالي عام ١٢٠٠ قدمت موجة أخرى أشد عنفاً هي موجة شعوب

البحر (٩) فاكتسحت الإمبراطورية الحثية وسورية قبل أن تتحطم على حدود مصر، وقد اجتاحت هذه الغزوة ساحل كنعان اجتياحاً قاسياً حتى أن مدناً كنعانية من أمثال صيدا خُربت ودُمرت وأُشعلت فيها النيران .

كان من نتائج هذه الحركة استقرار شعب جديد هو البيليسيت . وفي كتابة تذكارية كتبت لتخليد انتصار رعمسيس الثالث على شعوب البحر في نحو من عام ١١١٧ سميت هذه الشعوب بالفلسطينيين . وقد استقر هؤلاء الغزاة الذين أعطوا إسمهم لفلسطين على شريط ساحلي يمتد من عسقلان إلى غزة ووجب على الشعب الكنعاني الذي كان يستقر قبلهم في هذه المنطقة أن ينسحب منها . على أن القادمين الجدد مالبثوا أن حاولوا مدّ ممتلكاتهم فاصطدموا بمنافسين آخرين هم بنو إسرائيل الذين كانت قبائلهم في بحثها عن الأرض قد بلغت جنوبي فلسطين منذ نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وعندما دخلوا فلسطين (حسب رواية الكاتب التوراتي) تحت قيادة يشوع استولوا في بادىء الأمر على مدينة أريحا الكنعانية وذبحوا كل سكانها رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً بحد السيف (سفر يشوع ٥ ،١ ـ ٦، ١٢) . ثم استمر الفتح بعد ذلك في محاولة للتوحيد عن طريق المعاهدات والاستيعاب التدريجي وكان على هذا الفتح وهذا التوسع أن يستمرا عدة قرون .

ومن الواضح أن استقرار هذه الشعوب المختلفة في فلسطين في عصر نمو المدن الكنعانية وكذلك هجرات الآراميين قد ساهم كل ذلك في جعل المدن الكنعانية تتعرض لظروف دقيقة شاذة . ولم يكن في إمكان هذه الظروف ألا يكون لها نتائج على تطورها التاريخي وفي الوقت نفسه على تطور كل البلاد . ولكن على الرغم من مصائب العصر وأهواله التي انصبت على هذه الأرض فإن تاريخها لم ينته بل كان الأمر تماماً على العكس . والواقع أنه في تلك الفترة تماماً مابين القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثامن قبل الميلاد انفتحت حقبة أفادت منها مدن شعب كنعان القديم التي كانت نجت من سيطرة جيرانها الجدد لتتمتع باستقلال طويل ولكنه استقلال قلق بدون شك بسبب الغزوات التي كان يقوم بها الآشوريون كتلك التي قام بها أشورناصربال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩) الذي

كتب في (نقوش الثيران والأسود) يقول : « كانت الجزية المفروضة على ملوك ساحل البحر ملوك صور وصيدا وجبيل ... وأرواد التي في وسط البحر تتألف من الفضة والذهب والقصدير والنحاس وآنية من البرونز وثياب من صوف مصبوغ وثياب من الكتان وقرود كبيرة وصغيرة ومن خشب الأبنوس والبقس ومن العاج ، وقد تلقيت كل ذلك إتاوة وقبّلوا قدميّ » . ولكن علامات التبعية المؤقتة هذه لم يكن فيها شبه من متطلبات الوصاية المصرية القديمة التي بدت شديدة الوطأة تحت حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وبخاصة تحوتمس الثالث . والآن بعد أن انحسر مدّ شعوب البحر فإن فينيقيا ستتمتع برخاء حقيقي ، والجزية التي قُدمت لأشورناصربال خير دليل على تلك الثروة الطائلة كما رأينا .

وربما كان اسم فينيقيا قد ظهر لأول مرة في هذا الربع الأخير من الألف قبل الميلاد في ظل الوضع التاريخي الذي ذكرناه ، وليس من قبيل إطلاق الأحكام الإعتباطية أن نقول إن تاريخ هذا الفرع الشديد البأس من الشعب الكنعاني قد بدأ في تلك الحقبة من الزمان ، فالفينيقيون الذين لم تكن أرضهم تشمل إلا جزءاً من أرض أجدادهم القديمة سيكون لهم مصير ذا طابع أصيل .

على أنه قد يكون من المناسب أن نبدي أولاً بعض الملاحظات . فكلمة كنعان (وصيغتها الأصلية كنعن) يبدو أنها كانت تسمية جغرافية استعملها هؤلاء السكان المحليون أنفسهم . وعلى الرغم من بعض الفرضيات (١٠) فإن من التعسف الإدعاء بأن لها أصلاً اشتقاقياً غريباً له معنى ذو صلة بحالة البلاد أو حالة سكانها أو أوضاع صناعاتهم ونشاطاتهم التجارية . وتكون المشكلة أعقد من ذلك بكثير عندما يتعلق بالبحث عن أصل كلمة فينيقا. وليس المجال هنا مفتوحاً للتفسيرات المتعددة المتناقضة التي قُدّمت بين يدي هذا الموضوع . يكفي القول بأن مصطلحي فونيكي **Phoinike** الذي يطلق على البلاد، وفونيكس **Phoinèx** (وجمعها فونيكيس **Phoinikès**) الذي كان يطلق على السكان قد استعملهما هوميروس ومن المحتمل جداً أنهما يعودان إلى عصر أقدم من ذلك أيضاً. ويذهب بعض اللغويين إلى أن كلمة فونيكس الإغريقية التي تعني الأرجوان - ذات أصل هندو - أوروبي محض ، فتكون فينيقيا قد سميت بهذا الاسم على

يد الإغريق باعتبارها « بلاد الأرجوان » . ونحن نعلم في الواقع بما فيه الكفاية أن المدن الفينيقية كانت مشهورة بصناعة الأرجوان . على أن هذا التفسير الشائع لايحل المشكلة في الواقع إلا في الظاهر . فمن الصعب أن نقبل بأن اسم مدينة أو بلد أو اسم سكانهما إنما يأتيان من هذا وذاك مما فيهما من الصناعات أو المنتجات المحلية ، بل الأحرى أن يتحقق العكس ، أي أن الإنتاج يجب أن يستمد اسمه من اسم أولئك الذين يصنعونه أو الذين يتاجرون به . وهكذا ففي الكلام عن النسيج نرى أن الدمقس والموصلين ليسا هما اللذين أعطيا اسميهما لدمشق والموصل بل إننا نعرف أن الأمر كان على العكس ـ وهكذا نرى أنه ربما يكون علينا أن نقلب الوضوع ، فيبدو أن اسم فونيكس لابد أنه مشتق من جذر سامي(١١) وعن طريق الاستنتاج نفسه لابد أن قسماً من شعب كنعان قد استمد اسمه من هذا الجذر أيضاً . وهذه التسمية التي انتقلت إلى الإغريقية على شكل فونيكي هي التي أعطت صيغة فونيكس التي أطلقها الإغريق اسماً على لون الأرجوان الذي اختص الفينيقيون به ونقلوه على أوسع نطاق في حوض البحر المتوسط وعرّفوا به الناس عن طريق تجارتهم بالأصواف والأقمشة المصبوغة .

إن من العبث حقاً في إطار هذا العمل أن نستفيض في شرح مسألة لم يبتّ فيها بعد وستكون لمدة طويلة موضع نقاش . على أننا سنضيف بكل بساطة أن الأسماء الإغريقية التي كانت تطلق على فينيقيا وسكانها أخذها عنهم الرومان ولكن هؤلاء ـ لأسباب تاريخية ـ عملوا على أن يفرقوا بين الفينيقيين الأصليين أي فينيقيي الشرق الفونيس وبين فينيقيي الغرب ، أو بمعنى أدق ماصار إليه أمر هؤلاء الفينيقيين بعد اختلاطهم بالسكان المحليين والذين كان عليهم أن يجابهوهم لمدة تزيد على القرن وأطلقوا عليهم اسم بوني أو البونيقي . كذلك يجب أن نشير إلى أن اسم القرطاجيين في الأدب اللاتيني لم يكن مقتصراً في أغلب الأحيان على سكان العاصمة البونية وحدها وإنما كان يشمل أيضاً مجموع الفينيقيين في الغرب .

ممالك فينيقية

الحق أن قدر فينيقية يفسّر بعبقرية شعبها، ولكن بما أن هذا الشعب

انتشر في كل مكان خارج حدود وطنه فقد كان عليه أن يختار الظروف الجغرافية المشابهة لظروف وطنه الأصلي ، ولابد أن هذه الحالة الخاصة إنما تشكل عاملاً أساسيا في توجيه تاريخه وتظهر لديه أكثر مما تظهر في مناطق أخرى في العالم .

تتألف فينيقية من شريط أرضي يمتد بين ساحل المتوسط في الغرب وسلسلة جبال لبنان وامتداداتها في الشرق . أما حداه الآخران الشمالي والجنوبي فمن الصعب تحديدهما بدقة إضافة إلى أنهما تعرضا لبعض التغيير خلال العصور . فهم يتحدثون أحياناً عن فينيقيا كبرى ربما كانت تمتد من الجبل الأقرع في الشمال حتى مرج ابن عامر (سهل شارون) على مستوى يافا في الجنوب ، ولاشك أن هذه المنطقة تنطبق على أرض كنعان القديمة بل تتجاوزها ، ومهما يكن من أمر فإن ساحل فينيقية الحقيقية في سورية وفلسطين لم يكن طوله يتجاوز ثلاثمائة كيلومتر أو نحو ذلك ذاهباً من موقع شوكشان القديمة (التي هي اليوم تل سوكاس في شمالي سورية) حتى يبلغ مدينة عكا أو أبعد من ذلك قليلاً إلى الجنوب حتى جبل الكرمل .

ويجب أن نلاحظ ـ والمسافرون الذين يطيرون فوق الساحل أو يصلوه من أعالي البحر يلاحظون ذلك ـ أن مقدمة البلاد هذه لاتمثل شريطاً عريضاً أو شارعاً يمتد بانتظام في محاذاة ساحل المتوسط ، ففي سورية مثلاً بل بدءاً من منطقة الجليل الفلسطينية يختلف منظر المنطقة الساحلية اختلافاً واضحاً عن المنظر الذي يبدو إلى الجنوب من ذلك في سهلي سفالة وسارونة .

وبامتداد لبنان في الشمال على الجبال الساحلية في طرطوس واللاذقية فإن طوله يصل إلى نحو مائة من الكيلومترات بينما يتجاوز ارتفاعه ثلاثة آلاف متر . وهذه السلسلة القاسية لاتشكل حاجزاً موازياً للساحل فحسب بل إن طياتها المتقدمة تعقد شكل الساحل الذي يضيق كثيراً بالنسبة للسهول الجنوبية في فلسطين ، وكثيراً ماامتدت استطالات صخرية في البحر على شكل جروف حمر أو ضاربة إلى اللون الرمادي المصفر . ويتغير عرض السهل الساحلي مابين اثني عشر وخمسين كيلومتراً ـ في المناطق التي لاتصل فيه النتوءات الصخرية إلى

الشاطىء على الأقل ـ ، وبذلك نرى عدداً من القطاعات المفصولة بعضها عن بعض نسبياً وباتساعات غير متساوية يضغطها البحر من إحدى جهاتها ومن جهة أخرى كتلة جبلية يصعب اختراقها حيث تتعمق خوانق ووديان تخترقها مجاري سيلية يكاد بعضها يجف أثناء الصيف ولكنها تنتفخ بفيضانات عنيفة عند هطول أمطار الشتاء وذوبان الثلوج .

في داخل هذه القطاعات نمت المدن الفينيقية وانتشرت . وكان بعضها منعزلاً عزلة كبيرة بحيث أنها لولا لجوؤها إلى الملاحة الساحلية لما تمكنت من الاتصال بجاراتها إلا عن طريق بعض الشعاب الجبلية أو الممرات الضيقة التي تخاصر أحد الجروف والتي تتشكل أحياناً من سلالم نُحتت درجاتها في الصخور. ومظهر الأرض هذا كان لابد أن يودي إلى نتائج عديدة في موضوع تطور المدن الفينيقية وبالتالي في تاريخ فينيقية كله .

قبل كل شيء نرى أن هذا الشريط الساحلي حتى ولو لم يكن مقطّعاً فإنه كان أضيق من أن يشكل قاعدة أرضية لدولة كبرى كتلك الدول التي شادها سادة العراق ومصر والملوك الحثيون في الأناضول . وسنلاحظ في هذا المجال أن الفترة التي تمتعت فيها فينيقية باستقلالها لم تكن ممكنة لولا اضمحلال قوة جيرانها أو ضعفها على الأقل بعد غزوات شعوب البحر. وبما أن الشروط التي تفرضها التضاريس الجغرافية لم تكن تسمح بخلق امبراطورية فينيقية فإن المدن الفينيقية الرئيسية المحصورة بين البحر والجبل في مساحات ضيقة من الأرض أمكنها على الأقل أن تنشىء بدءاً من القرن الثاني عشر « ممالك » صغيرة كان بعضها معرضاً أحياناً للزوال ، ومن هذه المدن الممالك كانت صور وصيدا وجبيل وعكار وأرواد . وكانت المدينة الأقوى في زمانها تخضع جيرانها وتجعلهم تابعين لها ، وهكذا تمكنت صيدا في البدء من فرض سيطرتها على البلاد وهذا مايفسر كيف أن اسم « الصيدونيين » كان يستعمل أحياناً في التوارة للدلالة على كافة الكنعانيين ، كما أن الأوديسة التي ذكرت أخبار هذه الحقبة أيضاً كان يرد فيها اسم « الصيدونيين » و« الفينيقيين » على التناوب (١٢) . وفي مقابل ذلك نرى أن بدءاً من نهاية القرن الحادي عشر وهو تاريخ بدء التوسع الفينيقي في

الغرب قامت صور ـ التي تأسست حسب رواية هيرودوت (١١، ٤٤) في الوقت نفسه التي تأسس فيه معبد حملقرت في نحو من عام ٢٧٥٠ ق . م ـ تؤكد تفوقها حتى أصبحت يومذاك أكبر مدينة في البلاد ومدت نفوذها مابين نهر الكلب في الشمال حتى حافة جبل الكرمل في الجنوب . ومع ذلك فإن هذه الممالك بدلاً من أن تنهك نفسها في منازعات عائلية أو أن تبعثر جهودها في مشروعات محلية قميئة فإنها سعت في معظم الأحيان إلى تحقيق مشروعات طموحة، ولكن هذا الوضع الذي لم يكن يسمح لها بإقامة مملكة حقيقية كان من نتائجه عدم ظهور شعور وحدوي في فينيقية .

على أن الشكل الخارجي للساحل السوري الفلسطيني والتجزؤ الذي هو من صفاته المميزة لم يؤديا فقط إلى التجزئة السياسية ، فالفينيقيون كان لابد لهم ـ من أجل ألا يبقوا سجناء « ممالكهم » المتواضعة ـ من أن يبحثوا عن مستقبلهم خارج حدودهم . حقاً كانت أراضي المنطقة خصبة في مجموعها وتروى رياً كافياً وتسمح إذن بزراعة مزدهرة أثارت إعجاب المصريين من حبوب ونخيل وتين وزيتون ورمان وكروم ، إضافة إلى أن لبنان كان يومئذ مغطى بغابات من السنديان والصنوبريات وبخاصة الأرز الذي كان خشبه ثميناً جداً في البناء ويصدَّر إلى العراق ومصر ، ولكن المدن ـ الممالك برغم هذه الثروات لم تكن قانعة بحظها لأن أراضيها الضيقة التي ينقصها المدى الخلفي كانت محدودة الموارد . ونحن نعرف التعريف الذي قدَّمه رينان لهذه البلاد ، وهو على الرغم من كونه تعريفاً مبالغاً فيه ولكنه جانباً من هذا الوضع ، فهو يقول : « إن فينيقية ليست إلا ضاحية تحيط بالمرافىء الساحلية » . فالفينيقيون لم يكونوا يستطيعون أن يكتشفوا مصيرهم في سلسلة لبنان بل الثروة في نظرها تكمن في عرض البحر ، والمتوسط كان هناك يقدم نفسه لهم ميداناً واسعاً مليئاً بالوعود .

« وكان فينيقيون يجلبون كمية كبيرة من الحلي في مركبهم الأسود » (الأدويسة XV, 416 - 417)

يبدو واضحاً أن التفوق السياسي ـ وإذا أردنا أن نستعمل تعبيراً مبهماً نقول إن الإمبريالية بالمعنى الذي يميز نشأة وتوسع الإمبريالية الآشورية مثلاً ـ هذا التفوق أو هذه الإمبريالية لم يكن أحدهما يثير في نفوس الفينيقيين أي اهتمام . فالمحرك الأساسي بل وحتى الوحيد الذي سيدفعهم لمغادرة ممالكهم لمواجهة أخطار البحر كان من طبيعة أخرى هي الأطماع التجارية . ومن البديهي أن هذه الأطماع تبدو محتقرة في نظر المعجبين بالكتائب والفيالق وماتحرزه من مغانم ومآثر . فكان ينبغي على الأنشطة التجارية المكثفة المجدية أن تعوض مالم يكُن يستطيع الضعف العددي لشعب تنقصه الوحدة ويعوزه جهاز عسكري حقيقي أن ينتزعه من جيرانه الأقوياء . وبما أن أي أمل في بناء إمبراطورية أرضية كان مستبعداً فقد بقي عن طريق الصلات الممتدة إلى كل آفاق المتوسط أن تُنسج أشرعة نوع من إمبراطورية بحرية ، وكان على الوطن الأم أن يجتذب إلى مرافئه كل الثروات التي لاتقدمها أرضه . ومن أجل تحقيق هذه المخطط أظهر الفينيقيون من البراعة والحنكة والشجاعة بمقدار ماأظهرته أمم أخرى وهي تبني إمبراطورياتها بقوة السلاح .

لقد أقام الصوريون والصيدانيون لهم سريعاً سمعةً يستحقونها كتجار ماهرين كانوا نشيطين وذوي مبادرة حتى أنهم فرضوا أنفسهم على جيرانهم ومنافسيهم العبرانيين في عقر دارهم . وإذا كانت التوراة في مرات عديدة قد استعملت عبارة الكنعانيين عند الحديث عن التجار فذلك لأن الكنعانيين ـ الفينيقيين كانوا قد توصلوا في (مملكة) إسرائيل نفسها في الواقع إلى إقامة شبه احتكار على تجارة الاستيراد وهكذا ، وعلى الرغم من الفوارق وبخاصة في موضوع الدين ، فإن العلاقات الوطيدة كانت واسعة بين هذين الشعبين الساميين اللذين

كان اقتصادهما متكاملاً في بعض جوانبه ، وإليك مثالاً شهيراً على ذلك :

عقد حيرام (أو أحيرام) علاقات ودية مع معاصره سليمان . وقد استجاب ملك صور (٩٦٩ ـ ٩٣٦ ق . م) استجابة فورية لملك إسرائيل عندما سأله هذا أن يرسل له أخشاب الأرز والعرعر (نوع من الصنوبريات) لبناء قصره ومعبد أورشليم في مقابل أن يرسل له القمح لمؤونة بيته . وعندما تسلم سليمان من حليفه عشرين وزنة من الذهب لتزيين منشآته الملكية تنازل له بدوره عن مقاطعة من منطقة الجليل تضم عشرين ناحية . ولما زار ملك صور هذه الضياع تبين له أنه عقد صفقة خاسرة لأن الأرض التي أعطيت له لم تكن لها أية قيمة في نظره ، ومع ذلك فإن هيبة جاره القوي كانت من القوة بحيث أن حيرام الذي لم ينس أن حليفه كان يؤمن له الحماية بهزيمته للفلسطينيين ذهب إلى حد أنه وضع جزءاً من أسطوله تحت تصرف إسرائيل بمناسبة حملة إلى بلاد أوفير الغامضة (ربما كانت على الساحل الغربي للجزيرة العربية) . وهكذا فإن « مراكب من ترشيش » ـ كما سنرى فيما بعد ـ يقودها ملاحون فينيقيون يعرفون وحدهم هذه الطرق كانت تعود بانتظام محملة بحمولات غنية من الذهب والفضة والأحجار الثمينة والعاج وخشب الصندل والقرود والطواويس .

على أن الملاحين الفينيقيين كانوا يجوبون المتوسط لمصلحة مدنهم الخاصة بالدرجة الأولى ولكن سيادة البحر هذه التي كانت يومذاك بديلاً عن ثوة الأخيين ـ الموكينيين البحرية لم تكن ممكنة لولا ماتكشف عنه الفينيقيون من خبرة عالية في الملاحة . ولنلاحظ أولاً أن طبوغرافية مدنهم نفسها كانت تدعو إلى نشاط موجه بكامله إلى عرض البحر . فهذه المدن كانت قد أنشئت على مواقع تناسب بشكل رائع إقامة المرافىء وكأنما الغاية منها أن تكون مجرد محطات مؤقتة : نتوءات صخرية طويلة من هذا الطرف وذاك : خلجان صغيرة متناظرة جهزت بحيث تكون صالحة للرسوّ أحدها في الشمال والآخر في الجنوب بحيث تسمح للمراكب بأن تستفيد من الرياح السائدة بحسب الفصول . والواقع أن هذه المرافىء لم تكن إلا مجرد مسطحات مائية محمية بشواطىء رملية يمكن أن تسحب إليها القوارب أثناء الطقس العاصف وتسمح بصيانتها وإصلاحها . وهكذا كان

يبدو المركزان الكبيران صيدا وصور. واحياناً ـ كما هو الحال في صور وأرواد ويدافع من ضمانة إضافية ـ تكون المنشآت الأساسية للمدينة مبنية على جزيرة واقعة على مقربة من الرأس الصخري ويقوم فيها حي البحارة ، ففي حالة الخطر كان السكان ينسحبون إلى هذه «الصخور» التي كانوا يستخدمونها كقلاع حقيقية.

ونحن لانعرف إلا القليل عن الأسطول الفينيقي . ففي أحد قبور طيبة يعود إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تمثل لنا صورٌ جداريةٌ مصريةٌ سفناً تجاريةً تخص الساحل السوري ـ الفلسطيني الذي كان يومذاك تحت وصاية الفراعنة وهي مراكب « مستديرة » تتميز بهيكل عريض جداً مع صار مركزي ودوقل (عارضة الساري) يحمل شراعاً مربعاً .

وفي نقش آشوري بارز بالقرب من نينوى في خورساباد وفي قصر صارغون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥) يمكننا أن نشاهد أسطولاً صغيراً جداً من مراكب تستعمل لنقل الخشب يحركها مجذفون وترتفع ارتفاعاً كبيراً من طرفيها وتحمل رأس حصان منحوتاً في خشب جؤجئها ، وهناك عوارض خشبية محملة فوق الزوارق وأخرى تعوم في الماء وتسحبها حبال مربوطة في كوائل المراكب .

وثمة نقش بارز آخر في نينوى أُتيَ به من قصر سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١) يمثل مراكب استعملت بمناسبة نقل الجنود الذين يحرسون أفراد عائلة لولي ملك صور وصيدا وحاشيته عند فراره إلى قبرص لينقذ نفسه من الجيش الآشوري . ويلاحظ فيها نوعان من المراكب ، أولهما مراكب حرب ذات صالب * طويل ينتهي صدرها الذي يشبه الحذاء بحيزوم دقيق أما مؤخرتها التي تضم دفتي قيادة مثبتتين كل واحدة في أحد الجانبين فهي ذات انحناء شديد . وفي الوسط يقوم صارٍ يحمل دوقلاً مع تجهيزاته وهذا الصاري مثبّت بالحبال . وهذه المراكب ثنائية السطح فهي ذات دفع مزدوج لأنها تضم صفين من المجذّفين أحدهما فوق الآخر ، المجذّفون الذين هم في الأعلى يظهرون وحدهم فوق سطح السفينة . أما الجنود المسافرون فقد اتخذوا أماكنهم فوق منشآت علوية من السفينة محمية

---

* الصالب : عارضة رئيسية تمتد على طول قعر السفينة ـ المترجم ـ

بمجنّات واقية . والنوع الثاني من المراكب الممثلة في هذا النقش البارز الشهير هو مراكب تجارية من نموذج السفن ذات الهيكل المستدير ـ على غرار الغولوا gauloi الإغريقية ـ مع نهايتين متناظرتين . ونلاحظ هنا أيضاً صفين من المجذفين مع نوع من جسر موفوع فوق سطح السفينة مخصص لجلوس الأشخاص المسافرين ، على أن هذه السطوح الثنائية ليس فيها أي نوع من الصواري .

ولم يكن الملاحون يعتمدون على البوصلة ، وإنما على الدب الأصغر الذي كان الإغريق يطلقون عليه اسم « الفينيقي » ، وهذا دليل على أن الملاحين الفينيقيين كانوا يمارسون الملاحة في الليل . ومع ذلك، ومن أجل أن يتمكنوا من محاذاة الساحل بشكل منتظم ويقومون بالنقل الساحلي الذي كان يحل محل النقل الأرضي فإنهم قاموا بالاستدلال على جميع المراسي الممكنة وجهزوا محطات تقع على مسافات منتظمة وقريبة نسبياً بعضها من بعض ، وهكذا فإنهم كانوا ينتقلون خلال يوم واحد من الملاحة من مركز تموين إلى المركز التالي ليجدوا فيه ملجأ إذا دعت الحاجة لذلك وخاصة في فصل الشتاء وليحصلوا منه على الماء والطعام وبخاصة ليعقدوا صلات متتابعة مع سكان السواحل التي كانوا يرسون فيها بقصد التجارة . ومع ذلك فإن الفينيقيين الذين لم يكونوا يتمسكون بهذه المساحلة القصيرة المدى لم يترددوا في اقتحام أعالي البحار . وبما أنهم لم يكونوا يمتلكون قطعاً سوى مراكب ذوات حمولة خفيفة فإنهم لم يصبحوا اختصاصيين في فن الملاحة فحسب وإنما تعلموا أيضاً كيف يعدّلون من خصائص أدوات عملهم أي من خصائص مراكبهم . ومن بين هذه التحسينات التقنية التي سمحت لهم بتخطي كل منافسيهم مابين القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثامن يجب أن نذكر استعمال القار لطلاء المناطق الحساسة من مراكبهم بعد سد حزوز الاتصال بين الدفوف الخشبية مما يؤمن لها تماسكاً محكماً . أما تقوية الفاطس بداعمة للصالب (على الرغم من أن بناء هيكل ذي قفص بواسطة أربطة يعتبر تقنية لم تظهر في الشرق القديم قبل نهاية الألف الثامن قبل الميلاد) فقد سمح بالحصول على مراكب طويلة أكثر قابلية لملاحات أبعد وأقدر على التمتع بنوع من الاستقلال عن الساحل (١٣) . ومن جهة أخرى فإن جزر المتوسط كانت تعتبر

محطات للمراكب . ففي وقت مبكر تمكن الملاحون ـ في طريقهم إلى الغرب ـ أن يصلوا بسهولة إلى اليونان ومرافىء الساحل المصري . وكانت الغاية الوحيدة لهذا التوسع التجاري هي الإفادة بأحسن الشروط من مصادر المواد الأولية التي كان الساحل السوري ـ الفلسطيني محروماً منها وفي مقدمتها المعادن الثمينة من ذهب وفضة وكذلك القصدير والرصاص والحديد، وكان الفينيقيون من جهتهم يقدمون أخشاب الأرز والصنوبر والسرو والتنّوب التي كانت مطلوبة جداً من أجل الإنشاءات الملاحية ، كما أنهم كانوا يقدمون الأصواف أو أنسجة الأرجوان المصبوغة والعطور والخمور والبهارات وبخاصة منتجات صناعية نشيطة جداً تعتمد على أيد فنية ماهرة تنتج أنواعاً من الطُرف المستملحة أو الزجاجيات التجارية الرخيصة .

ولم يكن المغامرون « أو رجال الأعمال هؤلاء » ـ عندما تسنح لهم الفرصة ـ يهملون الإفادة من المكاسب التي تدرها عليهم تجارة الرقيق ، ولم يكونوا في هذا المجال إلا مقتدين بما كان الجيران يفعلونه من حولهم . ويذكر لنا هيرودوت (I, 1; II, 45, 56) ان ابنة إيناخورس ملك أرغوس الأسطوري كانت قد بيعت في مصر ، وأن قراصنة فينيقيين حملوا إلى دودون في إيبيروس وإلى ليبيا كاهنات اختُطفن من طيبة (في بلاد اليونان) ، ونحن نعرف صفحة الأوديسة التي أطلق فيها المنشد الإغريقي العنان لمشاعره « المعادية للسامية » (١٤) ـ وربما كان يعكس في ذلك حالة قد نشأت حديثاً بسبب المناقشات الاقتصادية التي لم تكن قد ظهرت بعد في الإلياذة ـ وهي تروي بالتفصيل مناورات الصيدونيين الذين «كانوا يشرون ثراء فاحشاً بلجوئهم إلى الحيلة » ، فمن « مركبهم الأسود » كانوا يفرغون طُرفاً رخيصة ثم يلجؤون إلى الغواية والخداع لاختطاف بعض السكان المحليين على أمل أن يبيعوهم بأثمان عالية ثم يرحلون :

« في أحد الأيام قدم الفينيقيون الذين كانوا يتمتعون بشهرة ملاحية عالية ولكنهم قوم جشعون . كانوا يجلبون معهم في مركبهم الأسود طائفة من الطُرف ، وكانت توجد في منزل والدي امرأة فينيقية جميلة طويلة القامة خبيرة بالتحف المرهفة ، وقد داهنها الفينيقيون المحتالون وجاملوها في سبيل تجارتها . وفي أحد

الأيام بينما كانت عند حوض الغسيل بالقرب من المركب المقعّر التحق بها واحد منهم وبالمداعبات وإظهار المحبة ـ وهذا مايفقد النساء رشدهن حتى الفاضلات من بينهن ـ سألها من هي ومن أين أتت ، فأشارت فوراً إلى بيت أبي وقالت : من دواعي فخاري أنني ولدت في صيدا الغنية بالبرونز وأنا ابنة أريباس ذي الثروات الطائلة ، ولكنني احتُطفت على يد الطافيين القراصنة وأنا عائدة من الحقل ، فقادوني إلى هنا وباعوني إلى منزل هذا الرجل وقبضوا فيَّ ثمناً عالياً فقال لها الرجل الذي لحق بها : ألا تريدين الآن العودة إلى بيتك معنا ورؤية والدك ووالدتك ومنزلهم ذي السقف المرتفع ؟ واعلمي أنهم مازالوا أحياء ويعتبرون من الأغنياء . وأجابت المرأة على هذا العرض : بلى إن هذا ممكن ، ولكن يجب عليكم أيها البحارة أن تقسموا اليمين على اصطحابي سليمة إلى بيتي فأقسم الجميع اليمين التي طلبتها .. ، ثم أردفت : ضعوا في أذهانكم ماأطلبه منكم ، أسرعوا في شراء شحنة سفينتكم وعندما تصبح مليئة بالبضائع أرسلوا إليّ لإبلاغي بسرعة في المنزل وسأحضر معي من الذهب كل مايقع تحت يدي وسأكون سعيدة بأن أقدم لكم شيئاً آخر مقابل امتطائي لمركبكم ، انني أربيّ في القصر الريفي الصغير ابناً لسيدي الفاضل ، صبياً لعوباً يركُض ورائي عندما أخرج ، أستطيع أن آتي به إلى سفينتكم وستنالون فيه ثمناً مرتفعاً جداً في أي مكان بعتموه في الخارج ، وبعد أن تحدثت بهذا الكلام عادت أدراجها إلى منزلها الجميل .. وبقي الفينيقيون عندنا عاماً كاملاً يجهزون أنفسهم ببضائع مختلفة امتلأ بها مخزن مركبهم ، وعندما غدا مترعاً ووجب عليهم الرحيل أرسلوا رسولاً يخطر المرأة بذلك . فأتى الرجل ـ وكان ماكراً ـ إلى منزل والدي وكان يحمل في يده طوقاً من الذهب نُضِّدت عليه لآلىء من العنبر . وأتت والدتي المحترمة ومعها الخدم والحشم يتفرجون على العقد ويتحسسونه بأيديهم ويشبعونه تأملاً بأعينهم ويعرضون ثمناً له . وفي خلال ذلك أعطى الرجل إشارة إلى المرأة دون أن يقول أية كلمة ولحق بالمركب المجُوف على الأثر . وأما هي فقد أخذتني من يدي وقادتني إلى خارج المنزل .. كنا نسير بسرعة حتى بلغنا المرفأ المعروف حيث كان يرسو المركب ذو السير السريع . وكان طاقم السفينة فوق السطح فاتخذوا طريقهم عبر المياه ونحن

في رفقتهم وأرسل زيوس ريحاً رخاء كانت تساعدهم على الإبحار . وقضينا ستة أيام نشق اليم واصلين الليل بالنهار ، ولكن عندما قام زيوس بن كرونوس فأظهر لنا يومنا السابع أتت أرتيميس رامية النبال فضربت تلك المرأة بسهامها وسمعنا صوت جسدها وهو يسقط في فنطاس السفينة (خزان المياه فيها) كما يسقط قارب إنقاذ في البحر ، وعند ذلك رموها لتكون فريسة للفقمات والأسماك . وأما أنا فقد تركوني هناك منقبض القلب ، ودفعتنا الريح والمياه إلى إيتاكا حيث اشتراني لايرت بدنانيره الخاصة » (١٥) .

ولكن على الرغم من بعض أعمال القرصنة التي هي على هذه الشاكلة ـ وفي هذه المناسبة لنلاحظ أن الجارية الصيدونية التي تواطأت مع مواطنيها كانت هي نفسها ضحية اختطاف على يد نخاسين من الإغريق ـ فإن مما لاشك فيه أن الفينيقيين بعقدهم علاقات متلاحقة مع زبائنهم الأجانب كانوا قد اكتسبوا شهرة الرجال الماهرين الدهاة كما أنهم عرفوا إلى جانب ذلك مخلصين لما يعقدونه من اتفاقات تجارية وتلك من أولى الفوائد التي يجنيها التجار الفطنون ، على أنه كان ثمة ماهو أكثر من ذلك .

إن الشكل المركنتلي التجاري لهذا التوسع والبضائع ذات المواصفات المتشابهة Standart التي تنتجها المشاغل الفينيقية والتي كانت تصدر إلى كل سواحل المتوسط ليس لها أن تطمس القدرة الإبداعية لشعب لم يكتف بأن يضع مهارته التقنية في إنتاج صناعات شائعة وفي متناول الجميع ، فإن جبيل وصور وصيدا كانت تملك فنانين حقيقيين أنتجوا في ميدان الصياغة مثلاً تحفاً عالية الإتقان نالت إعجاب الخبراء . وإذا عدنا إلى هوميروس يكفينا أن نستشهد بهذا المقطع من الإلياذة (XXIII, 743s.) يتعلق بكوب قُدّمت رهاناً في مسابقة : « إناء من الفضة لمزج الخمر بالماء ذو ستة قياسات هو الأجمل بين كل ماهو موجود في العالم صاغه صاغة من صيدا بكل فن وإتقان وجلبه بعد ذلك فينيقيون فوق البحر المزبد ليعرضوه في المرافيء .. » .

ولاينبغي لنا أن ننسى أخيراً أن الأغريق الأوائل كانوا مدينين مباشرة للفينيقيين باختراع رئيسي ساعد على نشر الفكر والتاريخ والثقافة الغربية هو

الأبجدية الصوتية . وإذا كانت هذه المسألة لم تنضج بعد بشكل حاسم فإننا نقبل بوجه عام أن الكتبة الكنعانيين كانوا أوائل من تبنّوا الكتابة « الفينيقية المبكرة » التي استعملت في بادىء الأمر في كتابة اللغات الفينيقية والعبرية والآرامية ، «فمنذ ماقبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ظهرت أنماط لاتضم إلا عدداً محدداً من الإشارات » نعد منها في الوثائق التي اكتشفت أثناء التنقيب في أوغاريت (رأس شمرة) ثلاثين من هذه الإشارات تمثل كل واحد منها مقطعاً لم يُدوَّن منه إلا الحرف الصامت . وفي النقش الذي استخرج من جبيل على قبر الملك أحيرام وربما كان يعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد لم يُستعمل إلا اثنتان وعشرون إشارة صامتة وهذه الأبجدية هي التي أُعيرت لليونان فاقتبسوها وحافظوا على التسميات السامية الأصلية لها للدلالة على أحرفهم التي أضافوا إليها فيما بعد إشارات جديدة لكتابة الأحرف الصوتية ، ونحن نعرف أنها انتقلت إلى اللاتين وشعوب العالم الغربي عن طريق الإتروسكيين .

الرواد الفينيقيون على السواحل الغربية للمتوسط

كان لهذا العالم الغربي علاقات مبكرة جداً مع فينيقية . والمشكلة الأولى التي تُطرح هي مشكلة تاريخ التوسع الفينيقي . وكما هو شأن كل مشكلة تتعلق بميادين التاريخ القديم فإننا لانستطيع أن نتوصل إلى حلها إلا بتجميع الشواهد التي يقدمها لنا الكتّاب الكلاسيكيون (يونان ورومان) ومقابلتها مع مختلف الوثائق التي تقدمها لنا الكشوف الأثرية . وبطبيعة الحال نحن لانستطيع هنا أن ننخرط بمثل هذ التفاصيل إضافة إلى أن أعمال الاختصاصيين الذين درسوا هذه أو تلك من جوانب الموضوعات التي يهمنا أمرها ـ سواء كانوا مستشرقين أو مؤرخين من أفريقية الشمالية القديمة أو أثريين نقبوا في المواقع الفينيقية والبونية أو لغويين مهتمين باللغات السامية ـ لاتحمل لنا إلا أجوبة مؤقتة لاتحمل عناصرها دائماً إلا نتائج تقريبية . وتتراكم الصعوبات عندما نريد أن نضع نظريات شاملة ولاتسمح لنا الاعتبارات التي تلي ذلك بأن نتجاوز مرحلة التقريب والتخمين . وفي كثير من المرات تصبح بعض الفرضيات مفضلة على الأخرى دون أن يكون بإمكاننا دائماً في إطار هذا العرض العام أن نسوّغ أسباب هذا الاختبار .

إن الاختلافات في مسألة اختراق الفينيقيين للبحر المتوسط الغربي تستند بشكل رئيسي على نقاط تتعلق بتاريخ هذا الاختراق . والمناقشات تقوم إذن بين أنصار زمن متقدم يعود إلى نهاية القرن الثاني عشر وبين أولئك الذين يدافعون عن زمن متأخر. فبحسب هؤلاء الأخيرين بدأت الانطلاقة الفينيقية بعد حوالي قرن ونصف مما يقره الفريق الأول أي بدءاً من القرن العاشر مع تأسيس قادس عام ٩٧٠ على أبعد تقدير ، ثم أوتيكا عام ٩٥٠ وقرطاجة عام ٦٦٣ . (١٦)

ومن البديهي أن تقاطع مختلف المعطيات الأدبية وماخلفته النقوش والآثار لايسمح لنا بأن نصل إلى حلول مرضية تماماً ، وعلينا أن نعترف بوجود فجوة بين المعلومات التي يقدمها لنا المؤلفون الكلاسيكيون من جهة (من أمثال توقسيديدس وديودور الصقلي وفيليوس باتركولوس وبليني القديم) وهم يقولون إن التوسع الفينيقي في الغرب بدأ في نهاية القرن الثاني عشر نتيجة لاستقلال فينيقية بعد غزوات شعوب البحر ، فهو يسبق إذن إنشاء أول مستوطنة إغريقية ، وبين المعطيات التي تقدمها لنا الوثائق الأثرية القديمة التي تشهد على هذا الوجود الفينيقي من جهة أخرى . ونادرة هي في الواقع تلك الوثائق التي يمكن اعتبارها موثوقاً بها وتعود إلى ماقبل القرن الثامن قبل الميلاد . وينجم عن ذلك بحسب مايذهب إليه بعضهم أن التوسع الفينيقي في أفريقيا وإسبانيا إنما كان لاحقاً لتوسع إغريق سامنوس وأنه لايعود إلى أبعد من القرن السابع قبل الميلاد(١٧) .

والحقيقة أن هذه الفرضيات التي لاسند لها يزداد الاستغناء عنها يوماً بعد يوم . وعلى العكس من ذلك يبدو أن الحالات التي يدافع عنها أنصار زمن يتلاءم عموماً مع نصوص المؤلفين الكلاسيكيين قريبة من الحقيقة التاريخية ولنلاحظ قبل كل شيء أننا لانستطيع أن نعتمد على النتائج الحالية التي تقدمها لنا التنقيبات الأثرية لنستخلص منها نتائج حاسمة ، ومن أجل ذلك فإن المؤرخين يرفضون القبول بالحجة الأثرية حجة قاطعة تلزمهم بالتخلي عن التواريخ التي تقدمها لهم المصادر الادبية طالما وجد نقص في الوثائق الأثرية التي تعود إلى عصور أقدم . ونحن نعرف من جهة أخرى في موضوع المادة الأثرية أن دقة

التواريخ فيها كانت في أكثر من مرة موضوع نقاش . على أننا يجب أن نفهم بوجه خاص أنماط التوسع وأن نميز مراحله .

إن أقدم الآثار المكتشفة لاتستطيع أن ترقى إلى عصر القواعد الفينيقية الأولى . وفي هذا المجال كان الأمر يتعلق في الواقع بمراكز تجارية بسيطة تباشر أمرها زمر صغيرة مكلفة بعقد صفقات مع السكان المحليين . وكان العملاء التجاريون الموزعون على طول هذه المحطات لايمكنهم أن يقيموا فيها إلا خلال الزمن اللازم لتسوية بعض أعمال المقايضة أو دراسة السوق ومايحتمل تأمينه من عملاء تجاريين . على أن كل هذه الزمر التي سبقت الاستيطان لم تترك أي أثر ينبيء عن وصولهم أو إقامتهم ، وأقدم الشواهد الأثرية إنما يدل على إقامة منشآت بنيت في عصر لاحق يتأخر سنوات قد تصل حتى إلى أكثر من قرن عن زمن الاختراق الذي تم قبل ذلك في الحقيقة بزمن طويل ، وعند ذلك ازدهرت وتطورت وكالات تجارية ثابتة ودائمة بعد أن خسبت الاحتمالات التجارية التي نسميها اليوم بدراسة الأسواق وبعد أن ثبت بالتجربة جدوى هذ المبادلات . وكان لابد لهذه الوكالات التجارية من أن تنشيء نوىً لمستوطنات حقيقية لها شيء من الأهمية تتجمع فيها عائلة فينيقية هجرت وطنها الأصلي بدون أمل في الرجوع إليه وتمركزت هنا في تنظيمها الاجتماعي والديني جاعلة من هذه المستوطنات وطنها الجديد . وتعود المقابر التي قدمت للبحث الأثري وثائقها الأقدم إلى هذه الموجة الثانية من المهاجرين وإن كنا لانزال بعيدين عندئذ عن الوصول إلى أوائل الرواد. وإذا كان هؤلاء المغامرون قد تقدموا حتى إلى أبعد من أعمدة هرقل * فإنهم لم يكن لهم إلا هدف واحد هو أن يملؤوا عنابر مراكبهم بالمعادن الثمينة والبضائع النادرة ثم امتطاء ظهر السفن مرة أخرى والإقلاع نحو المرافيء الفينيقية من جديد .

ومن الطبيعي أن الفينيقيين في فرط التوسع هذا كانوا قد بدؤوا بالهجرة

---

* اي إلى أبعد من مضيق جبل طارق ـ المترجم ـ

إلى الجزر والتوزع على طول ساحل المتوسط الشرقي بدءاً من كيليكية وتخوم الأناضول - وهكذا رفعت في زنجرلي (سمأل) في شمالي سورية نصب تذكارية من القرن التاسع قبل الميلاد عليها كتابات فينيقية أتى فيها ذكر الإله بعل حموت (الجبل الأقرع) - وحتى مصبات الدلتا . وكانوا يعبدون في ممفيس الإلهة عشتار كما يقول هيرودوت (II, 112) وذلك في الوكالة التجارية الأجنبية التي كانت تسمى يومذاك « معسكر الصوريين » . وفي قبرص حيث كانت الثروات المعدنية والزراعية كبيرة أقيمت منشآت فينيقية منذ زمن مبكر كان من بينها كيتيون التي كانت من ممتلكات ملك صور - وقد رأينا كيف لجأ إليها الملك لوليّ في عام ٧٠١ ليتخلص من سنحريب ملك الآشوريين - ، كما دخلت رودس وكريت وجزر السيكلاد وجزر بحر إيجة الأخرى في دائرة الملاحين الفينيقيين . وبلغوا جزيرة مالطا أيضاً . والواقع أن هذه الجزيرة - كما كتب ديودور الصقلي (V, 12) - « قد استوطنها الفينيقيون الذين استولوا على هذا الملجأ عندما كانوا يمدون تجارتهم نحو المحيط الغربي ، وكانت تقع في وسط البحر وتتمتع بموانىء صالحة » . وقد سمحت المكتشفات الأثرية الحديثة (١٨) بالقول إنه في مواقع عديدة كان ثمة مرحلة فينيقية سابقة للاحتلال القرطاجي لهذه المواقع . لقد كانت جزر غوزّو وبانتيليريا محطات للفينيقيين ولكن صقلية وسردينيا كانتا هما اللتين قدمتا لهم أسواقهم الهامة .

لقد قامت لفترة طويلة مناقشة نص لتوقسيديدس (VI, 2, 6) أشار فيه إلى وصول الفينقيين لصقلية وتجمعهم - بعد وصول الإغريق - في نقاط من المنطقة الساحلية وبخاصة في موتيي - وقد أثبتت التنقيبات الأثرية مرة أخرى(١٩) قيمة هذا النص الأدبي . وتمثل موتيي على الحد الغربي من صقلية موقعاً نموذجياً للمرافىء الفينيقية : جزيرة صغيرة مساحتها خمسون هكتاراً في وسط فرضة ذات مياه قليلة العمق غير بعيدة عن عرض البحر وتحميها جزيرة طويلة جداً تتكسر عليها الأمواج فتسمح بذلك بالاقتراب من الساحل في كل الأوقات والفصول وقد استخرجت من المقبرة القديمة الواقعة في الجزيرة نماذج مختلفة من الفخار تشهد على وجود منشأة فينيقية تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد فتكون

بذلك سابقة لعصر الاحتلال القرطاجي الذي تابع بعد ذلك وبقي حتى عام ٣٩٧ ق . م وهو تاريخ دمار المدينة على يد سيراكوزا . أما في سردينيا فقد اكتشفوا في موقع مستوطنة نورا القديمة نقشاً اتفق المؤرخون اليوم على أنه يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد . كذلك أحصيت آثار أخرى تدل على الوجود الفينيقي في جزيرة سولكيس الصغيرة التي تقع قرب الساحل الجنوبي الغربي من سردينيا ويطلق عليها حالياً اسم سانت أنتييكو (٢٠) .

وبمناسبة هذه الآثار الأخيرة ينبغي علينا أن نشير إلى صعوبة التمييز التي قد تكون كبيرة أحياناً بين المستوطنات «الأولى» والمستوطنات «الثانية» ، أي بين تلك التي يعود إنشاؤها إلى مرحلة التوسع الفينيقي وتلك التي تأخرت ويعود تاريخها إلى عهد الهيمنة القرطاجية . والواقع أن هاتين المرحلتين كانتا متلاحقتين ـ ولابد لنا من أن نذكّر بذلك ـ بل وأحياناً كانتا متداخلتين بطريقة متعددة . ففينيقية كانت منذ مطلع القرن السابع قد دخلت تحت الوصاية الآشورية ولكن هذا الاحتلال الذي فرضه ملوك نينوى لم يكن قط احتلالاً كلياً إذ جرت عدة انتفاضات أزاحت عن كاهلها النير الأجنبي . وهكذا دمّرت صيدا في عام ٦٧٦ ق . م على إثر ثورة قامت فيها ونُفي سكانها ، وأما صور التي كانت علاقاتها مع مصر تخدمها في إقامة التوازن أمام ادعاءات آشور فإن ملوكها كانوا مرغمين احياناً على دفع الجزية لمولاهم (ملك آشور) ، ولكن على الرغم من أنها كانت تُحرم من خلفيتها الأرضية الواقعة على البر فإن المدينة بقيت معصومة في جزيرتها صعبة المنال . ومع ذلك فإن « الممالك » الفينيقية التي كانت ضحايا هذه الكوارث المتكررة مالبثت أن فقدت حريتها شيئاً فشيئاً وأُلجم بغتة تيار التجارة الذي استمر يجري خلال القرون السابقة وتوقفت وذلك على الرغم من أن قوة صور البحرية بقيت بعد ذلك لفترة طويلة لايستهان بها وإن كانت قد وُضعت في بعض الظرف في خدمة الآشوريين كما حدث بين عامي ٦٧٦ ـ ٦٧١ قبل الميلاد . فالمنشآت التي أقيمت في الغرب على يد الملاحين القادمين من الساحل الفينيقي هي التي أنشأت إذن هذا العالم « البوني Punique » الذي سيتوسع بسرعة والذي ستفرض عليه قرطاجة سلطانها في النهاية .

وهكذا يصبح من باب الاحتمال أن تكون الحضارة البونية التي حلت محل التقاليد الشرقية الأصلية هي التي يمكن أن تُنسب إليها هذه المنشأة أو هذا المتاع بعد مرحلة التوسع البوني (الفينيقي) في الغرب فأنشؤوا بأنفسهم ولحسابهم الشخصي هذه المستوطنات وتلك الوكالات التجارية التي لامسوغ لنسبتها إلى مرحلة التوسع الفينيقي (الشرقي) طالما لايوجد دليل واضح يشهد على ذلك . والواقع يبدو أن العلاقات بقيت مستمرة خلال القرن السابع بين المرافىء الفينيقية والقبرصية من ناحية وبين المنشآت التي كانت قد أنشئت على الساحل الأفريقي ، وكان لابد لبعض هذه المنشآت الأخيرة من أن تستخدم قواعد لمرور البضائع أو مراكز توزيع للأنشطة التجارية والمنتجات الفينيقية ، وهذا مايفسر عدم قدرتنا على إيجاد أي فرق أو فجوة في توسع العالم الفينيقي - البوني .

ولم يترك هذا التوسع آثاره ومخلفاته على سواحل جزر البحر المتوسط وحدها بل إننا كشفنا بين أنقاض مدن إتروريا ولانيوم القديمة نفسها أعداداً من المصنوعات العاجية وعلب المجوهرات مزينة بتزيينات مميزة ذات أصل سوري - فلسطيني أو قبرصي ، وتلك إشارات يمكنها أن تحملنا حتى على الظن بأن مستوطنة صورية قد قامت فيما مضى في موقع روما ذاته (٢١) .

ومع ذلك فإنه على الساحل الأفريقي بل وإلى ماوراء ذلك كل ماأنشأه الفينيقيون من مؤسساتهم الرئيسية التي قُيِّض لبعضها أن يشهد نهضة مذهلة فاقت ماعرفته « المدن الأصلية الأم » وتركت صوى توسعها ليس فقط على سواحل المتوسط الممتدة مابين الواجهة الشرقية من تونس إلى أعلى مضيق جبل طارق وإنما ترك بعضها آثاره أيضاً على السواحل الأطلسية مابين المغرب وإسبانيا .

« وسفن ترشيش في الأول لتأتي ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم » (أشعيا ٦٠ ـ ٩)

في الوضع الحالي للتنقيبات الأثرية أخرجت للنور مادة أثرية هامة من المواقع الفينيقية والبونية الغربية . وإذا استثنينا بعض هذه القطع المستخرجة من إسبانيا وشمالي أفريقيا (في أوتيكا) والتي يمكن أن ترقى بموجب تقديرات تخمينية إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد فإن أقدم هذ الآثار يبدو أنه لايعود إلى ماقبل النصف الأول من القرن الثامن . وإذا كانت المعطيات الأثرية لاتسمح لنا بالعودة إلى أصول التوسع الفينيقي فإن المؤلفين القدماء تمكنوا في المقابل أن ينقلوا إلينا عدداً من الايضاحات الدقيقة . ومع ذلك فإن الموضوع هنا لايتعلق بشهادات مباشرة تتقدم لايضاح هذه الحقبة المبكرة من التاريخ وتسمح لنا بأن نعرف ـ اعتماداً على صانعي هذا الاستيطان أنفسهم أو على معاصريهم ـ عناصر تأريخ مبني على أسس ليس عليها اعتراض .

فالمؤلفون الكلاسيكيون (من إغريق ورومان) أفادوا فعلاً من توثيق قديم جداً عند لجوئهم إلى تأريخ المستوطنات المنشأة في أفريقيا . وهذا التوثيق هو : الروايات الشفهية و « الحكايات الفينيقية » ومصادر أخرى لم تصل إلينا . يضاف إلى ذلك بان الفينيقيين كانوا سابقين للإغريق في المتوسط الغربي ـ على اعتبار أن هؤلاء الأخيرين وصلوا إلى كوم وصقلية في حوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ـ فإن ممالاشك فيه إذن أن الأمر يتعلق بحقيقة تاريخية . « إن الفينيقيين الذين كانوا يجوبون البحر للتجارة منذ عصر بعيد قد أنشؤوا كثيراً من المستوطنات على سواحل ليبيا وبعض المستوطنات الأخرى في الأقسام الغربية من أوروبا » ، وهكذا كتب ديودور الصقلي (V, 20, 1) معتمداً على مؤرخ إغريقي هو تيمي التورمانيوني الذي عاش مابين عامي ٣٤٠ ـ ٣٥٠ ق . م مشيراً إلى التوسع الفينيقي في ليبيا أي في البلاد التي سيطلق عليها اللاتين اسم

أفريقيا (آ) فيما بعد . وهكذا نرى بحسب ماذكره ديودور الذي اعتمد على الرواية القديمة أن التجارة ـ بفضل الوكالات أو المراكز التجارية ـ قد سبقت إنشاء المستوطنات ، وتلك هي الفائدة التي استخلصت من مثل هذه التجارة والتي يمكن أن تفسر لنا خلق هذه المنشآت الأخيرة .

وتتفق المصادر الأدبية مع المعطيات الأثرية القريبة العهد لتشير إلى أن أقدم مستوطنة أفريقية أنشأها الصوريون كانت أوتيكا التي تقع في منتصف الطريق تقريباً بين تونس وبيزرته الحاليتين وتبعد عن البحر بحوالي اثني عشر كيلومتراً . وهذا الموقع الحالي في داخل البر كان سببه تغير مجرى نهر المجردة وتراجع الخليج القديم الذي أنشئت عليه المدينة « بحسب الحكايات الفينيقية » على نتوء من الأرض في عام ١١٠١ ق . م . لابد أن أوتيكا التي كانت تحتل موقعاً مختاراً أمام مضيق صقلية وعلى المحور الذي يصل مباشرة مدينة صور بأعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) قد لعبت دوراً من الدرجة الأولى في المشروعات التجارية الفينيقية مركزاً تجارياً ومحطةً للمواصلات البحرية . وقد اكتشفت بعض الأمتعة الجنائزية (جعرانات وتمائم وفخاريات) من بعض الحفر العميقة في المقبرة يمكن أن ترقى إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد (٢٢) ولكن إذا كانت مثل هذه الأشياء لاتسمح لنا بالتأكيد المطلق على التاريخ الذي ذكرته

آ ـ جاء في الصفحة (17) من كتاب « عروبة البربر » للأستاذ محمد علي مادون مايلي : الوثيقة رقم (٢) : وتتابعت القرون والعصور على مملكة سبأ وملوكها حمير حيث بلغت أوج عظمتها ... في عصرها الخامس ١٢٣٠ ـ ٩٠٠ ق . م ـ بسبب فتوحاتها الواسعة التي قام بها آخر ملوك ذلك العصر وهو : الحارث بن رياش (الرايش) وبتتويجه ـ ١٢٣٠ ق . م ـ بدأ التقويم الرايشي لتاريخ نقوش سبأ (التبابعة) .. وقد استمر التوسع الذي بدأ في عهد الرايش استمر في عهد ابنه : (بور ذي المنار) الذي قاد ابنيه : ذي الأزعار بن ذي المنار ، وأفريقس بن دي المنار غزوات وفتوحات (توطينية) واسعة شملت الساحل الأفريقي للبحر الأحمر وامتدت إلى أقاصي أفريقيا حيث يذكر المؤرخون أن أفريقس ابن ذي المنار بنى فيها مدينة حملت اسمه (أفريقس) ومنها جاء اسم (أفريقيا) .

الرواية الأدبية فإن من الحق أيضاً أن كشف موقع هذه المدينة لايزال بعيداً عن الاكتمال .

في الفصل القادم ستكون الفرصة أمامنا مفتوحة لشرح موضوع أصول قرطاجة التي أنشئت بعد أوتيكا بكثير . على أننا قبل أن نترك الواجهة الشرقية من افريقيا يحسن بنا أن ننوه بذكر منشأة أخرى تعود إلى عصر بعيد هي حضروميت (السوس) التي أنشأها كذلك الصوريون .

أما بالنسبة لساحل المتوسط الذي ينسحب على الجزائر والمغرب فإننا لانملك أي مصدر أدبي يشير إلى مراكز تجارية أسسها الفينيقيون . ولكن التنقيبات الأثرية سمحت مع ذلك بتحديد مواقع مستوطنات تعود بالتأكيد إلى زمن هذا التوسع الأول . وكان لابد لهذه المرافىء التي استخدمت في بادىء الأمر لتكون محطات على طريق المحيط الأطلسي من أن تكون كثيرة العدد ، ونحن نعدد منها على الأقل تيباسا Tipasa في غرب الجزائر وموسى مداخ بعد خليج وهران بقليل ، ثم في عرض مصب نهر تافينا هناك جزيرة رشقون التي تضم منشأة تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد .

وقد تابع الفينيقيون تقدمهم فيما وراء أعمدة هرقل في اتجاهين . فعلى شواطىء المغرب في ليكسوس (لاراش) وكالة (مركزاً تجارياً) يحتمل أنها - بحسب رواية بليني القديم (63, 19) - كانت سابقة لكل الوكالات التي أنشئت في أفريقيا وإسبانيا ، وسنرى الدور الذي لعبته هذه المنشأة على طريق الذهب كمحطة إلى السودان . وأخيراً على بعد أكثر من سبعة كيلومترات إلى الجنوب من طنجة أنشأ الملاحون قاعدة على مائدة صخرية ناتئة في خليج إستاويرا (إيكس - موغادور) تعتبر جزيرة حقيقية في « نهاية العالم » على حدود المجهول .

كذلك اتخذ الاستيطان له طريقاً أخرى إلى جنة أخرى في إسبانيا . كتب ديودور الصقلي يقول : « بعد أن نجح الفينيقيون في مشروعاتهم وكدسوا ثروات طائلة قرروا الإبحار فوق البحر الذي يمتد وراء أعمدة هرقل والذي يطلق عليه اسم المحيط فأنشؤوا قبل كل شيء بالقرب من الأعمدة في أوروبا مدينة اعطوها اسم

غادير Gadir (V, 20) » ، وبذلك يتضح لنا أصل تسمية غادير أو قادس التي هي اصطلاح شائع كان الفينيقيون يستعملونه للدلالة على المكان الحصين أو على الحوش . وكما هو الحال في كثير من المنشآت الأخرى فإن المدينة ـ التي يطلق عليها اليوم اسم قادس ـ كانت قد أنشئت فوق جزيرة قريبة من الساحل ، وقد اتصل هذا النتوء الصخري الذي كان يقعْ أمام مصب نهر ريوغواداليت بالأرض اليابسة فيما بعد بحيث لم تعد التراكمات الحديثة التي غطت الموقع تسمح بنبش المقابر القديمة . وعلى الرغم من الحجج الذي يقدمها أنصار التأريخ القديم للمدينة ـ معتمدين على النصوص الدينية التوارتية ـ فإن فجوة عريضة ماتزال قائمة بين أقدم الآثار التي ظهرت للنور وبين التلميحات التي وردت في كتابات الكتاب الكلاسيكيين . والواقع أننا يمكننا أن نستخلص من بعض هذه النصوص أن الصوريين قاموا بإنشاء قادس في نحو من عام ١١١٠ ق . م أي قبل مايقارب السنوات العشر من إنشاء أوتيكا .

هذه المسألة التي تتعلق بأصول المستوطنة الفينيقية لاتنفصل عن مشكلة طالما أثير حولها النقاش (٢٣) وهي : هل إنشاء قادس له علاقة بالاستثمار التجاري لمنطقة ترشيش الأسطورية التي تحدثت عنها نصوص التوارة ؟، وبكلمة واحدة : هل ينبغي أن نتوسع في موضوع بالغ التعقيد ، فبموجب كل الظواهر وإعتماداً على التنقيبات الحالية يمكننا أن نقبل أن اسم ترشيش السامي الذي ورد في عدة أسفار من العهد القديم يطابق اسم تارتيسوس الذي جاء ذكره في بعض النصوص القديمة وبخاصة كتابات هيرودوت . على أن الموضع هنا لايتعلق باسم مدينة وإنما بمقاطعة ربما كانت تقع في وادي بايتيس (الوادي الكبير) الأدنى الذي كان غنياً بثرواته المعدنية من فضة ورصاص فضي ونحاس وتوتياء ، أضف إلى ذلك أنه عن طريق خلفية هذا البلد كان الاتصال مفتوحاً مع عدد من المحاور التي تخترق حاجز جبال السييرا وتسمح بالوصول إلى ساحل المتوسط . وعلى هذا الساحل على وجه الدقة تمركز عدد من المنشآت الفينيقية التي ترقى إلى عصر قديم وتعاصر نشأة قادس بدون شك إن لم تكن سابقة عليها ، ومن هذه المنشآت ماكان قريباً من ملقا في لوس توسانو وترايامار وأبعد من ذلك إلى الشرق في

جانب المونييكار حيث كشفت مقبرة سيكسي القديمة .

وكانت الغاية من إنشاء قادس أن تكون مستودعاً للبضائع . يقول ديودور إن السكان المحليين كانوا يجهلون استعمال الفضة فكان الفينيقيون يحصلون عليها في مركزهم التجاري مقابل سلع تافهة القيمة فتنصب عليهم بهذه الطريقة معادن ترشيش ـ تارتيسوس . وكانت هذه المعادن تحمل بعد ذلك على مراكب جُهزت لهذا الغرض ـ مقدمة بذلك خدمة لصانعي المعادن عندنا ـ ، وكانت هذه المراكب قادرة على تحدي المسافة مابين الأطلسي وبين مرافىء المتوسط الشرقية مستفيدة في ذلك بدون شك من سلسلة من المحطات المنتظمة على هذه الطريق . وينبغي علينا أن نلاحظ من جهة أخرى أن اسم ترشيش يمكن أن ينطبق على مواقع أخرى من الشرق والغرب ـ ومنها طرسوس في كيليكية ـ وتشترك هي أيضاً في أنها مناطق غنية بالمعادن . ولنضف إلى ذلك أخيراً أن مؤلفي نصوص التوارة عندما يتكلمون عن « مراكب ترشيش » فمن المؤكد أنهم لايقصدون دائماً تلك المراكب التي تذهب إلى قادس لتوثق حمولتها هنا من معادن ترشيش ـ تارتيسوس الإسبانية ، فقد علمنا فيما تقدم من هذا الكتاب أن سليمان أرسل مثل هذه المراكب إلى بلاد اوفير البعيدة ، وعلى هذا يصبح من الواضح أن هذا التعبير الذي توسع معناه توسعاً كبيراً للدلالة على سفن تجارية معينة إنما استمد أصله بدون شك من ذلك التنظيم الفني لتجارة وافرة الربح كانت تربط صور بفرعها الإسباني .

ذلك ماكان عليه العالم الفينيقي في أعظم ساعات توسعه . فمجد صيدا ورخاؤها ، وأكثر من ذلك مجد صور ورخاؤها ، كان كل ذلك يبدو سفهاً وتكبراً في عيون العبرانيين . ولم يكن أنبياؤهم يستطيعون ألا ينددوا بهذا النجاح المنقطع النظير الذي كان يثير الشك في الهداية الربانية المجيدة التي يدعيها لنفسه شعب الله المختار . فهل يمكن لبعل وعشتار وإشمون وحملقرت تلك الآلهة الكنعانية أن تكون أقوى من يهوه إله العبرانيين ؟. في « إلهام » أنعشته نفحة جملتهِ في المقام الأول بين الملاحم الإنسانية يعرض لنا حزقيال صاحب الرؤى لوحة عظيمة هي في الوقت نفسه صفحة تاريخية عن سيطرة صور الواسعة الضاربة

« في قلب البحار » . ولكن مصير صور كان لابد له من أن يكون مأساوياً : فالنبي الذي كتب في الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد وشهد بنفسه خراب أورشليم ومعبدها عام ٥٨٧ ق . م قبل أن يتحمل بنفسه النفي إلى بابل أنبأ في نشيد ديني مأساوي يخفي وراءه ابتهاجاً عميقاً عن غرق المدينة الفينيقية القوية : « كيف بِدتِ بامعمورة من البحار المدنية الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها (١٧،٢٦) ». وكانت صور قد تخلت عن أورشليم في ساعة المحنة وابتهجت بسقوطها وسيأتي دورها في أن تغرق في عز هذه السيادة التي صنعت لها مجدها :

« هكذا قال السيد الرب :
ياصور !
أنتِ قلتِ أنا كاملة الجمال .
تخومك في قلب البحور .
بناؤوك تمّموا جمالك .
عملوا كل الواحك من سرو سنير (حرمون) .
أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سواري .
صنعوا من بلوط باشان مجاديفك .
صنعوا مقاعدك من عاج مطعم في البَقْسِ من جزائر كِتّيم .
كتان مطرز من مصر هو شراعك ليكونَ لك راية .
الأسمانجوني والأرجوان من جزائر اليشة (قبرص) كانا غطاءك .
أهل صيدون وإرواد كانوا ملاّحيك .
حكماؤك ياصور الذين كانوا فيك ربابينك .
شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلأفوكِ .
جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك .
(...)
ترشيش تاجرتُكِ بكثرة كلّ غنىً بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك .

(...)

سفن ترشيش قوافلك لتجارتك فامتلأت وتمجَّدتِ جداً في قلب البحار .

ملاّحوك قد أتوا بك إلى مياه كثيرة .

كسرتْكِ الريحُ الشرقية في قلب البحار .

(...)

من صوت صراخ ربابينك تتزلزل المسارح .

وكل ممسكي المجذاف والملاحون وكل ربابين البحر ينزلون من سفنهم ويقفون على البر .

ويُسمِعون صوتَهم عليك ويصرخون بمرارة ويذرون تراباً فوق رؤوسهم ويتمرغون في الرماد .

ويجعلون في أنفسهم قَرَعةً عليك ويتنطّقون بالمسوح ويبكون عليك بمرارة نفس نحيباً مراً .

وفي نَوْحِهم يرفعون عليك مناحة ويرثونك ويقولون أيةُ مدينة كصور كالمسْكَتةِ في قلب البحر .

(...)

التجار بين الشعوب يَصْفِرون عليك فتكونين أهوالاً ولاتكونين بعد إلى الأبد » (٢٤) .

* * *

على أن موت صور لم يقدر له أن يحدث إلا بعد قرنين ونصف القرن من نبوءة حزقيال المهووسة ، ففي عام ٣٣٢ ق . م حوصرت العاصمة الفينيقية الفخورة الحصينة فوق جزيرتها وهزمت وكان حاجز قد بُنيَ من الساحل ، بعد حصار دام سبعة أشهر أفاد جنود الإسكندر من مساعدة أساطيل مدن فينيقية وقبرصية أخرى فقاموا أخيراً بهجومهم على الحصن وأعملوا المذبحة في السكان .

وإذا كان احتضار المدينة الشهيرة المتحصّنة « في قلب البحار » بطيئاً فإن زوال سيادتها البحرية كان قد تم منذ زمن بعيد يمكن إرجاعه بدون شك إلى

نهاية القرن السابع . وبما أن صور كانت قد تحملت نير جيرانها الأقوياء في مرات متتالية فإنها مثل كل المدن الفينيقية الأخرى فُصلت عن مستوطناتها وتبددت في الوقت نفسه قوتها وراء آفاق البحر . ولكن هذه المستعمرات كان لها من النشاط والاستقلال ماساعدها على أن تختار بنفسها دروبها الخاصة . وعلى رأس هذا « الأسطول » من المنشآت الفينيقية الراسية على سواحل المتوسط الغربي فرضت قرطاجة نفسها من جديد مرة أخرى سفينة للقيادة يأتم بها الجميع .

قَرْتْ حَدَشَتْ ـ المدينة الحديثة

من الأسطورة إلى التاريخ ـ المملكة إيليسّا

اسم قرطاجة أتى من قرطاجو وهي نقل لاتيني لكلمتين فينيقيتين حوَّرهما الإغريق إلى كارشيدون عن أصلهما الصحيح وهو « قَرتْ حَدَشَتْ » الذي يعني «المدينة الحديثة » . وبسبب من المفاهيم السياسية للفينيقيين الذين كانت بلادهم تتألف من ممالك مدن ، وعلى الرغم من أن قرطاجة فرضت نفسها بدءاً من أحد العصور عملياً على رأس العالم البوني فإننا لانستطيع أن نقبل الترجمة التي تدعي إعطاء كلمة « قرت » معنى العاصمة . لقد كان الأقدمون يعرفون تماماً معنى هذا التعبير الفينيقي وقد فسر كاتون أصله ومعناه كما أن تيت ليف ذكر أيضاً أنه « في اللغة البونية قرطاجة معناها المدينة الحديثة » (٢٥) .

فهل يجب أن نستنتج من ذلك أن هذا الاسم اختير على هذه الصورة لأنه يتعلق بمدينة لاحقة أو مضافة إلى منشأة أقدم كانت قائمة في الموقع نفسه ؟ . إنه لمن المحتمل جداً في الواقع أن تكون قد أقيمت هنا في بادىء الأمر محطة كان يرتادها الملاحون الفينيقيون قبل إشادة المستوطنة ، إلا أننا يجب أن نلاحظ بوجه خاص أن قرطاجة في قيامها على الساحل الشرقي من افريقيا الشمالية كانت تشكل « مدينة جديدة » بالنسبة لأوتيكا « العتيقة » التي تقع على ثلاثين كيلومتراً منها إلى الشمال الغربي والتي كانت قد وُلدت منذ زمن طويل . وفي القرن الثاني عندما خُلقت في إسبانيا قرطاجة ـ أو قرطاجنة ـ أخرى كانت هي الأخرى مدينة جديدة لأنها « جدّدت » منشاة قادس الفينيقية القديمة .

والقصص التي تروي أصول قرطاجة تقدم حقاً فائدة للتاريخ ولكنها مغلفة أيضاً بالأساطير وبذلك لايكون من السهل علينا أن نحدد بدقة إنشاء هذه المدينة والظروف والملابسات والأسباب الحقيقية لذلك . إن المعطيات المختلفة التي تمس هذا الموضوع وصلت إلينا عن طريق العديد من المؤلفين وبخاصة تيمي

التورومانسيوني (كما رأينا في السابق) ، وهو إغريقي من صقلية قرأ النصوص البونية كما تمكن أيضاً من أن يستمد معلوماته مباشرة مما كان القرطاجيون يعرفونه عن تاريخهم . ووصلتنا هذه المعطيات أيضاً عن طريق ميناندر الإيفيزي (مطلع القرن الثاني قبل الميلاد) الذي كانت شهادته تعتمد على الحوليات الصورية ، وأخيراً عن طريق جوستان المؤرخ اللاتيني الذي عاش في القرن الثاني الميلادي والذي كانت كتابته مفصّلة بكثير من الروايات المنقولة عن سلفه تروغ ـ بومبي وربما كانت هذه الروايات قد أُلفت في أوساط قرطاجية كانت على صلة مع العالم الإغريقي .

بحسب القصة التي يرويها جوستان توفّي موتّو (ماتان) ملك صور بعد أن أوصى بوراثة عرشه لابنه الصغير جداً بيغماليون وابنته إيليستا (أو إليشا) ذات الجمال النادر . ولكن الشعب عزل هذه الأميرة وعهد بالملك إلى بيغماليون فتزوجت عندئذ عمها أشيرباس الذي كان كاهن حملقرت الأكبر والشخصية الثانية من حيث المكانة في المملكة . وكان غنياً جداً فأخفى كنوزه تحت الأرض خوفاً من شراهة الملك وجشعه . إلا أن بيغماليون الذي صمم على الاستيلاء على هذه الكنوز لم يتورع عن اغتيال ذلك الذي كان عمه وزوج أخته في الوقت نفسه . عند ذلك شعرت إيليستا بأنها مجبرة على الهرب وقامت تعد العدة لرحيلها في أقصى سرّية ممكنة مشركة في مشروعها عدداً من المواطنين من ذوي المقام الرفيع ممن كانوا خصوماً للملك الجديد . وكان لابد من أن تلجأ إلى الحيلة فعبّرت لأخيها عن رغبتها في الإقامة عنده . وكانت تريد ـ كما قالت ـ أن تهرب من قصر زوجها الذي كان يثير فيها الأحزان عليه بدون انقطاع . واستجاب الملك لهذا الطلب عن طيب خاطر لأنه كان يأمل بأن أخته يمكن أن تحمل معها إليه كنوز أشيرباس .

وهكذا أرسل بيغماليون أناساً للمساعدة في عملية الانتقال . وعندما اقترب الليل ، وبعد أن كانت الأموال كلها قد حُمّلت فوق سفينة ، قامت إيليسا فحملت إلى السفينة خدم الملك أيضاً واتخذ المركب طريقه إلى عرض البحر . عند ذلك أصدرت الملكة أمرها لمبعوثي القصر الملكي بأن يلقوا في البحر أكياساً أحسن

ربطها وتبدو وكأنها تضم الكنوز (بينما هي في الواقع كانت مليئة بالرمل) ، ثم أخذت تسكب الدمع وتتضرع إلى زوجها وتتوسل إليه كي يقبل قرباناً منها هذا الذهب المشؤوم الذي كان مسؤولاً عن وفاته . ثم وجهت كلامها إلى الخدم فأنذرتهم بأنهم سيكونون معاقبين بأشد أنواع العذاب لأنهم فرّطوا بثروات أشيرباس الذي ظن الطاغية بأنه يستطيع أن ينالها بقتل عمه . ولما شعر الخدم بالرعب الشديد من المصير الذي كان ينتظرهم وافقوا على الذهاب إلى المنفى مع إيليستا . وفي الليلة ذاتها قدم العديدون من أعضاء مجلس الشيوخ الذي كان فرارهم قد تم إعداده من قبل فالتحقوا وهم يتوسلون إلى حملقرت أن يسبغ عليهم رعايته وحمايته .

وفي قبرص وهي المرحلة الأولى جاء كاهن جونون الأكبر فقدم نفسه مع عائلته وعرض على الملكة مرافقته إلى مسكنه طالباً منها أن يبقى المنصب الكهنوتي إقطاعاً له ولذريته من بعده . تمت تلبية هذا الطلب بطيب خاطر حتى روي فيه فال حسن للمستقبل . على أن هذا الموقف لم يكن من نتائجه قيام سلالة للكهنة فحسب وإنما قدمت في اليوم نفسه ـ وكان يوم عيد طقسي ـ مجموعات من الفتيات الشابات إلى الشاطيء ليقدمن للإلهة تبعاً لعادة دينية «بقايا عفتهن»، وكانت تلك وسيلة للحصول من الملكة على مهور . وقد رأت الملكة في ذلك فرصة أرسلتها العناية الإلهية لتأمين ذرية للمدينة التي كانت تأمل بإنشائها ، وهكذا اختُطفت ثمانون من هؤلاء العذارى وحُملن إلى المركب . وفي خلال ذلك كان بيغماليون قد أحيط علماً برحيل الهاربين ولكن العرافين نهوه عن ملاحقتهم ، وكانت النبوءات قاطعة : « لايمكن لأحد أن ينجو من العقاب إذا وقف في وجه إشادة مدينة ميّزتها نعمة الآلهة عن بقية العالم » .

بهذه الطريقة وصلت إيليستا وأتباعها أخيراً إلى سواحل أفريقيا . وقد سعوا للحصول على صداقة السكان المحليين كما أن هؤلاء رأوا في القادمين الجدد إمكان قيام تجارة مفيدة . وأرادت الملكة شراء قطعة من الأرض مساحتها بمقدار مايغطيه جلد ثور ـ كما قالت ـ لتأخذ فيها قسطاً من الراحة مع رفاق سفرها المتعبين من رحلتهم البحرية . ولاشك أن الأفريقيين كانوا يخشون مجيء غرباء

للاستقرار بأعداد كبيرة في جوارهم ولكن عرض الملكة بدا لهم متواضعاً جداً فقبلوه ، عند ذلك لجأت الملكة إلى حيلة جديدة فقطّعت الجلد إلى شرائح دقيقة جداً فحددت بذلك مساحة أكبر مما بدا أنها طلبته ، ومن هنا أتى اسم بيرسا أي الجلد الذي أطلق فيما بعد على هذا المكان .

وعندما تم هذا الاستقرار الذي سار سيراً حسناً قامت تجارة تبادل مع سكان المنطقة كلها ، ولم يتقاعس فينيقيو أوتيكا عن المجيء لزيارة مواطنيهم حاملين معهم الهدايا واستعجلوهم على إنشاء مدينة على هذا الساحل الذي رسوا فيه . أما الأفريقيون الذين أرادوا إقامة علاقات دائمة مع هؤلاء المهاجرين الشرقيين فقد فرضوا عليهم ضريبة سنوية إيجار للأرض التي سيشغلونها وأصبح حفر الأساسات لإنشاء المدينة أمراً لابد منه . وعندما بدأت الأعمال أخرجوا من الأرض عند الحفر رأس ثور فبدا ذلك لهم كأنه نذير شر . عند ذلك اختيرت أرض أخرى وجدوا فيها رأس حصان اعتبروه رمزاً للقوة والبسالة الحربية واعتبرت الأرضُ المكانَ المناسب ومالبثت أعداد من السكان جذبتها السمعة أن قدمت لتوسيع « المدينة الجديدة » .

كانت قرطاجة قد غدت قوية يسودها الرخاء عندما استرعى هيارباس ملك الماكسيتاني (شعب أفريقي) عشرة من المواطنين الرئيسيين في المدينة وطلب منهم تحت التهديد بالحرب أن يتخذ إيليستا زوجة له . وقد أصيب هؤلاء المندوبون بالذهول فلم يجرؤوا أن يحملوا هذه الرسالة إلى الملكة ، ولكنهم أمام الخطر الذي كانت تتعرض له المستوطنة لجؤوا إلى « الدهاء القرطاجي » . قالوا إن الملك ربما كان يريد أن يذهب أحد منهم لتمدين الأفريقيين ، ولكن كيف يمكن العيش مع هؤلاء البرابرة ؟ . إلا ان الملكة وبختهم على جبنهم أمام تضحية تطلبها سلامة الوطن . وعند ذلك أبلغوها طلب هيارباس الحقيقي ودعوها لأن تتبع النصائح التي كانت تزجيها للآخرين . أما الملكة التي فاجأتها الخدعة فقد اخضلت عيناها بالدموع وابتهلت طويلاً لاسم زوجها أشيرباس ثم أعلنت أنها ستمضي حيث يدعوها قدر قرطاجة . وبعد مضي ثلاثة أشهر نصبت محرقة كبيرة عند مخرج المدينة قدمت لنيرانها أعداداً من الضحايا وذلك ـ كما قالت ـ

لتهدئة روح زوجها قبل ارتباطها الجديد . ثم صعدت بعد ذلك إلى المحرقة مسلحة بخنجر ، وقبل أن تضرب نفسها به وتسقط في النيران توجهت إلى شعبها وهي تصيح : « مطيعةً لرغباتكم سأذهب إلى زوجي » .

ويضيف جوستان : طالما بقيت قرطاجة عصية على الهزيمة بقيت إيليستا تتلقى التكريمات التي تستحقها الآلهة (٢٦) .

وبدلاً من أن نستفيض في شرح الصفة الأسطورية المحضة لهذه القصة يحسن أن نشير إلى أن بعض عناصرها تأتي على ذكر نقاط تاريخية يمكن التحقق منها . فليست كلها إذن محض اختلاق . ومن ذلك أنه بحسب رواية فينيقية نقلها ميناندرا الإيفيزي (الذي جاء ذكره قبل صفحات) تتحدث عن ملوك صور : « بعد ماتان خلفه بيغماليون الذي عاش ستين عاماً وحكم خلال سبعة وأربعين منها . وفي السنة السابعة من حكمه هربت أخته وأنشأت في ليبيا (أفريقيا) مدينة قرطاجة » (٢٧) . وهنالك نقاط أخرى صحيحة كتلك التي تستند إلى أشيرباس المكانة الثانية فالمدينة ، وتدل القصة على أن مؤلفها أو مؤلفيها كانوا يعرفون الأهمية الرئيسية لعبادة حملقرت في صور ، كما أنهم كانوا يعرفون أن منصب الكهانة كان وراثياً في العالم الفينيقي . أما حادثة التوقف في قبرص الذي أتاح لجماعة إيليستا بدون شك أن يتمتعوا بإقامة طويلة فإنها تشير إلى تلك العادة في البغاء المقدس المرتبطة بعبادة جرنون التي قدّم هيرودوت في موضوعها شهادة مفصلة (1, 199) . ومثل هذه الممارسة كانت شائعة في بابل بين المؤمنين بعشتار الكبرى كما يشير إلى ذلك مقطع من التوراة (٢ملوك ، ٢٣ ، ٧) ونحن نعرف أيضاً أن القرطاجيين استمراوا في تقديم إتاوة سنوية للأفريقيين خلال بضعة قرون . وقد رأينا في قصة جوستان أن جماعة إيليستا كانت تدفع ضريبة لجعل إنشاء مدينتهم على هذه الأرض أمراً رسمياً ويدل على رغبة متبادلة بين المستوطنين والأفريقيين في التمسك بعلاقات طيبة بين الطرفين. وأخيراً بدا أيضاً صحيحاً اسم ماكسيتاني (في النصوص الإغريقية = أمازيغ) للدلالة على الشعب المحلي لأنه ينطبق على أقدم التسميات التي استعملها سكان أفريقيا الشمالية القديمة بأنفسهم (٢٨) .

وإذا كان كثير من العناصر التي تضمنتها القصة تتفق تماماً مع أوضاع تاريخية موثوق بها فإنها تبقى مع ذلك مندرجة في لحمة أسطورية . وإذا أردنا أن نضرب مثلاً فإننا نأخذ الجلد (بيرسا) الذي كان يجب أن يغطي مكان قطعة الأرض المطلوبة وكذلك حادثة اكتشاف جمجمة الحصان فإنهما من أصل إغريقي. فقد يكون بعض الإغريق قد لاحظوا بعض قطع النقود البونية التي تحمل على الطريقة الفينيقية على أحد وجهيها اسماً سامياً يرتبط معناه الحرفي أو وربما لفظه بكلمة بيرسا الإغريقي التي تحمل في القرطاجية طبعاً معنى آخر غير معنى الجلد ، وعلى وجهها الآخر رأس حصان فأعطوا لذلك تفسيرهم الخاص مخترعين القصتين اللتين مر ذكرهما . وقصة جلد الثور الذي قُطِّع لتعيين حدود مستوطنتهم - والتي ربما كانت تستدعي إقامة احتفال تدشيني - هي قصة تعبر عن الحيلة والدهاء اللذين اكتسب التجار الفينيقيون سمعتهما على يد منافسيهم في تجارة البحار .

وفي مقابل ذلك يبدو الأمر أقل سهولة إذا حاولنا أن نحدد اصل اسم «ديدون » الذي تنسبه بعض الروايات إلى مؤسّسة قرطاجية وبموجب نص كتبه تيمي : بعد أن تحملت إيليستا كثيراً من المحن « نزلت على ساحل ليبيا حيث أطلق عليها السكان المحليون اسم ديدون بسبب رحلاتها الكثيرة » (٢٩) . وفي الإلياذة حيثما كان يذكر اسم إيليستا فإنه كان يذكر أيضاً وبوجه خاص تحت اسم ديدون وهو الاسم الذي كان فيرجيل يدل به على الأميرة الصورية . ومن الواضح أن لدينا هنا اسماً أضيف إلى الاسم الحقيقي ولكننا لن نتمكن من أن نؤكد - كما يدعي المؤرخ الإغريقي - أن هذا اللقب ينبغي أن يفسّر بكثرة ماقامت به الملكة من رحلات .

وبمقدار مابذل من المساعي لتمييز العناصر التاريخية المدرجة في نسيج الأسطورة بمقدار مالفتت الانتباه مسالة أخرى شغلت ذكاء مؤرخي قرطاجة وفطنتهم هي تاريخ إنشاء هذه المدينة الكبيرة . ولنقل فوراً إن الفرضيات القائمة حالياً تبقى مستبعدة ولايدخل في مشروعنا أن نطورها ونتوسع بها . وقد حاولت بعض الأعمال الحديثة أن تبرهن أن هذا الإنشاء قد يكون أقل قدماً مما تدعيه

المصادر الأدبية . وبحسب أنصار هذا التاريخ القريب يكون إنشاء المستوطنة قد تم بين سنتي ٦٧٣ - ٦٦٣ ق . م (٣٠) . والحجة التي اعتمد عليها قبل غيرها للوصول إلى هذه النتيجة تبدو جريئة جداً إن لم تكن خيالية . حقاً إن المادة الأثرية المستخرجة من موقع العاصمة القديمة لايبدو أنها تستطيع أن ترقى - إلا فيما ندر - إلى النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد - وهو تاريخ يبقى متنازعاً فيه - إلا أن التنقيبات لم تستخرج بعد الآثار الأقدم . وإذا أخذنا بعين الاعتبار نتائج بعض الأسبار نرى أن اختصاصياً خبيراً بمشاكل الآثار البونية هو بيير سينتاي كتب يقول منذ عهد قريب بأن القبور الأولى لاتزال قيد الاكتشاف (٣١) .

لذلك فإننا نستطيع في النتيجة أن نقبل الروايات المختلفة سواء كانت كلاسيكية أو شرقية لأنها تتفق تماماً على أن إنشاء قرطاجة يرقى إلى الربع الأخير من القرن التاسع بين عامي ٨٢٤ - ٨١٣ ق . م . أما تيمي التورومنيوني الذي نهل معلوماته من مصادر مختلفة بونية أو ذات أصول بونية فإنه يحدد هذا الإنشاء بعام ٨١٤ . وهذا التاريخ الذي تكرر ذكره غالباً على يد المؤلفين القدماء هو الأكثر شيوعاً بين مايستشهد به اليوم من تواريخ والحقيقة أنه أقربها إلى الصواب . ومن بديهي الأمور أنه لاشيء يسمح لنا بالظن بأن المستوطنة الجديدة تمكنت فوراً من أن تتباهى بنفوذها على المستوطنات والمراكز التجارية التي كانت قائمة من قبل ، ولكننا إذا قبلنا القصة التقليدية عن نشأة المدينة على يد إيليستا بعناصرها الأساسية فإن وجود أميرة ملكية من صور لابد أنه أضفى على هذه «المدينة الجديدة » مهابة متميزة .

ديدون التعيسة ، هكذا وصفها فيرجيل . حقاً ماتت الملكة بطريقة مأساوية ولكن دراما موتها دشنت قدر « قرت حدشت » (المدينة الحديثة) العظيم .

عاصمة في قلب المتوسط

بين أجمل المناظر الطبيعية في العالم يحظى موقع قرطاجة بمميزات ثمينة

تعتبر ضمانات لتأمين توسع العاصمة وحماية جلالها وتألقها الصاعدين .

واليوم لم يتغير المنظر . فالماء والبحر يمتزجان في الأفق الذي ينعم بزرقة أكثر شفافية مما هو مألوف فوق الجزر الإغريقية ، بينما الأجراف الصخرية ذات اللون الأصفر تنزل دائماً نحو شط يمتد حتى نتوء سيدي بوسعيد الصخري الذي تتعلق عليه أشجار تين الصبّار . هنا الزمان لايتحرك . ومع ذلك فإننا عندما نرتاد مدينة تونس المأهولة الحالية بهدوئها ووضوحها وفيلاتها المحمية بعرائش أزهار الجهنمية والأرجوانية والستارية ، عندما نزور قرطاجة هانيبال * (حن بعل) هذه النعسانة في حرارة الصيف والتي لاتستطيع أن تخرج من خمولها إلا عندما تهب نسائم المساء ، تلك التي تحمل شيئاً من مسوح الحزن والهجران تحت رذاذ الشتاء . عندما نفعل ذلك لانكاد نتخيل ماكانت عليه العاصمة القديمة وماكان عليه سكانها المتألفون من جميع الأجناس وجماهيرها الملونة الصاخبة وسوق تجارتها المليء بحركة التجار الأكثر جرأة ومغامرة ومرافئها الدافقة بالنشاط وترسانتها التي استطاعت أن تبني أو أن تسلّح أو أسطول في المتوسط ومعابدها المنتصبة نحو السماء على شرف آلهة مخفية .

وكان لابد لموقع قرطاجة أن يكون واسعاً بعض الشيء كي يكون قادراً على احتواء مخطط مدينة كبيرة مع ضواحيها وملحقاتها ويكفي أن نستمع إلى المؤرخ پوليب الواسع الإطلاع بإعتباره شهد بنفسه حصار العاصمة وسقوطها ، فقد كتب يقول : « فلنوضح أن مدينة قرطاجة نفسها كانت تقع على شاطيء خليج فوق شبه جزيرة تكاد تكون محاطة كلها إما بالبحر وإما ببحيرة . والبرزخ الذي كانت ترتبط عن طريقه بالبر يبلغ عرضه حوالي خمسة وعشرين ستاداً (= ٤٤٠٠ متر) . على جانب هذا البرزخ الذي يطل على البحر وعلى مسافة قليلة كانت تقع أوتيكا ، وعلى جانبه الآخر الذي يطل على البحيرة توجد توني . (...) والبرزخ الذي كان يربط قرطاجة بالبر كانت تحجزه عنه تلال صعبة الاختراق إلا عن طريق دروب شقتها يد الإنسان فتقدم بذلك منفذاً إلى داخل البلاد

* هانيبال : كتبها المؤرخون بأشكال عدة منها : (حن بعل = حنبعل = هنبعل ...) .

. (I,2,73 ;2,75)

إذن فإن إيليستا ورفاقها لم يتركوا للمصادفات أمر اختيار الأرض لبناء مدينتهم ، فالموقع كان يتمثل في منظر طبيعي كانت هيأته مألوفة لديهم ويسمح هنا أيضاً . بخلق واحدة من هذه القواعد المخصصة لتؤلف ملامح اتحاد بين مجالات مختلفة : فمن جهة مجال البحر الذي هو مملكة حقيقية بالنسبة لهؤلاء المستوطنين القادمين من صور ومن جهة أخرى مجالات المناطق الساحلية التي كانت تمتلكها شعوب استقرت فيها وجعلتها مسكناً لها . ولكن من أجل أن تحمي المدينة نفسها من هذا العالم الذي يمكن أن يكون معادياً ومبغضاً كان من الضروري أن تقدّم تضاريس الساحل والجوار ضمانات لحماية أكيدة . ونحن نعرف أنه من أجل متطلبات الحماية هذه إنما كانت قد اختيرت مواقع صور وصيدا وأرواد وقادس (راجع ما سبق من صفحات) ، وشبه الجزيرة التي قدمت نفسها للقادمين الجدد من أجل أن يبنوا عليها مستوطنتهم كانت تملك من مميزات الدفاع مثلما كانت تملك مدن الشرق الفينيقية إن لم تكن تتفوق عليها في ذلك . ففي حالة الحصار كان المحاصرون يستطيعون المقاومة أطول وقت يشاؤون. والواقع أنهم في داخل مجالهم الحصين كانوا يتصرفون بأراض صالحة للزراعة ذات مساحة كافية لتمدهم بالمحاصيل الضرورية لتموين السكان .

شبه جزيرة قرطاجة هذه كانت تشبه مرساة عملاقة مرمية باتجاه عرض البحر على شكل برزخ منفصل على الساحل ومتقدم نحو الشرق حيث يحمي مدخله خط مرتفعات جبل ناهلي الذي كان يشكل أول حاجز للدفاع . وكان هذا البرزخ يفصل سبخة واسعة قليلة العمق وفيرة الأسماك هي بحيرة تونس الحالية أو سبخة البحيرة عن خليج ردمت معظمه اليوم مواد الطمي التي يحملها نهر المجردة (وسبخة الريانة هي اليوم آخر شاهد عليه) ، وكانت مستوطنة أوتيكا قد أنشئت في خلفيته . وعلى عرض هذا النتوء الطويل وفي موقع لايتجاوز عرضه أربعة كيلومترات كان لابد للقرطاجيين في النهاية من بناء خط دفاع متقدم عرضه ثلاثون متراً ويتألف من خندق واسع محفور على الجانب الغربي وأساسات مركزية تدعمها سياجات من الأوتاد وأبراج وربما وجدت أيضاً فيه نوافذ بارزة

للمراقبة وأخيراً من خندق ثان خلفي ، وكان هذا الخط يمنع المرور إلى القسم الشرقي (٣٢) الذي يمتد على حوالي خمسة آلاف هكتار من الأرض والذي كانت تمتد فوق المدينة مع ملحقاتها. ولكي نستعيد الصورة التي رسمناها لهذا الموقع نقول إن هذا الطرف المؤلف من شعب جبلي كثيف - كان حد جزيرة قديمة ارتبطت بالشط عندما تشكل البرزخ بفعل الطمي - إنما يمثّل ذراعي المرساة .

لقد شملت التنقيبات الأثرية كل النتوء الذي تشغله قرطاجة ، وكانت أوائلها قد بدأت منذ أكثر من قرن وهي لاتزال مستمرة حتى اليوم ، وبذلك تكون قد سمحت بإلقاء ضوء على طبوغرافية المدينة وحددت معالمها بعض الشيء. فنحن نعرف أن العاصمة البونية في زمن أوج قوتها كانت تمتد على منطقة أوسع بكثير مما تصوره أحياناً بعض المؤرخين . ومع ذلك ينبغي علينا أن نقبل بأنه ليس من السهل تحديد الحدود الخارجية لمدينة دُمرت تدميراً كاملاً بعد أن توسعت وتطورت خلال قرون ثم عادت فأعيد بناؤها مرات ومرات ، والأكثر صواباً إذن أن ندعي رسم مخطط يعتمد على الخيال والتصور . لقد أوضحت لنا وفرةٌ من المعطيات الأثرية أن قرطاجة البونية كانت تمتد بين خليج كرام Kram ومنحدر سيدي بوسعيد (إذا أخذنا بالتسميات الحالية لهذه المواقع) . فهذا الموقع يشكل إذن بصورة خاصة سواحل سالامبو وبرج الجديد ، وبين هاتين النقطتين لايغطي موقع قرطاجة هانيبال (حن بعل) في الواقع إلا حياً واحداً من أحياء العاصمة القديمة ولكن مما لاشك فيه أن قلبها كان هنا .

هذه الشواطىء الرملية شكلت بطريقة ما مهد المستوطنة الجديدة ، ولايهمنا كثيراً هنا أن نسعى لأن نحدد بدقةٍ نقطة الاستقرار الأول سواء كان في درمخ بالقرب من برج الجديد أو على ساحل سالامبو كما يحق لنا أن نظن لمجموعة أسباب . ويبعد هذان الموقعان أحدهما عن الآخر بمالايقل عن ثلاثة كيلومترات ولكن المنظر الطبيعي بينهما لايتغير أبداً . وهنا لابد من قراءة الصفحة المعبرة التي كتبها عالم الآثار بول غوكلر gauckler الذي كان قد تعلم قراءة أبسط الدلائل بعد أن عمل فترة طويلة على طول هذا الساحل بدءاً من نهاية القرن المنصرم :

« في هذه المنطقة من قرطاجة (بالقرب من أحواض برج الجديد وفي أسفل تلة الأوديون) يبدو (...) أن نواة المدينة الكبيرة إنما تشكلت هنا. فبموجب شكله الطبيعي كان المكان معداً أفضل من أية نقطة أخرى على الساحل لخلق مركز تجاري بحري . فهو منفتح انفتاحاً كبيراً على الشرق باتجاه الخليج بينما هو محمي من الرياح السائدة بستارة جبلية تبدأ من بيرسا راسمة في اتجاه الغرب قوس دائرة متصل ينتهي إلى الشمال من رأس سيدي بوسعيد الصخري الذي يحطم هجمة الأمواج القادمة من عرض البحر ويقدم للمراكب ملجأ طبيعياً هو الأمن على الساحل . ومن جهة أخرى فإن هذه الصُّدفة نصف الدائرية التي تكاد تكون معزولة عن البر وتختفي تماماً وراء حاجز من الهضاب يسهل الدفاع عنه تمثل ضمانات الأمان التي كان يسعى إليها قبل كل شيء ، لإنشاء مؤسسة قابلة للبقاء، أولئك التجار الفينيقيون الذين كانوا في الوقت نفسه جريئين وخجولين يزرعون مراكزهم التجارية على طول السواحل المتوسطية دون أن يتجرؤوا على المغامرة في داخل الأراضي وهم مستعدون دائماً لرمي مراسيهم في أقل السواحل ترحيباً على أن يكونوا قادرين على بلوغ أعالي البحر عند أقل إنذار » .

ويستمر بول غوكر في حديثه بأنه تبعاً لكل الظواهر فإنه على هذه النقطة من الساحل استقر الملاحون الفينيقيون الأوائل « الذين اكتشفوا الخليج مخترقين مياهاً أكثر هدوءاً بعد أن تجاوزوا شناخ برج الجديد ورأوا ساحلاً سهل البلوغ تقع وراءه فجأة أجراف منيعة فأخذوا بمميزات هذا الموقع الملائم ووضعوا في هذا المكان حداً لتجوالهم المتشرد . وهنا بعد أن سحبوا مراكبهم فوق الرمل بنوا قرب الساحل مباشرة أول منشآتهم (...) ، وهنا أيضاً حفروا في أسفل التلة أول قبور لموتاهم » (٣٣) .

فالمدينة إذن كانت قد أنشئت على الشريط الساحلي الضيق الذي يحاذي الشط بين شاطىء كُرام الرملي وشعاف برج الجديد . ثم أنها كلما كانت تتوسع كانت ترتقي بالتدريج فوق المنحدرات الشرقية لتلتي بيرسا (٧٥ متراً) وجونون (٥٤ متراً) اللتين ترتفعان جنباً إلى جنب مقابل البحر . وإذا لم يبدُ أن العاصمة حتى في أقصى توسعها قد تجاوزت هذا الخط من المرتفعات التي

كانت تشكل دفاعات طبيعية حسنة فإنها لم تكن مع ذلك ـ كما يمثلونها أحياناً ـ محبوسة في حرز ضيق بين المقابر وخطوط التحصينات والشريط الساحلي ، فقد أجمعت أقوال المؤرخين القدماء أمثال پوليب وتيت ليف وسترابون وأبيان وديونكاسيوس على تأكيد امتداد العاصمة إلى أبعد من ذلك .

والحقيقة أنهم عندما يقولون لنا مثلاً إن قرطاجة كانت تمتد على المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة الواقعة وراء خط التحصينات التي تحمي البرزخ فإن ذلك لايعني أن المنشآت المدنية كانت تغطي فعلاً كل هذه المنطقة . ونحن نعرف من جهة أخرى أنه بين أعمال التحصين الأولى هذه وبين أسوار المدينة كانت تمتد أرض مكشوفة كانت أثناء الحروب البونية تشكل جزءاً من النظام الدفاعي عن المدينة . وفي المقابل فإن طول السور الذي كان يحيط بالمدينة وضواحيها الرئيسية يسمح لنا بتكوين فكرة عن طبوغرافيتها . كان محيط هذ السور يبلغ حوالي اثنين وثلاثين كيلومتراً ، « فقرطاجة الكبرى » كانت إذن تمتد على مساحة كبيرة ، وفي وسط هذه الأرض كانت تقع ضاحية ميغارا الريفية الواسعة التي وصفها أبيان (ليبيكا 117) مع حدائقها التي تزرع البقول في سباخها ومع رياضها التي تسقيها أقنية عميقة متعرجة ومع سياجاتها المقامة من الحجر الجاف أو من الشجيرات الشوكية . وليس من السهل أن نحدد بدقة هذا القطاع الهام الذي قالت النصوص الأدبية بوجه خاص إنه كان في الوقت نفسة قريباً من البرزخ وعلى نقطة بعيدة جداً من بقية المدينة محاذياً لخط من الصخور يشرف على البحر . ومما لاشك فيه أن الأمر هنا يتعلق بضاحية تمتد في المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة ، وربما كان علينا أن نطابق هذه الأراضي المستأجرة للاستثمار الزارعي على سهل مرسى ذي الأبعاد المتواضعة وعلى سلسلة المرتفعات (جبل خاوي وبرج بن عياد) التي تشرف على الساحل وتصل حتى رأس غامارت **gammarth** وربما كان اسم هذا الرأس الأخير يستمد أصله عن طريق الإبدال وتغيير الأحرف من اسم ميغارا القديمة .

وهكذا كانت مدينة إيليستا القديمة تحتل مكاناً واسعاً جداً خلال القرون التي غدت فيها العاصمة الكبرى للبحر المتوسط الغربي . بل ومن المؤكد أن

القرطاجيين في ذلك العصر من أجل أن يوسعوا نشاطاتهم ويزودوا هذا التكتل السكاني بالمؤن اللازمة عقدوا صلات مباشرة ويومية مع سكان النواحي البونية الواقعة خارج شبه الجزيرة والقريبة من دائرتها ، فقد كتب مؤرخ خبير في هذا المجال من التاريخ القديم هو ستيفان غسيل gsell أن « الشاطىء الغربي من شبه جزيرة رأس بون (عنابة) كان يشكل بصورة ما جزءاً من ضواحي قرطاجة»(٣٤) .

من المرافىء إلى الأكروبول

لن نعرف أبداً سمات قرطاجة في مراحل تاريخها المتتالية . والمعلومات النادرة التي وصلت إلينا من المصادر الأدبية ومن المعطيات الأثرية الأكثر ثقة تسمح لنا على الأقل بأن نعرف بعض الأوجه من منظر المدينة وأن نحدد بعض العناصر الداخلية في مخططها العام .

إن أول عناية للفينيقيين عندما كانوا يشيدون مؤسسة لهم كانت دائماً أن يسهروا على حمايتها بتقوية الدفاعات الطبيعية للموقع المختار . ونحن نجهل ماذا كانت الأعمال التي باشروها في الأصل لتأمين حماية المستوطنين المستقرين في «المدينة الجديدة » ، ولكن يبدو مع ذلك أن سوراً كان يحيط بهذا التجمع السكاني الأوليّ يسمح للسكان بمقاومة الهجمات المحتملة التي قد تأتي من ناحية البر عن طريق البرزخ وفي الوقت نفسه أن يبقوا مجتمعين أمام المرفأ الذي كانت فيه المراكب تمثل الإنقاذ الأمثل ، وليس ذلك إلا ليبلغوا مدينة أوتيكا القديمة القريبة جداً من البحر .

ولكن يبدو أن القرطاجيين لم يتعرضوا في الواقع لهجمات من جيرانهم الأفريقيين وبذلك لم تتوقف مدينة إيليستا عن التوسع في ظل السلام خلال بضعة قرون . ومع توسع مركز المدينة وامتداد أحياء السكان امتداداً كبيراً على طول الساحل كان لابد من إعداد نظام مهم للتحصينات ولم تكن التهديدات في الواقع مجرد أوهام من نسج الخيال .

منذ نهاية القرن الرابع عندما قدم أغاثوكليس ليفرض الحصار على المدينة

(٣١٠ ـ ٣٠٧) وكذلك في زمن الحروب مع روما كان لابد للقرطاجيين من مواجهة الحصارات التي فرضت عليهم والهجمات التي وُجهت إلى مدينتهم . ولكي يتفادوا هذه الأخطار المميتة كانوا قد اتخذوا تدابير هامة جداً للحماية بتحويلهم منطقة قرطاجة إلى معسكر حصين يحيط به هذا السور الواسع الذي كنا قد أشرنا إليه والذي يغلف المدينة وضاحيتها الكبيرة ميغارا .

كان ضغط العدو بالطبع أخطر مايكون على الجبهة الغربية ، فمن هنا يأتي الطريق القادم من البر ، وفيما وراء الخندق وشبكة العوائق التي تسد البرزخ كان الوصول يتم فوراً إلى المدينة (انظر ماسبق من الحديث عن هذا الموضوع) . فعلى هذا الجانب إذن كان السور مدعماً ويضم جدارين كانا يمتدان على مايبدو على عرض شبه الجزيرة كله . وكان الحاجز الأساسي قد بني من الحجارة الكبيرة الحجم ويبلغ ارتفاعه ثلاثين ذراعاً (١٣,٢٢ متراً) بدون حساب ارتفاع شرفات رمي السهام اما عرضه فثلاثون قدماً (٨,٨٨ متراً) عند القاعدة وتدعمه أبراج ذات أربعة طوابق كانت تنتصب على مسافات متساوية وتبدو بارزة عن السور سامحة للمدافعين أن ينالوا بحرابهم المهاجمين الذين يمكن أن يحاولوا نقب الجدار أو التسلق عليه . وكان هذا السور يحمي أيضاً ثكنات ومستودعات للمواد العسكرية كما كان قد تم إعداد معاقل تنفتح على داخل النطاق المسوّر وذات طابقين . ويضيف المؤرخ أبيان الذي امدنا بهذه البيانات : « وكان يثوي في الأسفل ثلاثمائة من الفيلة مع المؤونات اللازمة لإطعامها بينما أعدت في الأعلى اصطبلات لأربعة آلاف من الخيل ومخازن للأعلاف والشعير وثكنات لعشرين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان » . ولنذكر أخيراً أن هذا الحصن العظيم كان يسبقه هو أيضاً حاجز أقل ارتفاعاً كان لابد من أن يصطدم به المهاجمون الذين يحتمل أن يجتازوا خط الدفاع المتقدم من الخندق ومن مجموعة التحصينات المرافقة له .

مثل هذه التشكيلات الدفاعية لابد أنها تمتلك فعالية كبيرة بحيث أن الرومان لم يتمكنوا قط من أن يفتحوا ثغرة في استحكامات القطاع الغربي من قرطاجة . على أن المدينة لم تكن محمية على طول محيطها بهذه الشبكة القوية من

التحصينات ، فالسور الذي يحمي ميغارا يتضاءل شأنه حتى يغدو جدار بسيط يحاذي البحر أو أنه ينتصب في نقاط أخرى فوق الصخور المشرفة على الشط . ومن المحتمل أن القرطاجيين الواثقين من تفوق أسطولهم الذي كان يؤمن لهم حماية الساحل لم يكونوا يشعرون بضرورة أن يمدوا سورهم الثقيل الذي كان يحمي البرزخ حتى يصبح على طول الجبهة البحرية أيضاً . فبسبب من شكل الأرض في هذه القطاعات الشمالية والشرقية والجنوبية كان هذا السور الوحيد كافياً لحاجات الدفاع . ونحن نعرف المأثرة التي لم تأت لصاحبها بكبير مجد والتي قام بها ل . هوستيليوس مانكينوس الذي قام في إحدى ليالي الربيع من عام ١٤٧ ـ أي قبل عام واحد من موت قرطاجة بينما كانت العاصمة تعاني من حصار دام عامين ـ فاستولى على باب سري وهيأ لغزوة ارتجالية في ضاحية ميغارا الحراجية وما أن حل الصباح التالي حتى هوجم من جميع الجهات وأخذ من الخلف على يد الجيوش القرطاجية التي كانت على مايبدو تتخذ لها مقاماً في حرز جبل (خاوي) ومالبث مبعوث روما وجنوده أن وجدوا أنفسهم محاصرين كما لو كانوا في مصيدة فئران . وكان يمكن أن يكون مقدراً لهم أن يقذفوا أسفل الأجراف لولا أن سكيبيون وُجد بمحض المصادفة هناك فأنقذ رأس الجسر لهذه المفرزة التي كان يقودها مانكينوس الذي وقع ضحية مناورته المغامرة والذي وجد نفسه في حالة يائسة .

من هذا السور الشهير الذي كان يحمي قرطاجة والذي حدثنا عنه المؤلفون القدماء لم يبق اليوم شيء . وأما الخندق الكبير الذي كان يستخدم خطاً دفاعياً أول في اتجاه البر الأفريقي فقد كشف عن موقعه عام ١٩٤٩ م عن طريق الدراسات من الجو . وقد بدا بعد رؤيته وتصويره من الجو كمحور مستقيم طوله يزيد على كيلومترين يتميز بلونه الفاتح على أرض البرزخ . وقد أظهرت الأعمال التي تمت البنية التحتية لهذا العمل الذي لم يبق منه إلا النعل البسيط (٣٥) .

وإذا كان الرومان بعد انتصارهم لم يبقوا على قيد الوجود رقعة واحدة من هذ المتاريس التي كانت قد سمحت للعاصمة البونية أن تقاوم ضراوتهم مدة طويلة فيبدو من الممكن في مقابل ذلك أن نرى مابقي من آثار مرافيء قرطاجة .

ومع ذلك ينبغي علينا أن نلاحظ فوراً بأن الدراسات والتنقيبات الأثرية التي تجري الآن هي وحدها التي ستسمح لنا بتقديم أجوبة أكثر تأكيداً ودقة (٣٦) .

لقد أعطى المؤلفون القدماء لهذه المرافىء أوصافاً دقيقة على الأقل لفترة الحرب البونية الثالثة . فكان يوجد مرفآن ، واحد للبضائع والتجارة والثاني مرفأ عسكري ويطلق عليهما غالباً اسم مشترك هو « كوتون cothon » الذي هو صيغة سامية لاإغريقية يحتوي جذرها على فكرة القطع (قطّ أو قطع) وتدل على أحواض صنعية حفرتها يد الإنسان في أرض شبه الجزيرة . ويدل مقطع لسترابون (XVII, 3,17) أنه كان للكوتون جزء مربع وآخر مستدير وفي وسط هذا الأخير كانت توجد جزيرة على شكل مستدير أيضاً فتبدو بذلك وكأنها محاطة بقناة ، وعلى شواطئها أروقة معدة لاستقبال المراكب على الرصيف . على أن أفضل وصف ولكن أكثرها إثارة للنقاش هو الذي قدّمه أبيان آخذاً إياه من پوليب (راجع ماسبق) . وبما أن المجال هنا ليس مجال الدخول في المجادلات الحادة التي ارتفعت في موضوع هذا النص فإننا نكتفي بتقديم ترجمته على الأقل(٣٧) .

« كانت مرافىء قرطاجة مُعدّة بحيث كانت المراكب تمر من أحدها إلى الآخر . وهي تدخل إليها من البحر عن طريق مدخل عرضه سبعون قدماً (٢٠,٧٢ متراً) كان يُغلق بسلاسل من حديد . وكان المرفأ الأول مخصصاً للتجار ومزوداً بحبال كثيرة متنوعة . وكانت توجد جزيرة في وسط المرفأ الداخلي بحيث يحاذيها ويحاذي المرفأ أرصفة واسعة . وعلى طول هذه الأرصفة كانت توجد مقاصير لإيواء مائتين وعشرين مركباً وفوق هذه المقاصير توجد مخازن لأعتدة السفن ومستلزماتها وأمام كل مقصورة كان يرتفع عمودان إيونيان يعطيان لمنظر المرفأ والجزيرة هيأة رواق . وقد أنشؤوا على الجزيرة جناحاً لأمير البحر تصدر منه الإشارات بواسطة الأبواق والنداءات التي تنذر بالحرب ومنه يمارس أمير البحر رقابته على الميناء . وكانت الجزيرة تقع أمام المدخل وترتفع ارتفاعاً عالياً بحيث كان أمير البحر يرى مايجري في البحر بينما لايستطيع القادمون من عرض البحر أن يميزوا داخل المرفأ بوضوح حتى أن التجار الذين

كانوا يدخلون على مراكبهم لايستطيعون رؤية الترسانات لأنها كانت في الواقع محاطة بجدار مزدوج وأبواب تسمح للتجار بالمرور من الميناء الأول إلى المدينة دون أن يكون عليهم المرور بالترسانات » .

ويقول أبيان في نص آخر أن أرضاً واسعة كانت تستخدم لتخزين البضائع وتعتبر ملحقاً لمستودعات الميناء كانت معدّة عند مدخل القناة التي تقود إلى المرفأ التجاري ولنشر هنا إلى أن احتلال هذه الأرض المكشوفة بعد معارك حامية هو الذي سمح لجنود سكيبيون إميلياس ـ الذين كان في مقدمة صفوفهم تيبريوس سيمبرونيوس غراكاس ـ بفتح ثغرة نفذوا منها إلى حي المرافىء ومنه تمكنوا من ضرب قلب المدينة نفسه .

لقد قلنا فيما مضى إن بحوثاً طوبوغرافية عديدة حاولت أن تحدد موقع المرافىء القرطاجية وليس في نيتنا أن نتعرض لهذه الفرضيات المتنوعة . وفي انتظار أن تقدم لنا الأعمال الجارية عناصر حاسمة في هذا الموضوع يهمنا على الأقل أن نذكر بالرأي التقليدي الشائع الذي تجب معرفته وهو أن السبختين الواقعتين في أقصى الجنوب من السهل الساحلي بالقرب من رأس سالامبو وعلى بعد حوالي المائة متر من الشاطىء الحالي ربما كانت آثار (الكوتون = المرفأ) . والحقيقة أن آثار هذين الحوضين المائيين المتلئين بالأوحال في بعض أجزائهما تعتبر تافهة قليلة الأهمية سيما وأنه لاتوجد حولهما أية بقية من الأرصفة . ويقع الأول منهما في الشمال وهو على شكل دائري مساحته حوالي العشرة هيكتارات ويحيط بجزيرة في وسطه تتصل بحافته الخارجية عن طريق لسان من الأرض . وربما كانت هذه المجموعة تنطبق على المرفأ الحربي القديم ، وهي تتصل بمسطح مائي ثان له ضعف مساحتها وله شكل رباعي واضح يمكن أن يكون بقية للمرفأ التجاري . أما القناة التي كان عليها أن تنفذ إلى خليج كرام فإن الطمي قد ردمها اليوم .

مما لاشك فيه أن هذه الأحواض ذات مساحات متواضعة جداً بحيث لاتصلح لأن تمثّل مرافىء العاصمة المتوسطية الشهيرة . فالنص الذي تركه لنا أبيان يذكر في الواقع أن المرفأ الدائري كان يضم مائتين وعشرين رصيفاً كان

لابد لمعظمها من أن يكون عريضاً بما فيه الكفاية لاستقبال مراكب ذات خمسة صفوف متطابقة من المجاذيف ، كما أن سترابون يذكر لنا من جهة أخرى (XVIII, 3, 15) أن القرطاجيين خلال حصار مدينتهم الأخير كانوا قد بنوا مائة وعشرين سفينة في ترسانتهم ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال أن هذه الإنشاءات لابد أن تكون هامة فليس من السهل أن تزدحم مثل هذه الأساطير حول هذا الحوض المائي المستدير .

ومع ذلك فإنه لاينبغي علينا أن نستنتج من مثل هذه الملاحظات أن نظرية انطباق المرافىء على هاتين السبختين هي نظرية مرفوضة تمام الرفض . يجب أن نتذكر في الواقع أن هذا الحي من قرطاجة الذي دُمر في بادىء الأمر عند سقوط المدينة عاد فاستخدم وانتعش انتعاشاً كبيراً خلال الحقبة الرومانية بحيث بنيت عندئذ منشآت هامة في غرب الحوض الرباعي الشكل ولكنها هدمت في عام ٣٠٦ ق . م على أثر هزةٍ أرضية قلبت أيضاً ماتبقى من الآثار القديمة .

كان الهم الأول للمستوطنين الجدد الذين نزلوا عل الساحل الأفريقي هو السهر على حماية مؤسساتهم ففرضوا على أنفسهم قبل كل شيء أن يحتلوا التلال التي تمتد على طول الساحل وتشكل خطاً طبيعياً من التحصينات ، وهنا أيضاً كانوا يستطيعون إشادة معقل دفاعي محصن . ويشير المؤرخون القدماء بشكل محدد إلى أنه في فترة الحرب البونية الثالثة كان ثمة قلعة تحمل اسم بيرسا وتقع على قمة تلة ذات سفوح شديدة الانحدار . وكان الناس قد قبلوا بوجه عام تبعاً لآراء ستيفان غزيل أن بيرسا القديمة هذه كانت تقع على التلة التي عرفت حديثاً باسم تلة القديس لويس حيث بُنيت كاتدرائية تحولت اليوم إلى متحف قرطاجة الوطني . وهذه التلة تقع بجوار تلة جونون . ويجب الاعتراف بأنه إذا كانت منحدرات هاتين الرابيتين (راجع مامضى) قد احتلتها المقابر والمنشآت البونية فإن قمة سيدي بوسعيد (١٢٩ متراً) كانت أصلح لإقامة مثل هذا الأكروبول الذي كان يسيطر في ذلك الوقت على كل المنظر الطبيعي للمدينة وضواحيها لا على المدينة المنخفضة وحي المرافىء فحسب . وهنا أيضاً ربما حملت لنا التنقيبات الأثرية الجارية بعض الدلائل الجديدة التي تسمح بتأكيد

المعطيات التي قدمتها النصوص الأدبية . وقد علّمتنا هذه النصوص أن معسكر بيرسا الحصين كان محمياً بتحصينات ربما كانت سوراً مزدوجاً . وكان ثمة ثلاثة شوارع تحاذيها بيوت ذات ثلاثة طوابق تذهب من الساحة الرئيسية (أغورا أوفوروم عند المؤرخين الإغريق واللاتين) وتصعد باتجاه القلعة . وكان ينتصب في حرمه المقدس أجمل وأغنى معابد المدينة وهو معبد أشمون مشرفاً على « تلة بيرسا » ويقع على رأس سلم فخم مهيب به ستون درجة تقود إلى المعبد المذكور .

على أنه إذا كان من المشكوك فيه كشف آثار الاستحكمات وتحديد مواقع الكوتون (المرفأ) وموقع بيرسا المرتفع وإذا بقيت طبوغرافية قرطاجة مجهولة لنا دائماً وإلى حد بعيد فإننا على الأقل نعرف الكثير من مجال الأموات . فكلما كانت العصور تمر فإن المواقع المتعاقبة التي كانت تحتلها المقابر كان تبتعد أكثر فأكثر عن المنطقة الساحلية حيث كان يتمركز السكان في بادىء الأمر . فالقبور تحدد بذلك اتجاه الحياة في المدينة الكبيرة وكأنها شهود على توسعها خلال ستمائة وثمانية وخمسين عاماً من وجودها . وفي هذا المجال أيضاً ـ وكنا أشرنا إلى ذلك فيما مضى ـ نرى من المؤكد أن أقدم المقابر لم تكتشف بعد تماماً ولم تر النور .

لقد تراجعت المقابر التي كانت تحيط بالمدينة بشكل مستمر لكي تخلي المكان لمساكن الأحياء التي كانت تتوسع بشكل مستمر ، فتدفعت في البدء إلى قلعتي بيرسا وجونون ثم بعد ذلك نحو الشمال إلى مرتفعات دويميس وديرميخ وأخيراً إلى خواصر برج الجديد وهضبة سانت ـ مونيك (سعيدة) (٣٨) . وهانحن أولاً نثبت مرة أخرى صفحة مما كتبه بول غوكلر الذي استمر خلال أربع سنوات يستكشف المقابر البونية :

« إن التنقيبات التي أجريتها (...) في مقبرة ديرميخ البونية في قرطاجة سمحت لي بأن أدفع الخندق الذي كنت قد فتحته فيما سبق من الجنوب إلى الشمال (...) . وكلما كان الخندق يبتعد عن مركز المدينة القديمة كلما كانت القبور تبدو أقل قدماً وتتغير صفاتها بشكل محسوس . فبعد الحفر البسيطة المحفورة في الرمل البكر كانت تتوالى القبور المبنية ثم التوابيت الحجرية (النواويس) .

وعندما نصعد مرتفعات برج الجديد نجد أن المقبرة تنزل في مجرى العصور»(٣٩) .

أما مشكلة الطقوس الجنائزية التي تشهد على ديانة الشعب وكذلك طقوس الأضاحي فإن ذكرها سيمر معنا فيما هو قادم من صفحات هذا الكتاب . ومع ذلك ينبغي أن نشير هنا إلى أنه إذا كانت « قرت حدشت » قد غدت شهيرة بقوتها البحرية ونشاط مرفئها (الكوتون cothon) وإذا كانت هذه العاصمة قد حمت ثرواتها بطريقة تستحق الإعجاب وراء تحصينات عصية على الاختراق فإنها كانت إلى جانب ذلك مركزاً دينياً عالياً أثبت بدون الانقطاع ولاءه لآلهة صور منذ أن وصلت إليها الأميرة الشريدة حتى دمارها الأخير . ومن جهة أخرى أليس من قلب قلعتها نفسها ـ هناك حيث لم يكن العدو يستطيع النيل من مدينتهم إلا إذا أوردها مورد الهلاك ـ أقام القرطاجيون كنزاً ثميناً من كنوزهم هو معبد أشمون الإله الشافي و« الأمير القديس » لمجمع الآلهة (البانتيون) الفينيقي ؟. تلك كانت « المدينة الجديدة » ، لم تكن فقط قاعدة بحرية كبيرة للبحارة المغامرين أو مركزاً تجارياً نشيطاً يقوده رجال أعمال ذوو ثروات طائلة وإنما أيضاً ـ بل في الدرجة الأولى ـ كانت معبداً أقيم على شرف آلهة قادمة من الشرق .

المدينة والمجتمع

« يمكن القول إن القرطاجين كانت لهم حكومة
تدير أمورهم بصورة جيدة ودستورهم يتفوق على
الدساتيرالأخرى في نواح عديدة » ـ أرسطو ـ

كم كان يبلغ عدد سكان قرطاجة زمن مجابهتها لروما؟ . سيكون من العبث الكامل أن ننتظر إجابات دقيقة على هذا السؤال . فبموجب ماقاله سترابون الذي كتب بعد حوالي قرن ونصف بعد الحرب البونية الثالثة كانت المدينة نفسها في هذه الحقبة الأخيرة تعد سبعمائة ألف من السكان . وهذا الرقم بالنسبة لأرض مخصصة لمدينة بالمعنى الصحيح ولاتتجاوز مساحتها مائتين وخمسين أو ثلاثمائة هكتار يعتبر ولاشك رقماً مبالغاً فيه . أما ضاحية ميغارا الكبيرة التي تبلغ مساحتها حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً مربعاً فإن كثافة هذه المنطقة الريفية غير المسكونة في جزء منها كانت ضعيفة بطبيعة الحال. فهل الرقم الذي ذكره هذا المؤرخ الجغرافي يتعلق ـ كما يذهب البعض ـ بسكان المدينة وفي الوقت نفسه بسكان ماحولها من المناطق الأفريقية التي تعتبر خلفية لها والتي استقر فيها القرطاجيون أيضاً ؟. ونحن هنا في مجال الحدس والتخمين ، ومايبقى لنا هو أن عدد سكان قرطاجة كان مرتفعاً بالنسبة لما هو مألوف .

وبهذه المناسبة يجب أن نلاحظ أن المواطنة التي يعود الحق فيها إلى أحفاد الآباء القرطاجيين كانت ـ هنا كما في الأماكن الأخرى ـ ممنوعة عن العبيد والعتقاء . وفي مقابل ذلك إذا كان يقيم بين هذه المجموعة السكانية عدد من الغرباء أفريقيين أو إغريق أو إيطاليين كرجال أحرار فإن بعضهم يكتسب حق المواطنة مكافأة لهم على جدارات نالوها وبصورة خاصة كجنود . يضاف إلى ذلك أنه بعد خراب صيدا في القرن السابع (راجع ماسبق) وسقوط صور بيد آشورناصربال تمكن عدد من الفينيقيين من إنقاذ أنفسهم من الكارثة واضطروا إلى المجيء والاستقرار في هذه المنشأة الغربية التي كانت ثروتها تزداد بسرعة

حتى أصبحت شهيرة فلابد أن هؤلاء القادمين الجدد قد نالوا بدون أية صعوبة حقوق المواطنة المدنية والسياسية .

هل بإمكاننا أن نعرف بعض المعلومات الدقيقة عن مؤسسات قرطاجة وتنظيماتها ؟ . إن المؤلفين القدماء الذين لامسوا هذه المواضيع قلة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كانوا غرباء عن التقاليد الفينيقية والبونية وعن تاريخ المدينة أيضاً وهكذا لجؤوا إلى مصطلحات لغتهم الخاصة للدلالة على المؤسسات التي كانت ذات نوعية خاصة ولاتستطيع أن تنطبق على مؤسسات العالمين الإغريقي والروماني . هذه المشكلة من عدم التلاؤم في النقل الذي يبدو وكأنه ترجمة لايساهم بطبيعة الحال في إيضاح الجوانب المختلفة من التنظيم السياسي البوني والنصوص التي وصلتنا لاتسمح لنا إذن أبداً إلا أن نقدم أنواعاً من التقريب والتخمين . ويبدو من جهة أخرى أن من باب التعسف أن ندعي القدرة على تقديم نظرية عن هذا التنظيم كما لو كان ثمة «دستور » قرطاجي بقي منذ نشأة المدينة حتى دمارها بدون مساس . هذا المفهوم الجامد عن أن العاصمة الأفريقية كانت دائماً آلة مطيعة في خدمة روما وممالك المدن في بلاد الإغريق أو الشرق عرفت تطوراً سياسياً سار على التوازي مع التغيرات الاجتماعية والدينية كما كان على علاقة مباشرة مع مراحل التطور الاقتصادي ، أي أنه ماشى مختلف الأوجه التي سجلها مد السيادة البونية على البحر المتوسط الغربي وانحسارها عنه.

ومن المحتمل أن الحكومة القرطاجية في مرحلة أولى من الزمان كانت منسوخة نسخاً صادقاً عن مؤسسات الوطن الأم . ونحن نعرف أن النظام الذي كان قائماً في صور وغيرها من المدن الفينيقية كان نظام الملكية الوراثية . ويبدو جيداً مع ذلك أن هذه السلطة الملكية لابد أنها كانت تقرن بمجلس « للقدماء » يمثل العائلات الكبيرة . وفي قصته عن مغامرة الملكة إيليسًا البحرية يتحدث لنا جوستان بنفسه عن « المواطنين الأوائل » وعن « أعضاء مجلس الشيوخ » الذين وقفوا في وجه الملك الجديد بيغماليون . وفي قرطاجة منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد استأثر بالسلطة أفراد أغنى عائلة تجارية وشكلوا عائلة مالكة حقيقية خلال ثلاثة أجيال هي عائلة الماغونيين أحفاد ماغون الذي كان هو نفسه قائداً وخلفاً لشخص يسمى مالكوس وهو شخصية تاريخية يثار حول وجودها كثير من

النقاش . وعندما وقفت العاصمة البونية في وجه التوسع الإغريقي في المتوسط الغربي احتفظت لنفسها عندئذ بامتيازات التجارة مع إسبانيا مستغلة لمصلحتها الشخصية ثروات ترشيش ـ تارتيسوس المعدنية (راجع ماسبق) كما وسعت قواعدها في سردينيا وفي جزء من صقلية حيث ستصطدم عما قريب بمقاومة «طغاة» سيراكوزه الضارية . ولما غدت المسيطرة على التجارة على كل الساحل الافريقي من خليج سرت إلى السواحل المراكشية وربما إلى أبعد من ذلك ـ ومما لاشك فيه أن رحلة حنّون البحرية الشهيرة إنما جرت في عهد هؤلاء الماغونيين ـ فإن قرطاجة أصبحت على رأس إمبراطورية بحرية تجارية في الوقت الذي كانت فيه تمد أرضها التي استقرت عليها بعد أن تحررت من الجزية التي كانت تدفعها منذ إنشائها إلى الأفريقيين وفرضت سيادتها على المناطق الغنية الخصيبة في وسط تونس الحالية وشمالها كما سنرى فيما يأتي من الحديث .

على أننا لانعرف إلا القليل عن تنظيم السلطة في هذين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، ولكن يبدو أن البلد خضعت لشكل خاص من « الملكية » التي كانت في الوقت نفسه وراثية وانتخابية . والواقع أنه إذا كان « الملوك » كلهم ينتمون إلى عائلة الماغونيين نفسها واحتفظوا بوظائفهم حتى موتهم بعد أن يتقلدوها لمرة واحدة على يد مجلس نجهل تشكيله فإنه يبدو جيداً أنه من أجل أن يتقلدوا هذه المهمة كان تؤخذ بعين الاعتبار الصفات العسكرية للمرشحين المتقدمين لهذا المنصب . فحملقرت الذي هُزم وقتل في نحو من عام ٤٨٠ ق. م في هيميرا (صقلية) كان قد اختير « ملكاً = بازيليوس » ليس بسبب من حق الولادة فقط وإنما بسبب ماكان يتمتع به من بسالة (هيرودوت VII, 165) . ولنضف إلى ذلك أن السلطة العليا في الدولة لابد أنها كانت قد تطورت هي نفسها بسرعة فائقة . في هذا الموضوع نجد نصاً لجوستان يعتبر معبّراً للغاية وهذا النص هو التالي : « بما أن هذه العائلة من القواد العسكريين (أي الماغونيين) كانت ترزح بثقلها على الحرية العامة وتستأثر بالسلطة والعدالة في الوقت نفسه فقد أقيم مائة من القضاة كانوا يؤخذون من أعضاء مجلس الشيوخ وكان على القواد بعد كل حرب أن يقدموا حسابهم عن أعمالهم إلى هذه المحكمة لكي يلهمه الخوفُ من الأحكام ومن القوانين التي يخضعون لها في قرطاجة أثناء

قيادتهم احترام سلطة الدولة » (XIX ,2 ,5) .

في أثناء النصف الثاني من القرن الخامس صغّر دور هؤلاء الملوك شيئاً فشيئاً حتى غدوا حكاماً دستوريين . وبعد سقوط أسرة الماغونيين انتقلت السلطة إلى عائلات أخرى كعائلة الحنّونيين التي أنشأها حنّون الكبير وإلى منافسيهم من عائلة حملقرت الكبيرة . ويمكننا رؤية أقصى ردة الفعل هذه عام ٣٠٨ في إدانة القائد بوملقرت الذي حاول أن يصلح من حال النظام الملكي وأعلن نفسه «طاغية» (ديودور 6-1, 44, XX) ، فقد صُلب في ميدان قرطاجة الكبير ومن فوق صليبه ـ كما لو كان من فوق منصة قضاء ـ ألقى آخر خطبه إلى الشعب (جوستان 11- 8, 7, XXII) . وقد أدت تجزئة السلطة الملكية إلى قيام أوليغاركية لمصلحة العائلات الكبيرة ومن بينها تلك التي كانت قد أفادت فائدة كبيرة من «إمبراطورية » الماغونيين ، فقد كانت ترغب بأن تحتل بدورها وظائف سياسية تتناسب مع ثرواتها . أما المنظمات الدستورية التي توسعت وأما النظام الانتخابي الذي كان معمولاً به أثناء هذه الحقبة فسرعان ماعُرضا في فصل من كتاب «السياسة » الذي كتبه أرسطو في نحو من عام ٣٣٠ ق. م :

« يمكن القول إن القرطاجيين كانت لهم حكومة تدير أمورهم بصورة جيدة ودستورهم يتفوق على الدساتير الأخرى في نواح عديدة » وفي قرطاجة عدد من المؤسسات الصالحة . ومما يدل على دستور مكين أن قرطاجة بالعنصر الشعبي الذي كان من صفاتها بقيت مرتبطة بنظامها الدستوري ولم يقم فيها قط ـ وهذا أمر جدير بالملاحظة ـ لاتمرد ولاطاغية .

ولهذا النظام مؤسسات شبيهة بمؤسسات الدستور اللاكوني : فوجبات الطعام المشتركة بين الرابطات السياسية (Hétairies) شبيهة بال (Phitidies) ، ومجلس الأربعمائة شبيه بمجلس الحكام الإسبرطين (Ephores) ، ولكن ماهو ليس بالأسوأ أن هؤلاء كانوا ينتخبون من بين القادمين الأوائل بينما أولئك كانوا ينتخبون بحسب الجدارة . وأخيراً فإن الحكام ـ القضاة (=Suffètes) ومجلس القدماء الشيوخ (Gerousia) يشبهون الملوك والقدماء في إسبرطة . على أن الميزة في قرطاجة أن الملوك لاينتمون إلى العائلة نفسها ولالعائلة محددة وإذا وجدت عائلة متفوقة فإن الحكام يُختارون عن طريق الانتخاب لابسبب السن (...) كذلك

فإن هذا الدستور يميل أكثر من الدستور الإسبرطي تارة نحو الديمقراطية وتارة نحو الأوليغاركية . أما ميله إلى الديمقراطية فتثبته هذه الواقعة : إن الحكام والقدماء أحرار في أن يحيلوا إلى الشعب إحدى القضايا طالما كانوا فيما بينهم على اتفاق ، أما إذا اختلفوا فإن الشعب يشارك هو الآخر في الفصل في هذه الأمور. والقضايا التي يعرضها الحكام والقدماء على الشعب لايمنحونه فيها فقط حق الإصغاء لقرارات الحكومة وإنما أيضاً أن يبدي رأيه كحكم فَصْل ، وكل مواطن يرغب بالمشاركة في الإدلاء بصوته يستطيع أن يقاوم الاقتراح المقدَّم وهذا لايوجد في الدساتير الأخرى .

ومن جهة ثانية أن يُترك للهيئة الخماسية (Pentarchies) ـ وهي هيئة مؤلفة من خمسة من الحكام ـ أن تنفرد بالحكم في كثير من القضايا الهامة من أمثال ملء المناصب التي تخلو من نصابها بحسب رغبة الباقين وأن تختار أعضاء مجلس المائة العالي وأن يمارس أفرادها سلطتهم خلال زمن أطول من بقية الحكام (كأن يمارسوا سلطتهم عملياً حتى ولو خرجوا من تكليفهم بها أو عندما يكونون على وشك الدخول إليها) ، فتلك كلها ملامح أوليغاركية . على أننا يجب أن نعترف بأن القاعدة التالية هي من الملامح الأرستقراطية وهي أن الحكام لم يكونوا يتناولون أجوراً على أعمالهم المشابهة وأنهم لم يكونوا يختارون عن طريق الحظ أو غير ذلك من الأعراف المشابهة وأن هيئات الحكام المختلفة كانت تتمتع بالكفاءة للنظر في كل القضايا دون توزيع للاختصاص تماماً كما هو الحال في (إسبرطة) .

ولكن نظام القرطاجيين السياسي كان ينحرف بوجه خاص عن الأرستقراطية نحو الأوليغاركية بسبب رأي كان مقبولاً بوجه عام : فقد كانوا يظنون أنه لايجب أخذ الجدارة وحدها بعين الاعتبار عند انتخاب الحكام وإنما يجب أن يحسب حساب للثروة أيضاً ، لأن مواطناً معسراً لايستطيع أن يكون صالحاً لمهام الحكم ولا أن يكون لديه الفراغ الضروري لذلك . فإذا كان الانتخاب على أساس الثروة مبدأً أوليغاركياً والانتقاء على أساس الكفاءات مبدأً أرستقراطياً فإن النظام الذي ترتكز عليه ـ بين مرتكزات أخرى ـ قواعد القرطاجيين الدستورية هو تركيب ثالث لأنه يأخذ بعين الاعتبار كلا الشرطين

في الانتخابات وبخاصة في شأن الحكام الأرفع شأناً والملوك والقادة العسكريين . ومع ذلك ينبغي علينا أن ننظر إلى هذا الانحراف عن المبدأ الأرستقراطي على أنه غلطة من المشرع (...) فمن المنطق في الواقع أن أولئك الذين اشتروا وظيفتهم يعتادون على أن يستجروا من ورائها الفوائد لأن السلطة التي حصلوا عليها إنما وصلوا إليها على حسابهم (...) . كذلك نستطيع أن نرى غلطة أخرى هي أن إنساناً بعينه يمارس عدداً من مناصب الحكم وهو أمر شائع جداً في قرطاجة (...). ومع أن القرطاجيين يملكون نظاماً أوليغاركياً فإنهم تجنبوا على أفضل سبيل الأخطار الناجمة عن اغتناء المواطنين ، فهم يرسلون دورياً بجزء من الشعب إلى المدن التابعة وبهذا العلاج أمنوا استقرار دستورهم » (٤٠) .

هذا العرض الهام الذي يتصدى للمذاهب السياسية يمكن أن تكمله إلماعات أخرى مختصرة تتكشف عنها بوجه خاص مؤلفات ديودور الصقلي وتروغ بومبي (كما نجدها في ملخص جوستان الذي يفتقر مع الأسف إلى الأمانة) . أما الجغرافي الإغريقي إيراتوستين الذي كتب في القرن الثالث قبل الميلاد فقد لاحظ من جهته أننا لانستطيع أن نعتبر بعض الشعوب بربرية وبخاصة « القرطاجيين الذين يملكون دساتير سياسية راقية » (٤١) .

من مجموع هذه النصوص نستخلص إذن أنه كان يوجد على رأس هذه الدولة مجمع من الحكام الرموز هم الشوفيط Suffètes ، والاسم هنا فينيقي معروف في النقوش البونية وقد ترجمه أرسطو بلقب ملك Basileus ولكننا إذا توخينا دقة أكبر فإن معناه « قاضي » بحسب ماتدل عليه هذه الصيغة في سفر القضاة في التوراة . وكان يوجدفي العادة قاضيان (أوحاكمان) Suffètes في كل عام يحتلان أعلى مناصب القضاء . وكانا يتمتعان ليس فقط بالسلطة القضائية في مسائل الحقوق الشخصية ـ وهي الوظيفة التي يدل عليها لقبهما ـ وإنما كانا زعيمين سياسيين أيضاً إذ كان يحق لهما دعوة المجلسين المنصوص عليهما في الدستور وأن يترأسا مايدور فيهما من مناقشات وأن يقدما لهما ماتجب معالجته من أمور . ومع ذلك نرى أنهما كان مبعدين عن القيادة العسكرية التي كان يعهد بها لقواد عسكريين كما لايوجد من الدلائل مايسمح لنا بالظن بأن السلطة الدينية كانت من اختصاصهما .

لقد تحدثنا عن مجلسين كان يترأس اجتماعاتهما هذان القاضيان . والواقع أنه كان يوجد مجلس كبير (Polybe ,X,2 ,18 ; XXXVI ,1,4 : Synclétos) سماه المؤرخ الروماني تيت ليف بمجلس الشيوخ Sénat لأن هذا الاسم كان مألوفاً لديه . وكان أعضاؤه يجتمعون في مبنى يقع بالقرب من ميدان المدينة الرئيسي . وكان هذا المجلس عندما ينعقد بكامل هيئته يضم - على الأقل في حقبة الحروب البونية - لجنة محدودة ودائمة هي مجلس القدماء والسنكليتوس Synclétos الذين لاتزال تنقصنا المعطيات عن طريقة اختيارهم ولكن يبدو أن هذا الجهاز كان مقتصراً على ممثلي العائلات الكبيرة الذين كانوا يتمتعون من الناحية العملية بصلاحيات ليس لها حدود كمشاكل السياسة والإدارة وقضايا الحرب والسلم والمسائل الخارجية والسفارات وتنظيم الجيش وتجنيد المرتزقة وتثقيف القواد وتدريبهم وربما توبيخهم وإدانتهم في حالة الهزائم العسكرية واتخاذ التدابير الضرورية لأمن الدولة ووضع القوانين المختلفة والأحكام المتعلقة بالضرائب والإدارة المالية .

كان هذا المجلس واسعاً بحيث يؤمن انتخاب هيئة الأربعمائة التي تكلم عنها أرسطو والتي كان يتم اختيار أفرادها «عن طريق الجدارة» . وكان هؤلاء يشكلون نوعاً من محكمة عليا مؤهلة للقيام بالرقابة في جميع الميادين . وهؤلاء القضاة الذين لايمكن إزاحتهم عن مناصبهم كانوا - بالإضافة إلى سلطتهم القضائية في مسائل الحقوق العامة - مسؤولين عن السلامة العامة يديرون أجهزة شرطة شديدة الوطأة مرهوبة الجانب ويبدو أيضاً أنه في إطار مجلس الشيوخ هذا كان ينخرط - عن طريق ملء المناصب الشاغرة على يد الباقين من الأعضاء - أفراد اللجان المتخصصة الكثيرة التي تكلم أرسطو من بينها عن لجان الأشخاص الخمسة Pentarchies . وكانت هذه اللجان تسهر على مسيرة هذا أو ذاك من قطاعات الحياة السياسية أو الاجتماعية ، وبذلك نشاهد أن أوليغاركيي قرطاجة أوكلوا العناية بتوجيه وإدارة الدولة إلى مجموعات من الزملاء بدلاً من حكام يتصرف كل منهم بوظيفته كما يشاء . ومن المحتمل أن يكون هذا التدبير نابعاً عن الحذر من المناورات الممكنة التي يمكن أن يقوم بها بعض الطموحين الذين ربما حاولوا إعادة نظام الماغونيين الذين تكلمنا عنهم والذين كانوا يحتكرون بين أيديهم كل

السلطات .

يؤكد أرسطو في عرضه المبسط أنه إلى جانب مجلس الشيوخ الكبير هذا فإن دستور قرطاجة نص على مجلس للمواطنين . وتؤكد نصوص قديمة عديدة وجود هذا المجلس الشعبي الذي كان يجتمع بناء على دعوة القاضيين الكبيرين (الشوفّيط) ـ بل وحتى من تلقاء نفسه عند الأحداث الخطيرة ـ في ميدان المدينة الكبير وأن سلطاته كانت مهمة . فقد عهد إليه في الواقع بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد على الأقل مهمة انتقاء القادة العسكريين وبذلك تقع مسؤولية الهزائم في حال سوء الانتقاء على عاتق كل الشعب بشكل غير مباشر. وفي عهد هانيبال (حن بعل) برقة كان هذا المجلس هو الذي يعيّن القاضيين الكبيرين أيضاً . وكان الشعب هو الذي يبت كذلك في الخلافات المحتملة بين « الملوك » (أو القضاة) وبين مجلس الشيوخ . وأخيراً كان بإمكان أن يُدعى للتداول في القضايا التي كان الجهازان السياسيان الآخران قد اتفقا عليها . ولم يكن الأمر يتعلق بمجرد التشاور إذ أن كل مواطن في الواقع كان حراً في إبداء الانتقادات واقتراح التعديلات ويعود إلى المجلس أمر القرار في نهاية المطاف . ومع ذلك يبدو أن هذه الصبغة الديمقراطية لم يتم التوصل إليها إلا خلال آخر عصور قرطاجة في عهد البرقاويين .

مع الحرب الثانية التي خاضتها قرطاجة مع روما وبوجه أخص بدءاً من عام ٢٠٢ ق . م بعد النهاية التعيسة لهذه المغامرة التي كانت في عهد نجاحات هانيبال (حن بعل) الكبرى قد ولّدت واسع الآمال في العالم البوني ، بدءاً من هذا العالم المذكور بالذات أخذ التطور السياسي يتسارع . فالنظام القديم أعيد النظر فيه لأنه لم يعرف كيف يعدّ العاصمة لمواجهة عدوها القديم فكان لابد من أن تُستخلص من ذلك بعض الدروس . فهزيمة زاما المريرة ستكون نوعاً من الكاشف الذي يظهر التوترات التي لم تكف عن الانتشار في صميم المجتمع القرطاجي . والواقع أن هذا المجتمع بعد أن توسع توسعاً كبيراً كان قد أضاع أيضاً تجانسه الأوليّ . وقد أشارت نصوص أرسطو إلى أنه من أجل التخفيف من هذه التباينات الداخلية التي كانت تولد الاضطرابات لجأت الأوليغاركية يومذاك إلى دواء فعال هو أن ترسل «دورياً جزءاً من الشعب إلى المدن التابعة » وبذلك تستطيع هذه

العائلات السيئة الحظ في وطنها الأصلي أن تغتني عن طريق الوظائف التي تسند إليها في « المعسكرات » وعن طريق الامتيازات التي تتمتع بها أثناء هذا التدريب وتحمل معها لدى عودتها دماً جديداً إلى الطبقة القائدة أو تقبل بحظها بسهولة على الأقل . ولكن بعد حرب السبعة عشر عاماً الطويلة التي جندت كل القوى الوطنية اتسعت الهوة وازداد عرضها . وكان الأكثر فقراً هم أول من تناولتهم في الواقع مصائب ذلك الوقت ، ولم تكن قد بقيت « مدن تابعة » تسمح لهم بالذهاب للسعي وراء الثروة فيها فاضطر السياسيون الأكثر فطنة لإقامة نظام أكثر ديمقراطية يسمح بتخفيف الصعوبات الاجتماعية التي كانت تنذر بالظهور والنص التالي يقدم لنا الدليل على ذلك :

« أما الدولة القرطاجية فيبدو لي أن مؤسساتها كانت مفهومة تماماً في صفاتها الرئيسية . كان يوجد فيها ملوك (= شوفّيط) . أما مجلس الشيوخ ذو الطبيعة الأرستقراطية فكان يتمتع من جهته ببعض السلطات بينما كان الشعب سيداً في المسائل التي كانت في دائرة اختصاصه . وكان تنظيم السلطات في مجموعه في قرطاجة يشبه ماكان موجوداً في روما وإسبارطة ، ولكن في الحقبة التي بدأت فيها حرب هانيبال (حن بعل) انحط دستور قرطاجة وغدا دستور روما متفوقاً عليه . إن تطور كل فرد وكل مجتمع سياسي وكل مؤسسة إنسانية يتميز بفترة نمو وفترة نضج وفترة انحطاط (...) ، وكان القرطاجيون قد عرفوا القوة والازدهار لبعض الوقت قبل الرومان ، وتجاوزوا مرحلة الذروة والعصر الذهبي تماماً في الوقت الذي غدت فيه روما في عز قوتها من حيث نظام الحكم فيها على الأقل. فقد أصبح صوت الشعب في قرطاجة مرجَّحاً في المداولات بينما كان مجلس الشيوخ Sénat في روما في عز سلطته . عند القرطاجيين كان رأي العدد الأكبر هو الذي يتغلب بينما كان الذي يتغلب في روما هو رأي النخبة من المواطنين»(٤٢) .

هكذا حلّل بوليب التغير العميق الذي تم عندما أتى إلى أفريقيا في هيئة أركان سكيبيون إيميلياس ورأى بنظرة المؤرخ علامات الانحطاط . وهذه المرحلة الأخيرة من التطور التي ربما كانت متأخرة جداً تشهد على الأقل على عمق النشاط الذي كان ينعش قرطاجة حتى يومها الأخير .

جنـود قـرطاجـة

بحسب الأسطورة التي تتحدث عن تأسيس قرطاجة والتي رواها جوستان (راجع مامضى) اختار مرافقو إيليستا موقع مدينتهم عندما نبشوا رأس حصان وهم يقومون بأعمال التاسيس . وقد اعتقدوا أن هذا إنما هو رمز لشعب محارب ورأوا فيه إرهاصاً للمستقبل السعيد الذي كانوا يعقدون آمالهم عليه . وإذا دققنا النظر في هذه النقطة رأينا أن التاريخ ماكان عليه أن يربط مصيره بوعود إحدى النبوءات (٤٣) .

والحقيقة أن القرطاجيين أثناء حروبهم التي شنوها على روما قدموا البرهان في مناسبات عديدة على مزاياهم العسكرية ، والمقاومة التي أبدتها المدينة خلال حصارها الأخير تظهر بشكل واضح أن جنودها كانوا يَفْضُلون جنود الفيالق الرومانية بينما لم يكونوا يتفوقون عليهم في حسهم المدني ومآثرهم الفردية. يبقى بعد ذلك أن الشعب القرطاجي - على الرغم من البسالة المثالية النادرة والتضحية اللتين عرف كيف يقدمهما في المناسبات المأساوية من تاريخه وبخاصة يوم محنته الكبرى - لم يكن يتمتع بموهبةٍ حربية (إذا صح لنا أن نتحدث هنا عن « موهبة ») ولم يظهر أي ميل للممارسات « الوحشية » .

لقد كانت المدينة البونية قد بنيت على يد صور ، ولم تكن تدعي أكثر مما تفعله العاصمة الفينيقية الكبيرة بأنها كانت تُستخدم كرأس جسر لنشر المشاريع العسكرية . وكان يوجد منذ البدء فرق ملحوظ بين وضعية المواطن في دول المدن في العالم الإغريقي أو روما الجمهورية في العصور الأولى من جهة وبين وضعية المواطن في قرطاجة من جهة ثانية . مثال ذلك - كما نعلم - أن المواطن الروماني كان ملزماً بالخدمة العسكرية وأن جمعيات المئة الناخبة المجتمعة في ميدان مارس والمثلة للشعب المسلح كانت هي التي تمتلك السلطات السياسية والتشريعية والقضائية والعسكرية التي تتمتع بشيء من الأهمية النسبية . وفي المقابل لم يكن شيء من ذلك يوجد في قرطاجة حيث المواطنون الذين كانوا يجتمعون في مجلس الشعب لم يكونوا مكلفين بالتزامات عسكرية . وفي روما أيضاً كان القناصل يباشرون تجنيد الجيوش ويقودون الحملات ولم يكن شيء من ذلك يوجد في

قرطاجة حيث لم يكن « الشوفيط » يستطيعون التدخل في قيادة الحروب التي كان يعهد بها إلى قادة عسكريين منتخبين من قبل الشعب .

ومما لاشك فيه أن قرطاجة بقيت مدة طويلة لاتثق أبداً بالقادة العسكريين. والحقيقة أن دورهم كان يفرض نفسه كضرورة لابد منها ولكنهم كانوا يتقلدون بحسب المفهوم الفينيقي ـ البوني القديم وظيفة غير طبيعية . ولم يكن المجلس الكبير يكف أبداً عن مراقبتهم حتى أنه شكل محكمة من مائة قاض لهذه الغاية ـ كما يذكر ذلك جوستان (انظر ماسبق) ـ « وكان على هؤلاء القادة العسكريين أن يقدموا لها حساباً عن أعمالهم » حتى لايحاولوا الخروج على سلطة الدولة .

ولم يكن الخوف يقتصر على رؤية مرتزقة يفرضون قانونهم وإنما كان ينظر إلى مهنة السلاح في حد ذاتها نظرة الشك والارتياب . وقد بلغ الأمر في هذه النقطة ماجعل ديودور الصقلي يستطيع أن يكتب : « لقد شن القرطاجيون الحرب دائماً دون أن يضعوا ثقتهم في الجنود المواطنين (V-38 ,3) » . لاشك أنه كان يوجد استثناءات في هذه النزعة العامة ، ويمكننا أن نذكر مثال ذلك «الكتيبة المقدسة» التي كانت تضم ألفين وخمسمائة من نخبة الشباب يمثلون أحسن العائلات الأرستقراطية القرطاجية ، وقد اشتهرت في قتالها تيموليون وفنيت كلها في صقلية في معركة كريميزوس عام ٣٣٩ ق. م . ويشار أيضاً إلى مواطنين تطوعوا ليسدوا الطريق على جيوش ريغولوس التي نزلت في أفريقيا عام ٢٥٦ . وهناك حشد آخر حدث في نحو من نهاية الحرب الثانية مع روما ، ومع ذلك ـ وهذه الملاحظة تفرض نفسها بداهة ـ فإن حوادث التجنيد هذه كانت نادرة ويُلجأ إليها فقط في ظروف استثنائية . وينبغي بطبيعة الحال أن نستثني من ذلك التعبئة العامة للشعب كله خلال السنوات مابين ١٤٩ ـ ١٤٦ ، وكانت الإمبراطورية البونية قد تقلصت في الواقع عندئذ إلى حدود مدينة قرطاجة وحدها. ولكي نبت في الأمر عند هذه النقطة يكفي أن نستمع إلى شهادة مميزة قدمها لنا بوليب :

« فيما يتعلق بالحرب البرية كان الرومان أفضل الجنود لأنهم أولوا عنايتهم كلها لتدريبهم بينما كان القرطاجيون يهملون تماماً مشاتهم ولايهتمون إلا قليلاً بفرسانهم ، ويتضح ذلك من واقع أن هؤلاء الأخيرين استخدموا جيوشاً أجنبية

كانت تخدم على شكل مرتزقة (VI,7,52) » .

وكان وجود كتائب أجنبية وبخاصة من الليبيين قد ذُكر لأول مرة في صقلية في معركة هيمير (٤٨٠ ق. م) ضمن جيوش حملقرت الماغوني . وهكذا كانت جيوشه الضخمة مؤلفة من رعايا جُندوا من المناطق التي كانت جزءاً من الأرض البونية أي من الأفريقيين وكذلك من جيوش مساعدة جُهزت من الحلفاء والأتباع وأخيراً من مرتزقة بمعنى الكلمة قدموا للانخراط إفرادياً أو تحت إمرة رؤساء عصابات . ويفسّر هذا اللجوء إلى تجنيد جنود غرباء في الحقيقة بأسباب اضطرارية . فبدءاً من اللحظة التي كانت قرطاجة فيها تمد سيادتها الاقتصادية على مناطق تزداد مساحتها باستمرار وجب عليها في مناسبات عديدة أن تصطدم بمقاومات محلية أو أن تلاقي منافسات قوية كما حدث لها في كل من صقلية وإسبانيا . وهكذا لم يكن في استطاعة سكانها من المواطنين أن يسدوا الحاجة إلى تزويد جيوشها بالجنود الضروريين أحياناً للدفاع عن المواقع المكتسبة أو تمتين أقدامهم فيها . يضاف إلى ذلك أنه كان من السخف والتخريب ان يجند مواطنون كانوا هم أنفسهم الصناع الأوائل لهذه القوة التي كانت في عز توسعها وإرسالهم في حملات بعيدة خطرة من أجل حماية التطلعات الاقتصادية والتجارية للعاصمة . ففي قرطاجة ذاتها كان المواطنون في الواقع هم الأكثر فائدة لعظمة الإمبراطورية .

بعد أن احتلت العاصمة البونية خلال القرن الخامس قبل الميلاد أرضاً في ليبيا تقع في الوسط والشمال من تونس الحالية (راجع مامضى) أصبحت تتصرف بالعديد من الرعايا . ومن جهة أخرى قدم لها حلفاؤها من أمراء نوميديا كتائب مهمة . وهكذا فإنها جندت من بين هؤلاء الليبيين والنوميديين الجنودَ الذين شكلوا جيوشاً كان يزداد عدد أفرادها باستمرار وحملت على عاتقها عبئاً هاماً في الحملات المختلفة التي جرت في صقلية وسردينيا وإسبانيا وإيطاليا وأفريقيا . وبذلك كان من بين العشرين ألفاً من المشاة الذين وصلوا إلى سهل البو Pô في نهاية عام ٢١٨ اثنا عشر ألف جندي من الليبيين الأفريقيين . هؤلاء الجنود الذين اقتيدوا للتعب والحرمان وهم قنوعون مجالدون كانوا محاربين ممتازين على الرغم من أن سلاحهم بقي بدائياً مؤلفاً من الحربة والخنجر وترس صغير

مستدير إلا إذا كانت أسلحة نهبوها من العدو كما حدث بعد معركة ترازيمين ، ولم يكن لديهم لاسيف ولاخوذة ولادرع ، ويجب أن نشير أيضاً إلى الأهمية التي كان يحتلها الفرسان النوميديون في جيوش قرطاجة وبخاصة بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد . كانوا كما كتب تيت ليف (XXIX ,34, 5) أفضل فرسان أفريقيا وهم يمتطون خيولهم الصغيرة العصبية . وفي المعارك كانت تدخلاتهم حاسمة في معظم الأحيان ، وكان معظم الآلاف الستة من الفرسان الذين قدموا إلى إيطاليا في أعقاب هانيبال (حن بعل) من هؤلاء النوميديين على وجه التحديد . وليس من العبث تشبيه دورهم بدور القوزاق في الجيوش الروسية في العصور الأخيرة .

« سلاح » آخر حل محل عربات الحرب القديمة وكان له في بعض الأحيان أثر حاسم في نتائج بعض المعارك هو الفيلة التي كانت كثيرة في (بلاد البربر) فوجهت إلى الحرب يقودها سؤاس مختصون وزرعت الرعب في صفوف مشاة الخصوم . وكانت أكثر من مرة مفيدة جداً للقرطاجيين ، ولكن الرومان من أجل أن يتفادوا أخطار هجماتها اعتمدوا على تدبير قتالي مرن جداً بأن يفتحوا ممرات عريضة أمام الحيوانات ، ومن جهة أخرى فإن الحيوانات لم تكن تستطيع أبداً أن تُستخدم إلا في الأراضي المنبسطة ولم تكن قيادتها سهلة كما أنها عندما تُجرح أو تجفل كانت ترتد على أصحابها .

إلى جانب الأفريقيين يجب أن نذكر وحدات الإيبريين والليغوريين والسردينيين والغاليين والإتروسكيين والإيطاليين القادمين من جنوبي شبه الجزيرة كما قدم الإغريق مساهمتهم أيضاً. وهكذا في عام ٣١٠ عندما نزل أغاثوكلس طاغية سيراكوزة في أفريقيا وجد أمامه إغريقيين بل وبضع مئات من السيراكوزيين كانوا يشكلون جزءاً من جيش قرطاجة . وبعد نصف قرن ساهم قائد المرتزقة اللاكيديموني (الإسبرطي) كزانتيوس مساهمة كبيرة بالنصر على ريغولوس عن طريق التكتيك الذي نصح به القادة القرطاجيين .

وهكذا لانستطيع القول بأن القوات البونية كانت تشكل جيشاً وطنياً . على أن القرطاجيين لم يكونوا يهتمون بذلك حتى ولو عرفوا جيداً أن جنودهم كانوا يضمرون نفوراً شديداً للدولة التي يقاتلون من أجلها . وقد يتذمرون في الواقع من

قسوة النظام وقلة الأجور التي يتأخر دفعها في أغلب الأحيان ، ووجب على القواد في أكثر من مرة أن يقمعوا بعض الفتن . والتمرد الرهيب الذي قاده سبينديوس الكامباني وماتو الليبي وأدى إلى «حرب تعذّر قمعها» (238 -241) ذكرها فلوبير في كتابه سالامبو ، هذا التمرد يظهر إلى أية درجة من الشدة يمكن أن تصل الأحقاد . وكذلك وجب على حملقرت برقة نفسه أن يستأصل شأفة رفاق القتال القدماء بكل ضراوة وقسوة .

ولنلاحظ في نهاية هذا الموضوع أنه إذا لم يكن حظ مرتزقة قرطاجة أفضل من حظ أمثالهم من الجنود الذين خدموا في ظل أسياد آخرين فإن مهنة القادة أنفسهم كانت بدون شك أكثر تعرضاً للأخطار . كان دورهم في خدمة بلادهم عاقاً كافراً بالجميل . ورغم أن بعضهم برهنوا على مواهب حقيقية وبعضهم كانوا قادة عسكريين كباراً من أمثال حملقرت برقة وولديه عَزَرْ بعل = هازدروبال وحَنْ بعل = هانيبال الذين أظهروا عبقرية في حروبهم فقتل الأب وابنه الأول في ميدان القتال فإن الابن الثاني الذي كان أكثرهم مهابة كوفيء مكافأة سيئة من وطنه حتى أُجبر على نفي نفسه ومغادرة بلده . أما القادة الذين كانوا مذنبين لأنهم قادوا جيوشهم إلى الهزيمة ـ لأن مثل هذا الأمر كان جريمة ـ فإن عقابهم كان درساً نموذجياً لأنهم حكموا بالموت صلباً حتى أن بعضهم أقدم على الانتحار للتخلص من عذاب شائن مهين . هذه القسوة كانت معروفة والقادة العسكريون الرومانيون المهزومون لم يكونوا يجهلون المصير الذي يمكن أن ينتظرهم لو كانوا في خدمة القرطاجيين . ففي عام ٢١٦ بعد كارثة «كان» المحزنة يصف لنا تيت ليف أن القنصل فارون Varron الناجي من المذبحة استُقبل على يد وفد من المواطنين (Patres) الذين هنؤوه لأن الجمهورية لم تُنكَبْ بخسارته . ويضيف المؤرخ بأنه «لو كان قائداً قرطاجياً فإن أي تعذيب لن يوفَّر تطبيقُه عليه » (XXII ,61 ,15) .

كان القرطاجيون إذن لايعرفون التساهل ولاالتسامح مع القادة العسكريين المهزومين أما إذا أحرز هؤلاء العظيم العظيم من الانتصارات فإنهم يصبحون موضع اشتباه في أعينهم بأنهم يُعِدّون للعصيان ويهددون المؤسسات الجمهورية . هذا الوضع مع مبالغاته ونتائجه المضرة أحياناً بمصلحة الدولة الحقيقية إنما هو

برهان على التعارض الذي كان طبيعياً وأساسياً والذي كانوا يرونه قائماً بين السلطة العسكرية والحريات الجمهورية .

« الأعمال والأيام » في قرطاجة

يقول الخطيب الإغريقي المصقع ديون كريسوستوموس إن شخصاً يسمى حنّون هو الذي «حوّل القرطاجيين من صوريين كما كانوا إلى ليبيين » فبفضله سكنوا في ليبيا (...) ونالوا الكثير من الثروات واكتسبوا أسواقاً عديدة » (الخُطَب XXV) . وربما كان الأمر يتعلق بتلميح للإقليم الذي أنشأه القرطاجيون في أفريقيا الشمالية بدءاً من النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد . ولم يكن بإمكان هذا الإقليم أن يتشكل إلا تدريجياً ـ وفي لحظة ما كان مقسماً إلى سبع مقاطعات أو ثمان ـ ونحن نجهل تطوره وامتداده قبل فترة الحرب البونية الثالثة . وفي عام ١٤٦ ق. م كان يشكل أولى الولايات الرومانية في أفريقيا وقد حُفر حوله خندق لتعيين حدوده . ولو أخذناه كما كان يومئذ ـ بعد أن تحتّل منذ مايقارب النصف قرن كثيراً من أعمال الاقتطاع التي مارسها ماسينستا ـ فإنه لم يكن يبلغ في مساحته خمسة وعشرين ألفاً من الكيلومترات المربعة . وربما كانت حدوده محدودة ببعض النقاط (٤٤) : فمن الشمال كانت تذهب من مصب نهر توسكا (الوادي الكبير) قرب طبرقة (على الحدود التونسية ـ الجزائرية الحالية) وتتجه نحو الجنوب الغربي إلى مراكز بجا وطبرسوق الحالية دون أن تدور حول هذه المناطق . وعلى ارتفاع هذه النقطة الأخيرة تحول اتجاهها إلى الشرق ، ثم انطلاقاً من جبل زغوان تقريباً تنحدر نحو الحنوب لتبلغ ساحل سرت الصغير(خليج قابس) غير بعيد عن مدينة صفاقس الحديثة . جزء واحد من هذا الإقليم هو الذي كان الأقرب إلى العاصمة وكان أقرب ماألحق بها ـ هو منطقة رأس بون الغنية ـ احتُل مباشرة من القرطاجيين ، فهنا هيئوا لأنفسهم ممتلكات كانوا يستثمرونها على يد الخدم والعبيد ، أما بقية البلاد التي كانت تابعة هي الأخرى للدولة التي كانت تحمل على عاتقها عبء إدارتها فقد بقيت أراضيها بيد الأفريقيين . وقد أضاع هؤلاء استقلالهم وخضعوا لشروط اقتصادية قاسية باستثناء بعض العائلات المميزة التي تلاءمت بسهولة مع النظام الجديد (انظر

مايلي من الصفحات) .

وقد سمح احتلال هذا الإقليم لقرطاجة أن تتطور وتتوسع . فبعد أن كانت قوة بحرية تجارية غدت قوة زراعية أيضاً. إلى جانب أوليغاركية التجار ظهرت أرستقراطية الأرض . فهل أضاف هذا الوضع الجديد عاملاً جديداً إلى التوترات الاجتماعية التي كانت قد بدأت تذر قرنها بين مختلف طبقات السكان المدنيين؟. هذه الفرضية ستبقى معروضة للدراسة والتحقيق . ولنقصان الوثائق حول هذه النقطة فإن بإمكاننا مع ذلك القبول بأن إنشاء هذا الإقليم إنما كان في البدء لمصلحة أولئك الذين كان لهم مصلحة في توسيع ثروتهم أكثر من ذي قبل بتنويع مرتكزاتها أي أن يستثمروا جزءاً من أرباحهم الناجمة عن التجارة في الممتلكات العقارية . وهكذا كان الماغونيون الذين تحكموا بمصائر قرطاجة منذ أواسط القرن السادس ـ أي قبل أن تمتلك المدينة إقليماً زراعياً خارج سورها ـ قد تمكنوا من فرض سلالتهم المالكة لأنهم وجدوا في عصر كانت الثروة فيه لكبار التجار . ثم غدا هؤلاء الماغونيون بالذات أول من باشر هذه السياسة «الإمبريالية» التي توصلت فيما بين عامي ٤٧٥ ـ٤٥٠ إلى إلغاء الجزية التي كانت قرطاجة تدفعها منذ نشأتها (انظر ماسبق) وإلى إنشاء إقليم بوني على حساب أذية الليبيين . أما حنّون الذي أشار إليه ديون كريسوستوموس على أنه المحرض على هذه السياسة الإلحاقية فإنه كان ابناً للقائد الماغوني حملقرت وحفيداً لماغون. وهذا المثال شديد التعبير : فإن بعض « سادة قرطاجة من التجار » غدوا المستأثرين بالأراضي المنتزعة من الوطنيين الأفريقيين ومن المحتمل جداً أنه كان يوجد في الغالب دمج في المصالح وتركيز في الثروات في أيدي بعض المحظوظين المتمتعين بالامتيازات .

أما أن تكون منافع الزراعة قد لفتت انتباه البونيين فهذا أمر يكفينا للاقتناع به أن نقرأ أيضاً ماأمكننا معرفته من الدراسة التي كتبها خبير زراعي قرطاجي اسمه ماغون . فالكتاب الذي ألفه والذي كان يضم ثمانية وعشرين سفراً تمكن من النجاة عام ١٤٦ من الحريق الذي أصاب مكتبة قرطاجة . ومن أصله لم يبق اليوم شيء ، ولكن بسبب الفائدة العظيمة التي كان يتضمنها في نظر الاختصاصيين فإن مجلس الشيوخ الروماني أمر بترجمته إلى اللاتينية كما تمت

له ترجمة إلى الإغريقية أيضاً. على أن هاتين الترجمتين ضاعتا كلتاهما كذلك ولم يصل منهما إلينا إلا حوالي أربعين مثلاً تتعلق بالزراعة وغراسة الأشجار المثمرة وإدارة الممتلكات الزراعية متفرقةً بين عدد من المؤلفين اللاتين . وبحسب مايراه كولوميل - وهو نفسه مؤلف دراسة في الهندسة الزراعية وعلى معرفة بالكتاب الذي ألفه سلفه - لابد أن ماغون كان ينظر إليه على أنه « أبو العلم الذي يتناول قضايا الريف » .

تتألف المنطقة التي احتلها القرطاجيون - وهي السهول الوسطى والدنيا من نهر المجردة وتلال رأس بون الساحلية ومنحدرات الساحل - من أراض خصبة معطاءة ذات أمطار كافية تكون غزيرة جداً في بعض الأحيان . وكان الناس منذ القديم يستطيعون أن يجنوا منها محاصيل وفيرة من الحبوب دون أن يلجؤوا بالضرورة إلى إراحة الأرض . وفي المناطق الأكثر جبلية كسلاسل كرومير وموغود تمثّل قطعان الثيران والأغنام ثروة ذات قيمة . ومما لاشك فيه أن الزراعة البونية كانت أبعد من أن تستخلص من هذه الأراضي الغنية نسبياً ماقدمته بعد ذلك عندما أصبحت أفريقيا مخزن الغلال لروما .

وكانت المساحة التي تبذر بالقمح من السعة بحيث تلبي ليس حاجات السكان المحليين وحدهم وإنما أيضاً حاجات كتلة قرطاجة السكانية الكبرى . وطالما نُقشت صور المحاريث والسنابل على المسلات والنقود البونية . وطبيعي أن الليبيين لم ينتظروا مجيء السيادة الأجنبية ليستخدموا التقنيات الزراعية - على بساطتها - ولم يحاول مالكو الأراضي الجدد منافستهم في هذا الميدان المتعلق بزراعة الحبوب. على أنهم في مقابل ذلك وجدوا أنفسهم مضطرين للتخصص في استثماراتهم الخاصة بحيث يحصلون منها على أفضل الفوائد ، بل إنهم ادعوا لأنفسهم حق احتكار بعض المنتجات ذات الأثمان المرتفعة . وقد خُصصت شبه جزيرة رأس بون والشمال الشرقي من البلاد للزراعات السباخية بوجه خاص لأن هذه الزراعات كانت تجد مشتريها مباشرة في أسواق التجمعات السكانية . ولكن زراعة الكروم وغرس الأشجار المثمرة هي التي توسعت أكثر من غيرها .

وكانت زراعة الكرمة تحتاج إلى عنايات دقيقة. وقد أسدى ماغون في هذا المجال مجموعة من النصائح تأخذ بعين الاعتبار الشروط المحلية للإقليم والأرض

يستطيع الإنسان أن يرى فيها برهاناً عل الخبرة التي اكتسبها القرطاجيون كالاتجاه الذي يجب أن تأخذه العراتش والعناية التي يجب الأخذ بها عند الغرس والتسميد والتقليم، وإليك مثالاً على ذلك مستمداً من هذا الخبير الزراعي الشهير يتناول إحدى طرق صناعة النبيذ من العنب الجاف (الزبيب) التي أستمر استعمالها في تونس حتى عهد قريب والتي تعطي شراباً خمري المذاق رفيع المستوى :

« يقطف العنب المبكر الكامل النضج وتفصل عنه الحبات المتعفنة والفاسدة وتغرس في الأرض على مسافة أربعة أقدام أغصان مشعبة أو أوتاد تربط ببعضها بواسطة عصيّ طويلة ويوضع فوقها فَرشات من الخوص يُعرض عليها العنب تحت الشمس . ويغطى العنب في الليل كي لايبلله الندى ، وعندما يجف تفصل حباته وترمى في جرة أو أي إناء فخاري ويصب عليها من المسطار (عصير الخمر قبل طبخه) على أن يكون من أفضل نوع ممكن حتى تغْمر الحبات . وفي اليوم السادس عندما يمتص العنب هذا المسطار ويغدو منتفخاً يوضع في قفة ويمر تحت المعصرة فنحصل على العصير. بعد ذلك يعصر الثفل (أي مابقي من العنب) بعد أن يضاف إليه مسطار طازج مصنوع من أعناب أخرى تركت تحت الشمس ثلاثة أيام ويمزج مزجاً جيداً ويوضع تحت المعصرة ثم يُغلق على هذا العصير الناجم عن هذه العصرة الثانية في أوان مُطيَّنة لكي لايصبح لاذع المذاق . وبعد عشرين أو ثلاثين يوماً عندما تنتهي عمَلية التخمر يسحب إلى النور في أوان أخرى تطلى أغطيتها بالجص وتغطى بجلد » (٤٥) .

أما في زراعة الأشجار المثمرة فإن الزيتون يحتل مكان الصدارة . وبحسب ماتقصه علينا رواية لاشك أنها أسطورية في جزء منها كان قد نقلها مؤرخ ذو أصل أفريقي هو أوريليوس فكتور فإن هانيبال (حن بعل) عندما خشي على جنوده من البطالة بعد صلح عام ٢٠١ استخدمهم في بعض الأعمال الزراعية «فملأ بذلك الجزء الاكبر من أفريقيا بأشجار الزيتون » (Caes ,37 ,3) . وكما هو شأن البربر دائماً فقد كان من السهل عليهم أن يطعموا الزيتون البريّ الذي يشكل مع شجرة المصطكا (نوع من البطم) الجزء الأكبر من النباتات الطبيعية المتوسطية ولايزال يوجد على الساحل . ولم يكن ينقصهم أيضاً أن يزرعوا أشجار

الزيتون في البساتين وفي هذا المجال قدّم ماغون قواعد محددة تتعلق بتحديد موسم الزرع تبعاً لأنواع التربة ، والمسافات التي ينبغي تركها بين الأشجار وبفضل هذه العناية كانت المحاصيل تصل إلى أرقام عالية .

ومن بين الأشجار الأخرى الممثّلة على المسلات المكتشفة في سالامبو يوجد الرمان والتين أيضاً ، كما أن الحدائق والبساتين كانت غنية بأشجار النخيل التي تركت نقوشها في أغلب الأحيان على النقود القرطاجية وعلى النذور . يضاف إلى ذلك أخيراً أن ماغون اهتم طويلاً بمعالجة البذور والمشاتل ونقل غراس اللوز من مكان إلى آخر .

وإلى جانب الزراعة والأشجار المثمرة بأشكالها المختلفة فإن القرطاجيين أفادوا مما كان الليبيون أنفسهم يعتبرونه المصدر الأساسي لثروتهم ونعني به تربية المواشي . وقد قدّم لنا بوليب الذي أتيحت له الفرصة لزيارة سيرتا (قسطنطينة) شهادةً مسؤولة وإن كانت تصلح بوجه خاص لأن تطبق على السهول الجنوبية ذات المناخ الأكثر جفافاً وعلى مناطق التل الجبلية حيث الزراعة كانت قليلة الانتشار . تقول هذه الشهادة إنه « يوجد في أفريقيا خيول وثيران وأغنام وماعز بأعداد كبيرة بحيث لايمكن وجود مثلها في كل بقية العالم المسكون وذلك لأن غالبية الشعوب الأفريقية التي لاتمارس الزراعة تعيش على قطعانها ومع قطعانها. » (XII ,3 ,3) . وقد عرفت تربية المواشي نهضة كبيرة فوق الأرض البونية نفسها أيضاً فسمحت بتقديم مايحتاجه السكان من مؤونة من الحليب واللحوم . وفي هذا الموضوع تكثر الشواهد . منها أن جنود القنصل ريغولوس قاموا بأعمال نهب واسعة في منطقة رأس بون أثناء حملتهم في عام ٢٥٦ . وقد كتب بوليب أنهم « عندما لم يصادفوا أية مقاومة قاموا بتخريب عدد كبير من المنازل الحسنة التجهيز واستولوا على كمية كبيرة من الماشية واقتادوا إلى مراكبهم أكثر من عشرين ألفاً من العبيد» (I -1, 29) . ولنلاحظ أنه في هذه المنطقة ذات الكثافة المرتفعة في السكان وحيث الأبنية كانت فائقة الجمال إنما اكتشفت حديثاً مدينة كيركوان البونية التي سمحت التنقيبات فيها بالكشف عن مجموعة هامة من الأبنية هي الأكثر أهمية بدون شك من أجل إغناء معرفتنا بفن البناء المنزلي(٤٦). هذا الساحل الشرقي مع أراضيه العديدة الصالحة للزراعة والمستفيدة من مناخ

مشمس عذب والتي تغطيها اليوم رياض أشجار البرتقال وترصعها تجمعات سكنية ذات لون أبيض كانت في الماضي منطقة ريفية ذات غلال وافرة أضيف إليها قطعان كثيفة من الماشية لتزيد من ثرواتها الزراعية الكبيرة . يضاف إلى ذلك أن هذه الماشية كانت كذلك من نوع مختار . وإلى ذلك الذي يرغب بشراء ثيران كان ماغون يقدم وصفاً دقيقاً للحيوانات التي يحسن اختيارها مما ينجم عنه أن تربية المواشي كان يمكن ان تعطي حيوانات ذات نسب وأصل . أما الخيول فإذا حكمنا عليها من رسومها المبسطة على النقود وبعض النصب التذكارية يبدو أن القرطاجيين اعتمدوا الخيول المغربية الشهيرة التي كان يستعملها النوميديون . وقد أظهرت نصب أخرى كباشاً ونعاجاً من أصل بربري ذات ذنب عريض وسمين جداً . ولنشر في الختام إلى أننا نستطيع أن نجد موجزاً مفيداً عن تربية المواشي في الإقليم الفينيقي في «تعرفة للأضاحي» تنص على مختلف الإتاوات المتوجب تقديمها للكهنة بحسب الحيوانات وطبيعة الأضحيات(٤٧) . وهذه الوثيقة تشير إلى الثيران والعجول والكباش والتيوس والحملان والجداء وأنواع الطيور الداجنة .

حبوب وزراعات بقول سباخية وكرمة وزيتون وأشجار مثمرة متنوعة وتربية مواش هامة تتناول كبار الماشية وصغارها : بذاك أصبحت قرطاجة قوة اقتصادية تستطيع أن تؤمن مايحتاجه سكانها . وبفضل الموارد التي كانت تجنيها من الضياع والأرياف المنتشرة في إقليمها حيث كانت قد سمحت للسكان المحليين بمتابعة استثمارهم لمتلكاتهم الزراعية وتربية قطعانهم ـ إضافة إلى مساهمتهم وتطوعهم كجنود في جيشها ـ فإنها استطاعت كذلك أن تتكفل أمر المصاريف الضرورية لإدارتها ومشاريعها . وعندما عالج بوليب الأحداث التي جرت في أواسط القرن الثالث عند تمرد الجنود المرتزقة وثورة السكان الأفريقيين فإنه ذكر هذه التدابير ذات الصبغة الاقتصادية التي اتخذتها العاصمة :

« كان القرطاجيون طول الوقت قد حصلوا على غذائهم الشخصي من منتجات الأرض المحيطة بمدينتهم (الشورا Chôra) ، أما العائدات الضرورية لتأمين مصروفات الدولة من تسليح وخدمات مختلفة فقد كانوا يحصلون عليها من أفريقيا (...). وفي أثناء الحرب التي انتهت منذ عهد قريب وضع

القرطاجيون في رأسهم أن الظروف تقدم لهم حججاً مناسبة كي يجعلوا معاملتهم قاسية للسكان الأفريقيين . وهكذا أخذوا من كل سكان الأرياف نصف محاصيلهم وضاعفوا مجموع الإتاوات التي خضعت لها المدن رافضين كل تنازل وكل تسوية مهما كان شأنهما بالنسبة للناس المحرومين من الموارد . ومن بين الحكام الذين كانوا يعيّنوهم كان من يستحق التكريم منهم ليس أولئك الذين يعاملون رعاياهم بالرقة والإنسانية بل أولئك الذين يؤمنون لقرطاجة أكبر قدر من الأموال والتموين » (I,2 ,71-72) .

فالنشاطات الزراعية التي لم تكن تستطيع أن تستأثر إلا بقسم من السكان قد دُعمت إذن في التجمعات السكانية وبخاصة في العاصمة بمشروعات صناعية وحرفية عديدة . وكانت هذه المشروعات ذات فائدة كبيرة لتغذية التجارة الداخلية إضافة إلى الصادرات الخارجية الضرورية جداً للقرطاجيين ليؤمنوا لأنفسهم بدلاً عن منتجاتهم المصنّعة مايحتاجون إليه من المواد الأولية وبخاصة المعادن التي كانت في أساس تلك الثروة الخيالية التي شهد عليها كل المؤرخين القدماء ، وبذلك يكون القرطاجيون قد بدوا خلفاء جديرين بأجدادهم الفينيقيين (راجع ماسبق).

لقد قيل غالباً إن الصناعة البونية لم تتألق بأصالتها إذ كانت تنقصها الروح المبدعة والمهارة التقنية ولم يكن القرطاجيون قادرين قط إلا على صناعة رخيصة . وربما كان هذا الإنتاج يبدو على هذه الصورة في نظر من يريد دائماً أن يطبق معايير النوعية وموازين الجمال سواء كان في اليونان أو كان في قريته الخاصة . ولكن هذه القوانين ليست دائماً مطلقة الصحة بدون شك ـ فثمة إبداع فني قرطاجي يفصح عن حضارة أصيلة ، ولقد كان بيير سينتاس على حق عندما ألح على « ضرورة ألا ينظر إلى الحضارة البونية على أنها نسخة من الحضارة الفينيقية ولا إلى قرطاجة على أنها ضاحية من ضواحي صور » (٤٨) .

ليس هنا مكان الدخول في جرد للقطع العديدة المعروضة في المتاحف والتي هي أفضل برهان على تنوع التقنيات القرطاجية بل يكفي أن نشير من بينها إلى الرئيسي من المنتجات .

يجب أن نشير قبل كل شيء إلى تطور الصناعة المعدنية . وكان الحدادون وصناع الأسلحة ممثّلين تمثيلاً قوياً بين نقابات الحرفيين في العاصمة إلى جانب

النجارين الذين كانت مهمتهم الرئيسة في العالم الفينيقي - البوني بناء المراكب وإصلاحها . وكان هؤلاء الحدادون في وقت السلم يعملون لحسابهم أو في في مشاغل المشروعات الخاصة أما في أوقات الحروب التي تستلزم تسليم كميات من الأسلحة تتزايد على الدوام فإن الدولة تطلب من هؤلاء التقنيين أن يعملوا في دور صناعاتها . وقد سمحت المقابر بتجميع نماذج من الأدوات والأواني من فؤوس ومطارق وملاعق وسكاكين ، وهنالك قبر لاشك أنه لواحد من صانعي السكاكين يضم وحده سبع عشرة قطعة منها. وفيما عدا ذلك - عدا بعض الاستثناءات النادرة - فإن القرطاجيين لم يكونوا يضعون أسلحة في الرموس . وعن موضوع صناعة الأسلحة هذه يجب أن نسوق مثالاً عن الجهد الذي بذل عام ١٤٩ في بداية الحرب الثالثة مع روما . فبعد أن سلّمت لعدوتها مائتي ألف قطعة من السلاح وحوالي ألفي آلية حربية - «وهكذا نرى بوضوح كم كانت هذه المدينة قوية» (كذلك كتب بوليب XXXVI, 1, 6) - فإن قرطاجة رفضت بعد ذلك أن تنحني أمام الشروط الجديدة التي أمليت عليها وقررت الدفاع وإعادة تسليح جيشها فكانوا في كل يوم يصنعون مائة مجن وثلاثمائة سيف وخمسمائة مزراق وحربة وألف رمية للعرادات والمنجنيقات ومايستطيعون إنجازه من هذه الآلات الأخيرة .

أما الصناعات النسيجية فكانت تستنفذ عدداً هاماً من الأيدي العاملة ولكننا لانملك إلاوثائق نادرة من أجل دراساتها . فإلى جانب النساء اللواتي كن في بيوتهن ينسجن الصوف والكتان لصناعة ثياب العائلة العادية - وقد وُجدت مغازل في بعض القبور - يبدو أنه كان يوجد نساجون يعملون في المشاغل ، وقد ذكرت هذه الحرفة في الواقع على بعض النصب التذكارية في سالامبو . أما صباغة الأرجوان الشهيرة جداً في فينيقية فكانت معروفة أيضاً معرفة جيدة في العالم البوني وقواقع الرخويات التي تعطي هذا اللون يمكن مصادفتها في عدة نقاط من السواحل الأفريقية كما هو الحال في جربة وكولو (الجزائر) وإستاويرا (سابقاً موغادور في مراكش) وفي شبه جزيرة رأس بون في كركوان المدينة البونية القديمة .

على أن من المؤكد أن الفخاريات كانت الصناعة الأكثر انتشاراً لدى

القرطاجيين . ففي العاصمة وحدها اكتشفت بضعة آلاف من الأشياء كان معظمها من التجهيزات الجنائزية وقد أعدت قائمة كاملة بمختلف النماذج التي كانت تخرج من فرن صانعي الفخار . وكان هؤلاء الحرفيون طبعاً هم الذين يجهزون لكل عائلة أدواتها التي لايستغنى عنها من صحاف وطباق وأقداح وأباريق وجرار بسيطة أو من ذوات العروتين وقناديل . وهذه الأواني والخزفيات هي بشكل ما ذات صفات مميزة سواء من حيث موقعها الاجتماعي أم تطورها التقني . حقاً إن هذا الفخار من نوع متدن في أغلب الأحيان ولكن غضاره الناعم المشوي جيداً على النار كان يعطي أواني متينة. أما التزيينات فلاوجود لها أو أنها تقتصر على بعض شرائط أفقية أو بعض التصاوير الهندسية التي طليت طلاء بسيطاً بألوان قاتمة رمادية أو سوداء . ولكن هذا الفخار العادي الذي خصص للاستعمالات المنزلية أو لتجهيز القبور ليس قليل النفع في نظر المؤرخ الذي يحاول الاقتراب من إحدى الحضارات . والواقع « إن البسطاء من الشعب الذين فيهم يتم تتبع مراحل الحضارة إنما يكتفون دائماً بالأواني المنزلية العادية (...) وتلك هي الأواني الأكثر شيوعاً التي نجدها في أكثر الأحيان وهي وحدها التي تستطيع أن تقدم لنا شهادة عن حقيقة الماضي » (٤٩) .

على أن الخزف القرطاجي لايقتصر مع ذلك على الفخار ذي الصفة النفعية وحده بل ينبغي أن نشير إلى بعض المنتجات ذات التخصص الأعلى من تماثيل صغيرة ودمى على شكل أجراس أو آنية (٥٠) بالغة الطرافة وتماثيل نصفية لنساء صنعت من الغضار الأحمر وأقنعة للرجال وهذه الأخيرة تمثّل خاصة وجوهاً غير ملتحية أو مكشرة أو توحي بالرعب أو وجوهاً مشوهة بابتسامات هازئة أو منفّرة ذات عينين على شكل هلال مقلوب وأذنين مصلومتين وخدين فيهما ثلوم وأخاديد مع عصابة على شكل عوارض متصالبة تغطي الجبهة . كما يلاحظ أيضاً بعض الأقنعة الضاحكة وقناعان آخران متشابهان يمثلان وجهاً تزينه لحية وفيه عينان لوزيتان وتعبير ذكي ورزين وابتسامة غامضة . ولنلاحظ أن العديد من هذه الأقنعة تحمل حلقة في الأنف تعتبر حلية ذات فائدة جمالية يمكن أن تكون موضوع نقاش ولم تكن مقتصرة على زينة النساء . والواقع أن كل هذه الرسوم التي كانت تعتبر متمتعة بقوة سحرية كانت مخصصة لإبعاد الشياطين الأشرار

وتهدئة غضبهم . والأقنعة إذن كانت تُعلّق في البيت أو في سرداب الدفن ولهذه الغاية على وجه التحديد جعل الحرفي المتخصص بصناعة الخزف ثقباً في أعلى هذه الأقنعة يسمح بتثبيتها على الجدران .

ومن بين الأشياء الكثيرة التي صنعها الزجّاجون البونيون إلى جانب المزهريات وقوارير العطور وغيرها من القوارير الأخرى التي يمثّل بعضها أشكال حيوانات أو آلهة فقد اكتُشف العديد من الأقنعة الصغيرة المصنوعة من عجينة زجاجية ذات زخرف وبريق . وكما هو حال أقنعة الغضار المشوي فإن هذه الأقنعة الزجاجية كان عليها أن تؤمن الحماية لحامليها أثناء حياتهم أو لحامليها وهم في القبور . وبعض هذه التعاويذ تعتبر روائع حقيقية لأن رهافة النموذج المجسّم التي نجحت في أن تضفي عليه تعابير آسرة رفعت من مستواها أيضاً باستعمال ألوان متعددة فاخرة من أبيض وأحمر فاقع وأسود وكستناوي وأزرق سيرقوني وأخضر وأصفر فاقع وفيروزي .

وكما كان حال أجدادهم الفينيقيين فإن الصاغة والجوهريين القرطاجيين بلغوا مرحلة كمال حقيقي فيما أنجزوه من أعمال . فالحلي المصنوعة من المعدن الثمين كان يمكن أن تكون مرصعة بالفصوص وتلك في أغلب الأحيان حالة تلك الأساور الذهبية ذات اللولب الواحد أو اللولبين تزينها ورود صغيرة وترصع أحياناً باللازورد . وأما الرقائق الذهبية التي كانت تزين العصائب فكانت تخضع لفن التطريق ، وينبغي علينا أن نُعجب بفن هؤلاء الحرفيين الذين نقشوا مثل هذه الأباريق النحاسية المذهبة المخصصة للخمور والتي كانت تمثل زخارف ذات جمال بالغ النقاء من وجوه إنسانية ورؤوس حيوانات رشيقة .

وقد سمحت التنقيبات الأثرية بجمع عدد كبير من الحلي التي كانت في معظمها أدوات زينة قرطاجية وإن كان العديد منها قد جُلب بصورة مؤكدة من الشرق من مصر أو اليونان : مجوهرات تتدلى بسلاسل من العنق وحلي بيضوية نقشت بدقة وتمثّل رموزاً دينية مثل هلال أو صنم على شكل قنينة ، ومشابك أثواب مزينة برسوم أنيقة هندسية وخواتم ذهبية مع حجر كريم محفور يستعمل نقشه ختماً أو توقيعاً أو هو على شكل حيوانات أو أبطال أسطوريين . أما العقود فهي في غالب الأحيان مؤلفة من حبات من الذهب أو الزجاج يفصل بينها تماثيل

صغيرة جداً متعددة الألوان من الميناء أو العظم أو العاج أو من معجون سيليسي تصنع منه أشكال نموذجية من العالم المصري كالإله بتاح وتوت وإيزيس وحورس الصقر إلى جانب الأقنعة البونية المعتادة ذات الطابع السحري . ومثل هذا العقد يكون مؤلفاً من عناصر تستعمل كمجوهرات كهلال من اللازورد وأسطوانة من الصفّير(نوع من الأحجار الكريمة ضارب لونه إلى الصفرة) ومتدليات ذات اشكال مختلفة مرتبة بتناسق (٥١) .

كما يجب أن نشير إلى بعض الأشياء المعدنية المشغولة المخصصة على وجه الدقة لوظائف سحرية كالجعاب الطلسمية المصنوعة على الطريقة المصرية والتي حفرت كتابتها - على الأقل في حالة أقدم الوثائق - على شفرة من ذهب أو فضة ولاشك أن « شفرات الحلاقة» (٥٢) المثيرة للفضول تلك كانت مخصصة « لحلاقة الأموات المقدسة» وقد وُجدت بأعداد كبيرة وكانت على شكل بلطة صغيرة تنتهي بساق على شكل عنق طويل وكانت شفراتها النحاسية مزينة غالباً بموضوعات مصرية أو فينيقية - بونية منقطة أو محفورة بخطوط صغيرة وتمثل آلهة أو حيوانات أو زهور أو أشجار نخيل . وكانت المادة الجنائزية تضم أيضاً أعداداً من المرايا على شكل أقراص من البرونز أحد وجهيها مطلي بطبقة من الفضة وكان بعضها يوضع فوق ذراع من الخشب أو العظم أو العاج بينما الأخرى التي جهزت بثقب كانت بدون شك مجهزة أيضاً بحبل . أما أغلفة بيوض النعام المزينة باللون الأسود أو الأحمر فقد وصلت إلينا بأعداد كبيرة (٥٣) ، وكذلك الأمر في الأشياء المصنوعة من الذهب والعاج كالأساور وعلب المجوهرات والصناديق الصغيرة والتماثيل الصغيرة المختلفة ، ومن العاج أيضاً صنعت الأمشاط والأمشاط الكبيرة المزدوجة المزينة أحياناً بالنقوش .

ولنشر أخيراً - أخيراً وليس آخراً - إلى المجموعة الغنية جداً من الجعران المستخرجة بالمئات من قبور قرطاجة . وكانت هذه الطلاسم مصنوعة بحسب العصور والبلاد من عجينة بدئية لامعة ثم من يَشَب أو عقيق أحمر وأندر من ذلك صناعتها من لازورد أو حجر اليمان . والجزء المسطح منها منقوش برسوم محفورة . وللجعرانات قصة . فالأقدم منها كانت تصنع في العادة في مشاغل نوقراطيس (مدينة في دلتا النيل) وعليها صور ذات موضوعات لها صبغة مصرية

أو شرقية . ومع الأزمة التي أصابت مصر في القرن الخامس قبل الميلاد استعاضت عن إنتاجها بالإنتاج الذي تطور وازدهر في سردينيا البونية والذي تميز باستعمال اليشب الأخضر الغامق الذي يكاد يقترب من السواد ، ومن المحتمل أن قرطاجة أيضاً كان لها صناعتها الخاصة في هذا المجال . ومع ذلك يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من أن الموضوعات مختلفة ظاهرياً فإن الجعرانات في العالم البوني استطاعت أن تنقل بكل بساطة الصور المصرية التقليدية ولكن بعد أن صبغها الفن الإغريقي بصبغته وأعطاها قالبه ، وعلى هذه الصورة تظهر تلك النسخ الجميلة المكتشفة في أوتيكا وقرطاجة ـ وإحداها مصنوعة من الكريستال الصخري ـ وهي تبدي لنا « محاربين » يحملون خوذة وسيفاً ومجناً .

فيما بعد ستكون أمامنا الفرصة للحديث عن المسلات والنواويس . أما الآن فمن أجل أن ننهي هذه اللمحة الموجزة عن الإنتاج الفني في العالم القرطاجي ينبغي علينا أن نقرأ هذه الصفحات المكتوبة في نهاية القرن الماضي والتي جعلنا بول غوكلر نشعر فيها بذلك الإحساس الذي انتابه عندما أسلم إليه أحد القبور مافيه من متاع أثناء تنقيبه في مقبرة برج الجديد :

« كان الهيكل العظمي ممدداً وهو هيكل امرأة ربما كانت كاهنة ، جمجمتها متوجهة إلى الشرق نحو الباب وهي لاتزال تحمل في يدها اليسرى مرآة كبيرة من البرونز وفي اليمنى صناجين ثقيلين من المعدن نفسه . أما معصمها الأيسر فيختفي تحت سوار من اللآلىء والجعرانات ومن تماثيل صغيرة مختلفة . وفي الذراع انتظم عدد من الحلقات المصنوعة من الفضة والعاج أما الأصابع فهي محمّلة بخواتم من فضة أحدها من الذهب مع أربعة أشكال لقرود كلبية الرؤوس محفورة على حجره الكريم . ومن الأذن اليسرى يتدلى قرط من الذهب مع صليب على شكل حرف T . وفي العنق قلادة كبيرة من الذهب الكثيف مشكلة من أربعين عنصراً ذات أشكال مختلفة موزعة توزيعاً متناسباً وفي وسطها مشبك مركزي يمثّل هلالاً من الفيروز متدلياً فوق قرص من الصّفّير .

والخلاصة إن هذه التنقيبات التي تمت في أقدم مقبرة في قرطاجة تضعنا أمام حضارة غريبة مرهفة جداً ولكنها مشربة أيضاً بعناصر من غربي آسيا أو مصرية ولم تتأثر إلا تأثراً ضعيفاً بالشعوب الغربية التي احتكت بها . وما

ينكشف أمامنا هنا هو قرطاجة الفينيقية مع كل مذاق أصالتها الأولية والتي تختلف اختلافاً كبيراً عن مدينة الحروب البونية التي تغيرت تغيراً عميقاً عن طريق المؤثرات الإغريقية (٥٤) » .

وإذا كان القرطاجيون قد تمكنوا من تكديس مثل هذه الثروات في عصر كانت الشعوب الأفريقية المجاورة لهم لاتمتلك إلا قطعاناً وثمار زراعة لم تتطور إلا تطوراً قميئاً (٥٥) فإن ذلك كان بفضل تجارة مكثفة وبخاصة تجارة المعادن الثمينة التي كانت العاصمة البونية مركزها ، والواقع أنهم كانوا يستعملون الكثير من الذهب والفضة في العاصمة الموسرة .

ولقد كنا علمنا فيما سلف من بعض النذور أنه كان يوجد سباكو ذهب عند القرطاجيين . وقد صُوِّرت هذه المهنة أيضاً على نقش بوني ممتع اكتشف حديثاً في قلب العاصمة القديمة (٥٦) . ومن بين طوائف الحرف الست التي ذكرتها هذه الوثيقة نلاحظ وجود طائفتين «سباكي الذهب» و «حرفيي الآنية» وهذا التعبير الأخير لايعني الخزفيين فحسب وإنما كل الحرفيين الذين يصنعون الآنية (٥٧) على اختلافهم بما فيهم الصاغة الذين أذابوا وزينوا هذه الأحواض البرونزية المذهبة وهذه الأقداح وهذه الأباريق ذوات اليد الواحدة التي وصلت إلينا بعض نماذج منها والتي وقع قسم كبير منها غنيمة في أيدي المنتصرين أثناء الحروب مع روما .

أما الأبنية العامة القرطاجية والبيوت الخاصة للعائلات الكبيرة فكانت مزينة زينة باذخة وقد انتقل هذا الترف أحياناً إلى الرومانيين . وقد ذكر بليني القديم (XXXIII,18) أن زخارف مذهبة شوهدت لأول مرة في روما في الكابيتول بعد دمار العاصمة البونية . وذكر العالم الأريب كذلك (XXXIII,50) الملاحظات المدهشة الماكرة التي أبداها السفراء القرطاجيون الذين كانوا يفدون إلى روما والذين اعتادوا في ديارهم على المساكن الواسعة التجهيز بأدوات المائدة الفضية فقد كانوا يتسلون في أن يتعرفوا في كل مكان يُدعَون إليه على أدوات المائدة نفسها التي كان مستضيفوهم يستعيرونها من عائلة إلى أخرى .

لقد كانت الثروات التي كدستها بعض العائلات كبيرة للغاية . فعندما

استولى سيبيون الأفريقي في عام ٢٠٩ على قرطاجنة * التي كان البرقيون (نسبة إلى القائد القرطاجي برقة) قد جعلوها عاصمة الإمبراطورية الإيبرية ـ البونية ، أخذ من خصومه كمية كبيرة من الذهب والفضة ، فقد كتب تيت ليف :« كان يوجد فيها ماتتان وستة وسبعون طبقاً من الذهب يكاد وزن كل واحد منها أن يكون ليبرة واحدة ، ومن الفضة المشغولة أو النقدية مازنته ثمانية عشر ألفاً وثلاثمائة ليبرة ، وفيها عدد كبير من الأدوات المنزلية الفضية وقد وُزن كل ذلك وحسب » (XXVI, 47, 7) . وعندما استولى لوكيوس ماركوس على معسكر هازدروبال (عزر بعل) أخي هانيبال (حن بعل) أحضر معه من إسبانيا أيضاً غنيمة عظيمة كانت تضم ـ بين ماتضمه من كنوز أخرى ـ نوعاً من مجنٍّ كثيف من الفضة (أو من الذهب حسبما ذكر بليني القديم) وزنه مائة وسبع وثلاثون ليبرة (أي حوالي خمس وأربعين كيلو غراماً) ويحمل صورة القائد سليل أسرة برقة .

ومما لاشك فيه أن الأرض الأفريقية المتواضعة التي انتزعت من الليبيين ليست هي التي استطاعت أن تقدّم للبونيين مثل هذه الثروات ، ولكن قرطاجة كانت مثل صور التي كان النبي حزقيال قد قال فيها: « وكانت سيطرتك تمتد إلى أعلى البحر » .

---

* قرطاجنة : تقع على الشاطىء الشرقي لإسبانيا وهي غير قرطاجة الأفريقية ـ المترجم ـ

سيـدة البحـر

« اخترع البونيون التجارة » (بليني القديم)

في القرن الثامن قبل الميلاد نادى النبي أشعيا منبئاً بسقوط المدن الفينيقية (٢٣،٢،٨) « اندهشوا ياسكان الساحل . تجارُ صيدون العابرون البحر ملؤوكِ ... من قضى بهذا على صور المتوَّجةِ التي تجارها رؤساء . متسبّبوها موقَّرو الأرض؟».

لقد حافظ القرطاجيون على التقاليد الفينيقية سليمة ولم يكن لشهرتهم في التجارة مثيل . وعندما قام بليني القديم يعدد الرجال والشعوب التي اعتبرت صانعة رئيسية للاختراعات التقنية وكبريات المؤسسات الاجتماعية فإنه كتب (VII,57,8-9) إن إقامة النظام الملكي كان من صنع المصريين وإقامة النظام الديمقراطي يعود للأثينيين ببينما البونيون ـ كما يضيف المؤلف ـ إنما «اخترعوا» التجارة .

ومن الطبيعي أن هذه العبقرية العملية التي اعترف بها القدماء طواعية للبونيين لم تأت لهم بمحبة بقية الشعوب . ففي مشهد شهير من مسرحية بونولوس Poenulus ـ وهي مسرحية ذات طراز إغريقي دون شك ـ يرسم مؤلفها بلوط Plaute صورة فيها ذم وهجاء لحنّون . فعندما يحط الرحال بهذا التاجر في كاليدون من منطقة إيتوليا يأخذ بالبحث عن ابنتيه اللتين كانتا ضحيتين منذ يفاعتهما لعملية اختطاف . ولاشك أن هذا «المهرج» البائس ـ بهذا التعبير الساخر يصف القرطاجي ـ وهو رجل تقي وأب صالح ولكنه بدا مثل كل النماذج المعتادة رجلاً ماهراً ومخاتلاً : « فهو يعرف كل اللغات ويتظاهر عن تبصر بأنه لايعرفها . إنه قرطاجي حقيقي وهذا كل مافي الأمر» .؟ ويكفي أن نورد هذ الحوار الموجز(المشهد الثاني) الذي يقوم بين أغاراستوكليس وبين عبده ميلفيون عندما يرى حنّون وحاشيته :

ميلفيون : ولكن من هذا الطائر الذي وصل هنا مع جلابيبه ؟ ، هل سيترك رداءه يُسرق منه في الحمام ؟ .

أغاراستوكليس : أقسم ببولوكس * إن له هيئة قرطاجي .

ميلفيون : إنه « مهرج » .؟ أقسم بديني أن لديه عبيداً عجائز من سقط المتاع .

أغاراستوكليس : وكيف عرفت ذلك ؟.

ميلفيون : أنظر إليهم وهم يتبعونه محنيي الظهور تحت وقر السنين . يضاف إلى ذلك أنه ليس لهم أصابع في أيديهم كما أتصور .

أغاراستوكليس : ولِمَ ذلك ؟.

ميلميون : لأنهم يحملون خواتمهم في آذانهم .

ونحن نجهل ماإذا كان الإغريق والرومان يتعرضون في الطرف الآخر من المتوسط لمثل هذه السخريات من قبل خصومهم السعداء . وإذا مااستمعنا إلى بلوطوخوس بدا لنا أن القرطاجيين لم يكونوا يستسيغون مناظرات من هذا النوع. فقد كتب هذا الأخلاقي الشهير: « إن هذا الشعب مفعم بالمرارة ، نكد المزاج ، يخضع لمن يحكمونه ، قاس تجاه الذين يخضعون له ، حقير عندما يخاف ، شديد الوطأة عندما يغضب ، لايتراجع عندما يصمم على شيء ، قاس بحيث يكره كل ماهو مسلّ ومحبّب » (٥٨) . واللوحة كما هو واضح معتمة . ولكن الحقيقة أن من باب التناقض أن نرى إغريقياً يمتدح فكر شعب عرف خلال عصور طويلة كيف يمنع البحارة الهيلينيين من المغامرة في هذه البحار التي كان الرومان يسمونها « ببحر صور » أو يكيل له آيات التقريظ .

ولم تكن بحار صور هذه تشمل حوض المتوسط الغربي من شواطىء سرت وما بعدها فحسب وإنما كانت تمتد بعدها إلى ماوراء أعمدة هرقل . وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد احتفظت الدولة القرطاجية لنفسها إذن باحتكار التجارة في كل هذه المناطق .

وكانت أربع اتفاقات دبلوماسية قد عقدت مع روما بحسب ماترويه المصادر

---

* بولوكس Pollux بطل أسطوري وهو ابن جوبيتر - المترجم -

المنقولة . وتنص المعاهدة الأولى التي عقدت عام ٥٠٩ (٥٩) على تعيين المنطقة التي تعتبر منطقة صيد للقرطاجيين : « إن الرومانيين وحلفاءهم يمتنعون عن الملاحة فيما وراء الشناخ الجميل (أي إلى الجنوب من رأس فارينا ـ أو رأس سيدي علي المكي ـ إلى الشمال الشرقي من قرطاجة مالم تجبرهم على ذلك العواصف أو قوة معادية . وإذا وُجد مركب مقاد رغم أنفه إلى ماوراء ذلك الرأس فسيكون ممنوعاً على من هم فوق ظهره من أن يبيعوا أو يشتروا عدا ماهو ضروري لجعل المركب المذكور قادراً على متابعة سفره في البحر أو تقديم إحدى الأضاحي . وينبغي على المركب أن يغادر خلال خمسة أيام .

أما أولئك القادمون للقيام بنشاط تجاري فإن أية مبادلة لايمكن أن تعقد إلا بحضور مبشر أو كاتب موثّق وأما بالنسبة لنظام المشتريات النافذة بحضور هؤلاء الموظفين فإن الدولة تأخذها على ضمانتها تجاه البائع ـ وذلك بالنسبة للمبيعات التي تتم في سردينيا أو أفريقيا ـ . وكل روماني يأتي إلى صقلية في المنطقة الخاضعة لسلطة قرطاجة سيتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الآخرون.

ويمتنع القرطاجيون عن كل اقتحام لأردي وأنتيوم ولورانتوم وسيسيي وتيراكينا وكل المدن اللاتينية المستقلة ويتجنبون مهاجمتها، وإذا حدث أن استولوا على واحدة منها وجب أن يعيدوها سالمة إلى الرومان .

ولن يبني القرطاجيون أي حصن في لاتيوم . وإذا تصادف أن اخترقوا أرضاً لاتينية بالسلاح وجب أن ينسحبوا منها قبل أن يقضوا فيها ليلة واحدة . (III ,1 , 22) .

وقد لاحظ المؤرخ أن « هذه المعاهدة تظهر لنا أن القرطاجيين كانوا يعتبرون سردينيا وأفريقيا ممتلكاتهم الخاصة بهم ولكنهم لايذهبون هذا المذهب بالنسبة لصقلية حيث يميزون بشكل واضح الجزء من الجزيرة الذي كان خاضعاً لقرطاجة (III,1,23) » .

ويشير بوليب إلى معاهدتين آخريين يعود تاريخهما إلى عامي ٣٤٨ و٢٧٩

حيث يبدو أن حق الرومانيين في التجارة كان لايزال مضيقاً عليه أكثر من ذي قبل :

« في هذه المعاهدة شمل القرطاجيون الصوريين أيضاً (ولاشك أن الأمر يتعلق هنا بالمنشآت الصورية والفينيقية بوجه عام في الغرب) وشعب أوتيكا ، كما أن ماستياتارسيون (لاشك أنها تقع على ساحل إسبانيا على مستوى رأس بالوس إلى الشمال من أليريا حيث كانت توجد قبيلة الماستيانوى التي كان لها علاقة مع التارسييوا الذين كانوا يحتلون القطاع ذا المناجم المعدنية من ترشيش - طرطسوس) ورد ذكرها إلى جانب اسم الشناخ الجميل ليدلاً على الحدود التي يمنع وراءها على الرومانيين أن يمارسوا القرصنة أو إنشاء المدن (...) .

ولن يتمكن الرومان في أية حالة من الحالات أن يتاجروا في سردينيا وأفريقيا أو ينشئوا مدناً هنالك بل سيسمح لهم فقط بأن يستريحوا هناك ليتمونوا ويصلحوا مراكبهم . أما الذين ترميهم العاصفة على الساحل فينبغي أن يعودوا إلى البحر في غضون خمسة أيام .

وفي صقلية القرطاجية وفي قرطاجة نفسها يمكن للرومان أن يمارسوا التجارة والنشاطات الأخرى في الشروط التي تنطبق على المواطنين أنفسهم ، ويتمتع القرطاجيون بالحقوق نفسها في روما» (III,1,24) .

يلاحظ هنا أن قرطاجة غدت وارثة صور الحقيقية . فهي تحتل في الواقع مركزاً مميزاً بين المستوطنات التي أنشأتها العاصمة القديمة في الغرب . وإذا كانت المعاهدة الأولى بإشارتها إلى الساحل الممتد إلى الجنوب من رأس بون (وهو يشمل المراكز التجارية - أو الأمبوريا - في سيرت الصغيرة) قد عينت الحد الشرقي للإمبراطورية البونية التي كانت في طور التشكل فإن الوثيقة الدبلوماسية الجديدة كانت أكثر دقة وتحديداً ، فالمجال الذي حرص القرطاجيون جيداً على تأمين سيادتهم عليه أصبح يمتد إلى الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبرية الذي كان الإغريق قد طردوا منه أيضاً من قبل .

ولنضف إلى ذلك أن قرطاجة لكي تجعل حقوقها محترمة في هذا البحر الذي نسبته إليها لم تكن فقط تعتمد على هذه المعاهدة المدّونة التي كانت تعرف

تماماً أنها لاتستطيع أن تقاوم أطماع شريكتها فيها بشكل حازم وإنما وضعت ثقتها في بحريتها أيضاً. وكانت هذه البحرية الأقوى في تلك النواحي تسهر في الواقع على تأمين الحماية وويل للمتطاولين الذي يركبون رؤوسهم للوصول إلى السواحل الممنوعة . وإليك مقطعاً لسترابون يعطينا صورة واضحة عن هذا الموضوع : « لايجب أن ننسى أن القرطاجيين من جهتهم كانوا يرسلون إلى أعماق البحر من غير رحمة ولاشفقة كل مركب غريب كانوا يلاقونه مبحراً في نواحيهم متوجهاً إما إلى جزيرة سردينيا أو نحو أعمدة هرقل » . (XVII,1,1).

ومن بين أقدم المراكز التي دخلت في عالم قرطاجة تلك التي كان الفينيقيون قد أنشؤوها بأنفسهم . وبعد هذه الموجة الأولى أنشأ البونيون مستوطنات أخرى داخل منطقة نفوذهم . وقد عرفنا فيما سبق أنه ليس من السهل علينا أن نميز بين المنشآت العائدة إلى الحقبة الأولى من تلك التي أضيفت إليها بمبادرة من القرطاجيين أنفسهم .

في هذه الشبكة يجب أن نذكر في البدء تلك المراكز التجارية التابعة «للمثلث الفينيقي» (٦٠) الذي كانت رؤوسه هي قرطاجة مع ولايتها الليبية وصقلية الغربية وسردينيا . ففي صقلية التي كان الاستيطان الفينيقي قد تم فيها من قبل (انظر ماسبق) لم يأت القرطاجيون للاستقرار إلا في جزء صغير من الجزيرة . وبعد موتيي Motyé أو (San Pantaleo) قدمت لنا مواقع أخرى آثاراً أركيولوجية ملفتة للنظر عن هذا التوغل منها جبل إريكس (حيث يقوم الآن مركز إيريس الحالي على بعد خمسة عشر كيلومتراً من تراباني) وليليبي (مارسالا) على الطرف الغربي من الجزيرة وبانوروموس (باليرم) وسولوييس (سولونتي) (٦١) على الساحل الشمالي . ويبقى بعد ذلك أن قرطاجة في نزاعها مع الإغريق (الذين كانت قاعدتهم الرئيسية سيراكوزة) وجب عليها أن تحدد احتلالها ورقابتها في المنطقة الواقعة إلى الغرب من خط يصل هيمير Himère بسيلينونتي . ورغم الصعوبات التي لاقوها في توسعهم الأرضي فإن القرطاجيين أجبروا على إقامة علاقات مع جزء الجزيرة الذي لم يستطيعوا احتلاله . ففي خلال الفواصل بين الحروب التي كان عليهم أن يدعموها أو يقودوها بأنفسهم ضد

منافسيهم عرفوا كيف يطورون تجارة نشيطة جداً مع صقلية الإغريقية . وكانوا عديدين أولئك البونيون الذين ترددوا ليس فقط على سيلينونتي وإنما على أغريجانتي أيضاً ليحملوا إليهما الخمر والزيت ووصلوا حتى إلى سيراكوزة حتى أنه أنشئت مستوطنة قرطاجية في هذه المدينة القوية الكبيرة .

وسواء أقلعت المراكب الخارجة من العاصمة البونية إلى موتيي أو إلى جنوبي سردينيا فقد كان عليها أن تقطع المسافة نفسها وكان يمكن لهذه الرحلة أن تتم في يوم كامل . وقد تمكنت قرطاجة أن تمد شبكة مراكزها التجارية في سردينيا كلها على خلاف ماكان الوضع في صقلية وأفادت من احتكار حق التجارة معها وأجبرت الآخرين على احترام هذا الحق كما رأينا من قبل . وانتشرت هنا مراكز تجارية عديدة Emporia وبخاصة على طول الساحل الجنوبي الغربي مع مرافئها أو في مواقع لها صفات مميزة جداً كانت مواطن استقرار فينيقية - بونية من أمثال كاراليس (كاغلياري) ونورا وبيثيا وسولسيس (انظر ماسبق) وثاروس وفي الشمال الشرقي أولبيا .

ويجب أن نلاحظ أن الاستيطان لم يقتصر على منشآت مبعثرة على طول الساحل إذ أنشأ البونيون في الداخل أيضاً منشآت من أمثال حصن مونتي سيراي(٦٢) مع معبده ويبدو سوره وقلعته Acropole مشرفين على ماحولهما من مكانهما المرتفع ، وهذا الدليل على أن البونيين كانوا يريدون السيطرة على كل الجزيرة التي كان لهم فيها مصلحة رئيسية للاحتفاظ بهيمنتهم على البحر المتوسط . ولكن على الرغم من أنهم شادوا العديد من المراكز الحصينة داخل البلاد فإنهم لم يتوصلوا مع ذلك إلى إخضاع كل السكان المحليين ، فقد كتب ديودور الصقلي : « إن القرطاجيين الذين غدوا في عزّ قوتهم أسياداً على الجزيرة (سردينيا) لم يتمكنوا من أن يستعبدوا أولئك الذين كانوا يحتلونها قبلهم لأن الايوليين لجؤوا إلى المنطقة الجبلية . وعلى الرغم من أن القرطاجيين كانوا يهاجمونهم في أغلب الأحيان بقوات كبيرة فقد تمكنوا من إنقاذ أنفسهم من العبودية تحميهم من ذلك مجازات بلادهم الجبلية الصعبة ومساكنهم المبنية تحت الأرض » (V,15) . هذا اللقاء وتلك المواجهة بين القرطاجيين والسردينيين

الذين كانوا يستفرسون في حماية ثقافتهم الخاصة يُعدان من أمتع اللحظات في التاريخ القديم . ولكن روما التي أفادت بعد ذلك عام ٢٣٨ من الأزمة الخطيرة التي تخبطت فيها العاصمة البونية المهددة بثورة المرتزقة والتي كانت قد طردت حليفتها القديمة قبل ذلك بثلاث سنوات من قواعدها في صقلية لن تلبث أن تضم إلى ممتلكاتها كلاً من سردينيا وكورسيكا أيضاً .

وإلى جانب صقلية الغربية وسردينيا دخلت في الإمبراطورية القرطاجية كل من مالطا وغوزّو ولامبيدوزا وبانتيليريا التي نعرف أن الفينيقيين كانوا قبل ذلك قد أنشؤوا فيها محطات (٦٣) ، وكانت هذه الجزر الصغيرة الواقعة بين أفريقيا وصقلية تستطيع أن تلعب دور الحراس لمراقبة مدخل البحر المتوسط الغربي . وبحسب مايذكره ديودور الصقلي أيضاً (V,16) قدم القرطاجيون ليستقروا في جزيرة بيتيوس (إيبيزا) وربما حدث ذلك عام ٦٥٤ أي بعد قرن ونصف من إنشاء مدينتهم . أما في حالة مينورقة فسنلاحظ أن ماهون (ماغو) حفظ لها اسماً كان قد غدا شهيراً بعد أن أصبح علماً على عائلة الماغونيين القرطاجية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ قرطاجة . ونحن إذا تتبعنا خط العرض الأربعين للاحظنا أن هذه الجزيرة تقع على بعد حوالي ثمانين ميلاً عن السواحل الغربية لسردينيا . والمبحرون الذاهبون من المرافيء السردينية للوصول إلى إسبانيا سيجدون إذن جزر الباليار خير المحطات .

المراسي (Echelles) البونية الأفريقية *

ولكن عاصمة العالم البوني كانت تقع في أفريقيا فلم تكن تستطيع في علاقاتها التجارية أن تهمل الأسواق التي كانت قُدّمت لها على طول الساحل الأفريقي الذي كانت تمتلك الرقابة الكاملة عليه . ولم تكن تستطيع هنا أيضاً إلا أن تستمر في تجارتها التي كانت نشيطة منذ عهد التوسع الفينيقي، وهكذا احتفظت بالمراكز التجارية التي كانت منتشرة على هذا الساحل وفتحت

* المراسي : معناها هنا محطات بحرية على الطريق

لها مراكز أخرى . وقد ذكرنا أنه من أجل السماح بمساحلة قصيرة المدى كانت محطات الاستراحة والتموين منتشرة بانتظام وعلى مسافات متوسطها أربعون كيلومتراً بدءاً من خليج قابس حتى طنجة ، وهذه المسافات كانت تنطبق على ماتستطيع اجتيازه يومياً القوارب المبحرة في ظروف حسنة (٦٤) . ومن المؤكد أن يكونوا على معرفة بمراس مهما كانت متواضعة كخليج صغير محمي من الرياح أو مصب أحد المجاري المائية ليرسوا فيها عندما تستدعي ذلك احتياجات الرحلة لاسيما أن الساحل الصخري المعرض للريح والتيارات يجعل السفر أبعد مايكون عن الراحة واليسر . ومع ذلك يمكننا أن نقبل بصعوبة أنه كان على الملاحين أن يسحبوا في كل مساء إلى اليابسة قواربهم بانتظام وهو أمر ربما أملته ضرورات أعمال التحميل والتفريغ اليومية (٦٥) التي كانت مستساغة أحياناً وتستغرق الوقت الطويل .

لقد سمحت أعمال التنقيب الأثرية التي جرت في ساحل تونس والجزائر ومراكش بالكشف عن سلسلة «مراس» بونية عديدة . ولنلاحظ من جهة أخرى أنه بين المدن الموانيء التي انتشرت على هذا الساحل في العصر الروماني كان الكثير يحمل أسماء تنتهي بالمقطع الساميّ « روس Rus » الذي يقابله بالعربية «رأس» ، ويدل ذلك على أنها شيدت في مواقع كانت قد أنشئت فيها من قبل مستوطنات فينيقية بونية . وإليكم بعضاً من «رؤوس الجسور» هذه منتشرة على ساحل يمتد أكثر من ألفين من الكيلومترات لتدل كثرتها بوضوح على وجود قرطاجة وعلاقاتها مع السكان الأفريقيين .

ففي تونس أخرجت إلى النور آثار استيطانات بونية في ثايناي Thaenae (هنشيرثينا إلى الجنوب من صفاقس) ، وآكولا Acholla (رأس بوتريا) ، وغومي Gummi (المهدية) ، وتابسوس Thapsus (رأس ديماس حيث تم جرد المقبرة هناك) ، وليبتيس الصغرى (ليمتا) ، وهدروميتوم (السوس) ، ونيابوليس (نابول)، وكلوبيا Clupea (كليبيا) ، وكركوان وراس الدريك وراس فورتاس (وهذه المواقع الخمسة الأخيرة موجودة في رأس بون) (٦٦) . ويعد قرطاجة واوتيكا ياتي رأس سيدي علي المكي (بالقرب من بورتوفارينا) ، وهيبو آكرا

(بيزرت) ، وعلى الحدود الجزائرية التونسية الحالية توجد تاباركا (طبرقة) وجزيرتها الصغيرة غاليت .

وكنا عرفنا أن الاستقرار القرطاجي لم يكن مقتصراً فقط على الشرائط الساحلية (راجع ماسبق) ومع ذلك فإننا نجد مبالغة واضحة فيما كتبه سترابون عن هذا الموضوع وإليك نصه : « في ليبيا (المؤلف يقصد هنا كل أفريقيا الشمالية) انتهى الفينيقيون بأن ألحقوا بهم كل البلاد التي لاتقوم فيها حياة بدوية . وعندما غدوا فخورين بهذه القوة دفعوا قرطاجة إلى النزاع مع روما وشنوا على الشعب الروماني ثلاث حروب رهيبة كانت الأخيرة منها على وجه الدقة هي التي كشفت عما كانوا يمتلكونه من موارد هائلة (...) . وعندما بدأت هذه الحرب كانوا يملكون في الواقع ثلاثمائة مدينة ولم تكن عاصمتهم قرطاجة تضم أقل من سبعمائة ألف من السكان » (XVII ,3,15) . ومع ذلك يجب الاعتراف بأن الوجود البوني فوق الأرض التونسية الحالية يتضح بعمق في داخل البلاد. فقد استقروا في سيكا Sicca (الكف) وفي وادي المجردة الأوسط وغدوا سادة « السهول الكبيرة Campi magni» ، وفي مناطق التجمعات السكانية الحديثة من سوق الخميس وسوق الأربعاء وهنا على وجه الدقة يكمن أحد أسباب نزاعهم بين عامي ١٩٣ ـ ١٥٢ مع النوميدي ماسينيسا الذي كان يدعي يومذاك أنه يستعيد إلى سلطته ممتلكات أجداده .

من هذا التغلغل القرطاجي إلى وسط السكان الأفريقيين كان لابد أن ينجم نوع من الاندماج أدى إلى وحدة عرقية وثقافية . مثال ذلك أنه في زمن القديس أغسطين كان الحديث لايزال يدور عن لهجة ليبية ـ بونية في بعض مناطق الريف (٦٧) ، فالحضارة القرطاجية كانت قد تمكنت من فرض نفسها شيئاً فشيئاً ولكن العادات الوطنية والمعتقدات التقليدية أعطت بدورها بصماتها لمثيلاتها الفينيقية بحيث غدت ليبية ـ فينيقية . (وقد أطلق هذا الاسم في بادىء الأمر على الفينيقيين المستقرين في المستوطنات الساحلية الأفريقية ثم مالبث بعد ذلك أن وجدناه يطلق على الليبيين الذين تبنوا العادات البونية ، ويبدو أيضاً أنه اتخذ قيمة قضائية وإدارية للدلالة على مواطني المدن البونية الذين كانوا

يستفيدون من حقوق قرطاجيي العاصمة المدنية نفسها). والخلاصة أن حضارة هؤلاء الشرقيين التي زُرعت في أفريقيا كان لابد لها من أن تنهل من خير مصادر أرضها المختارة ، وعن طريق هذه « الأفرقة » التي أغنتها غدت الحضارة البونية تنتمي بصدق لإرث شمالي أفريقيا الثقافي . وقد كتب جيروم كاركوبينو : « لاشك في أن هذه المستوطنات شكلت على المدى الطويل كثيراً من بؤر حضارة خليطة كانت تنتشر شيئاً فشيئاً من الساحل إلى مايجاورها من القارة حتى نشرت في أفريقيا الشمالية كلها فكر قرطاجة لآلاف السنين (٦٨) » . واليوم تعرف بلد مثل تونس كيف تضطلع من جهتها اضطلاعاً عالياً بمسؤولية هذا الإرث التي كانت المستفيدة الأولى منه .

كانت هذه المستوطنات كثيرة أيضاً على ساحل الجزائر. فمن الشرق إلى الغرب يمكننا أن نعدد على التوالي : هيبوريجيوس (عنابة) ، وروسيكاد (سكيكده) وشولّو (كولّو) ، وإيجيلجيلي (جيجيل) وسالداي (بجاية) وروسازوس (آزيفون) ، وإيمونيوم (تيغزيرت) ، وروسفونياي (برج البحري عند رأس ماتيفو) وإيكوزيوم (الجزائر) وتيباسا و يول (تشرشل) ، غونوغو (غورايا) ، كارتينا (تينيس) ، ويورتوس ماغنوس (بيثيوا مرساة سان لو) ، والأندلسيين Andalouses، ومرسى مداخ ، ويوزجّار (وهذه المواقع الثلاثة الأخيرة تتتالى مباشرة إلى الغرب من وهران)، وأخيراً راشغون (٦٩) ، ففي نهاية هذا المطاف نصادف هذه الجزيرة الصغيرة ذات الخمسة عشر هكتاراً والتي تنتصب على بعد ألف متر عن الساحل أمام الخليج الذي يصب فيه نهر تافنا وفي مقابل سيغا المدينة المحصنة التي كانت عاصمة لسيفاكس Syphax ملك الماسايسيل الذي كان خصماً سيء الحظ لماستينيستا .

وفي راشغون يجب أن نجعل لنا وقفة . فهضبتها التي تمر فوقها ريح محملة بالرذاذ تنتصب حوالي خمسين متراً فوق الأمواج ويتم الوصول إليها عن طريق ممر شديد الإنحدار محفور في جرف وعر. وقد سمحت التنقيبات التي جرت حديثاً بالكشف عن أبنية وعن مقبرة تضم مائة وأربعة عشر قبراً معظمها محروقة وعن أثاث مثير للاهتمام وتعود كل هذه الآثار إلى عصر سابق للقرن

الخامس قبل الميلاد . ويلاحظ عند أسفل السفح الشرقي حوض اصطناعي صغير ذو شكل رباعي طوله عشرون متراً عرضه خمسة عشر تم إعداده في جون صغير ويمكن الوصول إليه عن طريق فرضة عرضها أقل من مترين مفتوحة في الصخر، وإلى هنا بدون شك كان قاطنو الجزيرة يقودون قواربهم عندما كانوا يعودون من الساحل حيث كان عليهم مثل كل المقيمين في المراكز التجارية البونية أن يعقدوا صلات مع السكان المحليين وحيث كان عليهم أن يلجؤوا أيضاً للحصول على مؤنتهم من الماء والطعام .

في هذه التخوم الغربية من البحر المتوسط يبدو « مرفأ » راشغون هذا بأبعاده الضيقة حقاً والمحفورة بيد الإنسان أمام جرف جزيرة ساحلية تكتنفها الصخور مهجورة من الجميع ، يبدو هذا المرفأ إيضاحاً آسراً لما كانت عليه مغامرة شعب خرج من الشرق وأتى ليلقي مرساته على هذه السواحل غير المضيافة . وكان هذا الشعب البوني دائماً في موقف الدفاع وعاش طواعية حياة « هامشية » مستبسلاً في مشروعاته ولكن مقتصداً في وسائل عيشه ولايستجيب إلا قليلاً لمغريات أطايب الحياة ، كما كان بطبيعته فاقد الثقة بمصيره ، ذلك المصير الذي كان عليه دائماً أن يرغمه بجرأته ليكون طوع إرادته الصلبة التي لاتلين .

طرق الثروة

على ساحل البحر المتوسط من مراكش أقيمت أيضاً مراكز تجارية بونية . فهناك في حماية الحرف الممتد من رأس الشُعَب الثلاثة وغير بعيد عن مصب نهر المولوية قامت روستادير (مليلة) ثم إيمسا وسيدي عبد السلام البحّار وتامودا (قرب تطوان) وطنجة .

وعلى الرغم من الوجود القرطاجي المتبدي على هذه الصورة على طول الساحل الأفريقي فإنه لايبدو أن السبب الأساسي لهذا الوجود كان يسمح بإنشاء علاقات تجارية مع الشعوب المجاورة لهذه المناطق . حقاً كان يوجد مثل هذه الصلات ولكنها لم تكن تستطيع أن تبلغ مستوى تجارة مجزية. فالوطنيون (السكان

المحليون) لم يكن لديهم إلا القليل من البضائع ليبادلوا بها المنتجات المصنوعة التي يعرضها القرطاجيون. ومن جهة أخرى فإن العائلات كانت تستطيع أن تحيك ثيابها بنفسها من الصوف كما أن الحرفيين كانوا يصنعون الأدوات البدائية التي كانت تستخدم في أعمال الزراعة فلم يكن ضرورياً لهؤلاء السكان أن يسعوا وراء الإنتاج الأجنبي . ومع ذلك ينبغي أن نستثني الأدوات المترفة من مجوهرات وعطور وخزف دقيق ومصنوعات زجاجية وأقمشة ثمينة وأسلحة كان بإمكان الرؤساء المترفين أن يزودوا أنفسهم بها من المراكز التجارية الساحلية وكذلك شأن النوميديين والمور الذين كانوا جنوداً قدماء في جيوش قرطاجة فاقتبسوا منها شكلاً من أشكال الحضارة تمسكوا به واعتادوا عليه .

والحقيقة ـ كما ألمعنا إلى ذلك مرات عديدة ـ إن إقامة هذه « المراسي ـ المحطات » البونية يفسَّر قبل كل شيء بأنها كان محطات في طريق مناطق غنية بالمعادن الثمينة . ولاينبغي أن يغيب عن نظرنا أن رخاء قرطاجة إنما اعتمد بالدرجة الأولى على استيراد معادن الحديد والنحاس والرصاص والقصدير والفضة والذهب ، وبفضل التجارة غدت الدولة البونية في بعض العصور أغنى دولة في حوض المتوسط الغربي . فقد كتب بليني القديم في وصف نوع من الأحجار الكريمة اسمه الإسكاربوكل : « وسموه أيضاً القرطاجي بسبب ثروة قرطاجة الكبرى » (XXXVII- 25 ,1) .

وكنا رأينا أن تجارة المعادن هذه هي التي كانت في أساس نهضة صور الهامة كما كانت أساساً في نهضة غيرها من المدن الفينيقية . وقد قارن بعضهم هذه الثروات بالثروات التي جلبها الفاتحون الإسبان من أمريكا وأغنوا بلادهم بها، ولكن هذا الإلدورادو* الذي ذهب أوريلانا والمغامرون الإسبان يبحثون عنه في بلاد الأمازون كان الفينيقيون وخلفاؤهم قد اكتشفوه قبل ذلك في إسبانيا نفسها . فإلى هنا في الواقع إلى البلاد طرطسوس في الوادي الكبير كانت « مراكب

---

* منجم ذهب خرافي قيل عن وجوده في امريكا وسعى المغامرون عبثاً في البحث عنه ثم غدت كلمة إلدورادو مرادفة للنعيم ـ المترجم ـ

ترشيش » تأتي بدون شك لتملأ أنبارها من معدن الفضة المستخرجة من عروق سييرامورينا قبل أن تعود أدراجها نحو مرافيء ساحل سورية وفلسطين ، وهنا أيضاً أنشئت قادس في وقت لم تكن فيه قرطاجة قد وُلدت بعد كما خلق الفينيقيون منشآت أخرى على الساحل الجنوبي من إسبانيا (راجع في ذلك ماسبق ذكره في هذا الكتاب) .

وكانت التجارة مجزية لدرجة أن القرطاجيين الذين خلفوا صيدا وصور اجتهدوا في المحافظة على احتكار الثروات المعدنية لمنطقة كان أول من أفاد من ثرواتها إغريق فوسيا* . وهكذا أُغلق مضيق جبل طارق . وفي عام ٤٧٠ قبل الميلاد كتب الشاعر الإغريقي بندار ملاحظاً :

« ليست مهمة سهلة أن ينفذ المرء إلى بحر لم يبلغه أحد ويمتد وراء أعمدة هرقل التي شادها هذا البطل ليعين حد رحلته الأبعد» Neméennes III,20) (21 - . بل ويبدو أن القرطاجيين من أجل أن يحسنوا مراقبة هذا المضيق ذي الأهمية الرئيسية لتجارتهم في إسبانيا وعلى سواحل الأطلنطي فإنهم أنشؤوا قاعدة بحرية في خليج الجزيرة حيث كانت تقع مدينة Cartéa القديمة (Strabon III 7 ,1,) . وإلى الشرق من ذلك شادوا كذلك مستوطنات ملقة وسيكسي وأبديرا وباريا (فيلاّ ريكو) (٧٠) .

ومع ذلك فلاشيء يسمح بالتأكيد على أن الليبيين - الفينيقيين كما ألمح إلى ذلك المؤلفون القدماء ـ تجاوزوا منذ القرن الثالث الشريط الساحلي الذي كانوا يحتلونه ونفذوا بعمق إلى داخل البلاد .

لقد وجب ذلك بالفعل على حملقرت برقة من أجل أن يقيم في إسبانيا إمبراطورية حقيقية . ففي إحدى الروايات الشفهية (٧١) أن هذه العائلة الشهيرة أرادت أن تخلق لنفسها « إقطاعية برقاوية» قوية لتتمكن من فرض سياستها الانتقامية بعد أن قامت روما بضم صقلية وسردينيا وكورسيكة إليها في ظروف نعرفها . ومهما كانت أسبابه الحقيقية فإن حملقرت أطلق «ثورة » في سياسة

---

* فوسيا Phocée إحدى المدن الايونية في آسيا الصغرى ـ المترجم ـ

بلاده . وفي أقل من عشر سنوات ، أي بين عامي ٢٣٧ ـ ٢٢٨ توجت مشاريعه بالنجاح وبلغت قمتها بإنشاء أكرالوكي (حيث ستقوم أليكانتي) . وعندما اختفى فجأة أثناء حصار هيليكي (إيلش) كان يترك لصهره أرضاً تضم كل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة . وقوّى هازدروبال (عزر بعل) هذه السياسة . ففي موقع ماستيا القديمة وفي منطقة غنية جداً بمناجم الفضة (راجع Strabon III, 2,10) أنشأ الزعيم البرقاوي أكبر مدينة بونية في إسبانيا هي قرطاجنة « قرطاجة الجديدة » (Cartago Nova) . وفي عام ٢٢١ اغتيل هازدروبال (عزر بعل) وخلفه هانيبال (حن بعل) بن حملقرت الذي كان له من العمر ست وعشرون عاماً يومذاك فكثّف حركة الفتح التي أوصلته حتى نهر تاجة . والحقيقة أنه باستثناء الأندلس الحالية ومقاطعتي مرسية وبلنسية فإن السيطرة البونية كانت لاتزال ضعيفة في بقية المناطق أمام شعوب سلتية محاربة غير لينة القياد . ومع ذلك ، وبدون أن ينتظر أكثر من ذلك فإن القائد الشهير المهيب قام عام ٢١٩ بمحاصرة ساغونتي واحتلالها واجتاز نهر الإيبر (٧٢) وبدأ مسيرته الطويلة إلى روما .

ولم تسلم إسبانيا الجنوبية إلى قرطاجة مواردها وحدها وإنما سمحت كذلك لليبيين فينيقيين بالهجرة إليها للمغامرة فيها والسعي وراء الثروة والحظ . وكان أرسطو قد نوه بالمنافع التي تقدمها « المدن التابعة » لإغناء المواطنين القرطاجيين الذين كانت حالتهم الاجتماعية والمالية سيئة . ومن جهة فإن إسبانيا المفتوحة على المحيط الأطلسي المحمي إلى أبعد الحدود من كل غزو خارجي كانت تشكل بفضل مرافئها من أمثال قادس قاعدة ممتازة للانطلاق في حملات بعيدة في السعي دائماً وراء المعادن الثمينة .

كان الملاحون البونيون بدون شك أول بحارة البحر المتوسط الذين وصلوا إلى بعض الشواطىء البعيدة وعقدوا معها صلات تجارية. وواقع أن هذه المناطق كانت تقع خارج الطرق البحرية المطروقة وأن سكانها المحليين لم يكونوا معتادين على بيع منتجاتهم يفسر لماذا تأخر القرطاجيون في صك النقود . والعملة التي صكت لأول مرة عام ٤٠٤ لم تصك في العاصمة إنما صكت في صقلية . ولاشك أنهم

كانوا يستعملون نقوداً أجنبية عندما كانوا يتعاملون مع الشعوب التي كانت معتادة على استعمالها أو أنهم استعملوا سبائك على شكل قضبان ذات أوزان مختلفة، أما في تعاملهم مع البلاد المتخلفة فإن القرطاجيين لجؤوا إلى عادات المقايضة القديمة . وقد روى لنا هيرودوت طريقة المقايضة الصامتة على الشكل التالي : « يروي القرطاجيون أيضاً مايلي : يوجد وراء أعمدة هرقل بلاد من ليبيا يسكنها أناس كان القرطاجيون يذهبون إليهم فينزلون بضائعهم ويعرضونها في نظام بديع على طرف الشاطىء ثم يعودون إلى مراكبهم ويثيرون دخاناً للفت نظر السكان المحليين . وعندما يرى هؤلاء الدخان يقتربون من البحر ويضعون إلى جانب البضائع ذهباً يقدمونه بديلاً عنها ثم ينسحبون . وعند ذلك ينزل القرطاجيون إلى الأرض ويفحصون ماتركوه فإذا اعتبروا كمية الذهب تفي بقيمة البضائع حملوها وأبحروا ، وأما إذا لم تكن كذلك عادوا إلى مراكبهم وانتظروا . فيعود الوطنيون ويزيدون في كمية الذهب حتى يرضى القرطاجيون ، ولايقوم أي من الطرفين من جانبه بأي خطأ ، فالأولون لايمسون الذهب إلا إذا بدت لهم كميته تتناسب مع بضائعهم والآخرون لايمسون البضائع إلا بعد أن يأخذ القرطاجيون الذهب المدفوع » (٧٣) .

هذه الصفحة من هيرودوت لها متعتها الخاصة . ففي مقابل المعادن الثمينة نرى سماسرة التجارة القادمين من قرطاجة يعرضون بضائعهم المؤلفة من سلع أنتجتها الصناعة البونية وأخرى قادمة بدون شك من اليونان وإيطاليا أو من الشرق يروج لها تجار قرطاجيون ويجنون من ورائها رسوم سمسرة عالية . وهكذا فإن القرطاجيين المستفيدين من التقدم التقني النسبي امتلكوا أسواقاً كانوا يستطيعون أن يعرضوا فيها في الوقت نفسه منتجاتهم الخاصة ويحصلوا بأسعار رخيصة على المعادن التي جعلتهم أثرياء ، ومثل هذا النظام يشبه تماماً التجارة مع العالم الثالث التي سمحت في أيامنا للدول الصناعية أن تسارع تطورها .

فأين تقع على وجه الدقة هذه الأسواق الثمينة التي ذكر المؤرخ الإغريقي بكل بساطة أنها كانت توجد وراء أعمدة هرقل ؟ . إن رحلات الملاحين البونيين لا نعرف عنها إلا القليل والنصوص النادرة التي أشارت إليها غامضة وصعبة

التفسير . ومن الطبيعي ألا يلجأ المكتشفون والتجار القرطاجيون للكشف عن طرقهم البحرية بل أنهم كانوا على العكس من ذلك يجتهدون في التستر على هذه الطرق ناشرين قصصاً أسطورية يذكرون فيها مجازات مليئة بالأخطار تقودهم إلى آفاق تبدو وكأنها أراض صنعها الخيال .

ولكن الأسطورة لم تكن تشمل كل شيء . فنحن نعرف أن الملاحة التجارية البونية بلغت منطقتين كانتا قد اكتشفتا عن طريق «رحلات بحرية Périples » ، وهذا التعبير يعني هنا اكتشافات بحرية تم تنظيمها لحساب الدولة في النصف الثاني من القرن الخامس وأصبحت أخبارها شائعة بين الناس جزئياً على الأقل وربما بعد اتخاذ « الترتيبات » لما ينبغي أن ينشر منها . وقد أخبرنا كتاب كلاسيكيون عن بعض اتجاهات هذه الرحلات التي كانت تمهد الطريق للخطوط التجارية .

منها أن القرطاجي هاميلكون نظم عملية أكتشاف مصعد على طول الساحل شبه الجزيرة الايبرية في مغامرة نحو الشمال وربما كان يتخذ في ذلك طريقاً قديماً تم فتحه على يد بحارة طرطسوس. وقد خصص الشاعر اللاتيني فستوس أفييوس مقطعاً في قصائده المسماة «Ora maritima» لرحلة هاميلكون البحرية تلك . وبعد أربعة أشهر من مغادرته قادس وبعد ملاحة وصفت بأنها صعبة للغاية صادف فيها حقولاً من الأشنيات « أمسكت بالمركب كأنها سياج » وأعماقاً سحيقة وضباباً لايمكن اختراقه ووحوشاً بحرية شديدة الخطر وصل البحارة إلى بلاد الأوستريميند التي وصفت جزرها بأنها « غنية بالقصدير والرصاص » . ولقد كانت مسالة المتاجرة مع « القصديريين Cassitérides » ـ كلمة kassitéros الإغريقية تعني القصدير ـ موضوع نقاش ووضعت فرضيات عديدة حاولت كل منها بدورها أن تحدد جزر القصدير هذه بأنها الجزر الصغيرة المنتشرة على طول الساحل الشمالي الغربي من إسبانيا بين فيغو ورأس فينيستير ، أو أنها أبعد من ذلك إلى الشمال بحيث تقع في المياه البريطانية وتنطبق على أرخبيل سورلنغ (جزر سيلي) أمام رأس Land`s End ، أو أنها الأرموريك الواقعة في خليج سده الطمي اليوم ويقع أمام مصب نهر اللوار. على أن

المشكلة يمكن طرحها بطريقة أخرى . فالواقع أنهم عندما كانوا يتحدثون عن القصديريين فربما كان بالأحرى ألا نربط هذا الاسم بمكان جغرافي معين لأن القدماء ربما كانوا يقصدون المراكز المختلفة المعروفة بأنها أسواق للقصدير ، أسواق كانت مستودعات لهذا المعدن ولاتقع بالضرورة في أمكنة مناجمه المعدنية نفسها (٧٤) .

ومن أجل أن يحفظوا لبلدهم احتكار التجارة مع جزر القصديريين حرص القرطاجيون على أن يحتفظوا بسر الطرق التي تقود إليها . وعندما تمكن الرومان بعد الحرب البونية الثانية من الخروج من البحر الداخلي الذي كانوا حتى ذلك الوقت محاصرين فيه حاولوا أن يستولوا على هذه التجارة . ولكن قرطاجة التي انتزعت منها إسبانيا وكافة جزر البحر المتوسط استبسلت بفضل شجاعة بحارتها ومهارتهم ومعرفتهم الكاملة بتلك المناطق البحرية في أن تحتفظ بتلك النتف المبعثرة من عظمتها القديمة . وإليكم طرفة رواها سترابون توضح جيداً كيف جرت معركة المؤخرة هذه للمحافظة على الإرث القديم :

« يملك هؤلاء الجزريون (من القصديريين) الذين هم في الأغلب بداة مناجم من القصدير والرصاص يبادلون بمنتجاتها بالإضافة إلى جلود مواشيهم الخزفيات والملح ومصنوعات من البرونز يحملها التجار. وكان الفينيقيون وحدهم في الماضي هم من يرسلون لهذه التجارة مراكب تنطلق من قادس وتحافظ على سرية طريقها محافظة كاملة. وحدث في أحد الأيام أن بحارة رومانيين لحقوا بواحد من قباطنتهم ليعرفوا بدورهم موقع هذه الوكالات التجارية ولكن هذا القبطان كان غيوراً على المحافظة على السر فأضلّ مركبه عن قصد وجنح به فوق مكان قليل العمق ليجذب خلفه متابعيه ويلحق بهم مالحق بمركبه من أضرار . وقد تمكن هو مع ذلك بأن ينجو بنفسه سالماً من الغرق وعُوضت عليه حمولة مركبه من الخزينة العامة » (III ,5,11) .

طرق للفضة وطرق للقصدير وطرق للذهب أيضاً وذلك بالاتجاه نحو الجنوب على طول السواحل الأطلسية من القارة الأفريقية التي قاد البحارة في هذه المرة مراكبهم إليها . وقد سميت هذه البعثة باسم الرجل الذي قادها فأطلق

عليها « رحلة حنّون البحرية الكبرى » وورد ذكرها في نقش كان يزين معبد عتون (المطابق للإله الإغريقي كرونوس) في قرطاجة . وإذا كان الأصل المكتوب باللغة البونية لم يصل إلينا فإننا نملك منه على الأقل ترجمة إغريقية تبدأ على النحو التالي : (٧٥) .

« قصة رحلة ملك القرطاجيين حنّون حول المقاطعات التي تقع وراء أعمدة هرقل وقد نُقشت على لوحات معلقة في معبد كرونوس » .

وتعد هذه القصة بين أكثر النصوص القديمة إثارة للفضول والمذكرات التاريخية التي تناولتها كانت عديدة على مافيها من تناقضات . والفجوات الموجودة في هذه الوثيقة ـ لأن الترجمة الإغريقية لم توصل إلينا إلا جزءاً من الأصل ـ والمشاكل التي يطرحها تطابق أسماء الأماكن تجعل في الواقع كل محاولة للتفسير والتأويل لاتخرج عن نطاق الافتراض (٧٦) . وعند قراءتنا لهذه الرحلة البحرية البعيدة المدى «Périple» يمكننا أن نرى الغاية المزدوجة التي كانت تهدف إليها :

« قرر القرطاجيون أن يقوم حنّون بتجاوز أعمدة هرقل وأن ينشيء مدناً قرطاجية. فأبحر بستين مركباً من ذوات الخمسين مجذفاً حاملاً معه حوالي ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء وأطعمة وكل مايلزم . وبعد أن اجتاز أعمدة هرقل وأبحر بعدها يومين انشأنا أول مدينة أطلقنا عليها اسم ثيمياتيريون وكان يحيط بها سهل كبير . بعد ذلك اتجهنا نحو الغرب ووصلنا إلى Soloeis التي هي شناخ جبلي ليبي داخل في البحر ومغطى بالأشجار ، وبعد أن أقمنا فيها معبداً لبوسيدون استأنفنا إبحارنا باتجاه الشمس الشارقة لمدة نصف يوم وصلنا بعده إلى بحيرة ساحلية غير بعيدة عن البحر مغطاة بقصب غزير مرتفع . وكان يمر هنا أعداد كبيرة من الفيلة والحيوانات الأخرى . وبعد أن تجاوزنا هذه البحيرة وأبحرنا يوماً كاملاً أنشأنا على البحر مستوطنات تحمل أسماء : جدار كاريان ، جيتي ، أكرا ، ميليتا ، أرامبيس .

ولما غادرنا هذا المكان وصلنا إلى النهر الكبير ليكسوس الذي يأتي من ليبيا والذي يرعى على ضفافه الليكسيون البداة قطعانهم . وقد بقينا بضعة أيام

عند هؤلاء القوم الذين أصبحنا أصدقاء لهم والذين كان يعيش فوقهم الأثيوبيون غير المضيافين القاطنون في أرض مليئة بالحيوانات المفترسة وتجتازها جبال عظيمة هي التي يخرج منها ليكسوس . ويقال أيضاً إنه كان يعيش حول هذه الجبال أناس لهم مظهر خاص هم التروغلوديون الذين يدّعي الليكسيون أنهم أسرع في الجري من الجياد. وبعد أن استوضحنا الليكسيين حاذينا الصحراء في اتجاه الجنوب لمدة يومين ثم في اتجاه الشمس المشرقة مدة يوم فوجدنا عندئذ في عمق أحد الخلجان جزيرة صغيرة محيطها مرحلتان اسميناها سيرنه وتركنا فيها أعمدة ، وقد حكمنا من رحلتنا أنها كانت تقع قبالة قرطاجة لأنه كان يلزم الإبحار نفسه للذهاب من قرطاجة إلى الأعمدة ومن الأعمدة إلى سيرنه . » .

مما رأيناه نلاحظ أن الجزء الأول من الرحلة كان هدفه قيادة مهاجرين إلى ساحل مراكش وساقية الذهب حيث كانت مستوطنات بونية قد أنشئت فيها من قبل. وهذه المستوطنات السبع التي كان الأمر يتعلق بإنشائها أو بدعمها بجلب عائلات جديدة بكل بساطة إليها كانت تمتد على الساحل المراكشي انطلاقاً من وادي لوكّوس الحالي (الذي هو ليكسوس الرحلة البحرية) والذي يقع مباشرة بعد طنجة . ومن خلال أسماء الأمكنة الواردة في النص حاولنا أن نتعرف على مواقع مختلف المراكز الحديثة من أمثال لاراش ، الجديدة (مرسى مازاغان) ، صافي ، وكان عملنا مجرد تخمين ورجم في الغيب . وفي مقابل ذلك بدا مستقيماً أن تكون جزيرة سيرنه تنطبق على تلك التي تقع في خليج ساقية الذهب محمية بالشناخ الجبلي الطويل الذي بنيت عليه فيلا سيسنيروس (دخلة) والتي كانت الخرائط الملاحية القديمة تطلق عليها اسم «جزيرة هيرن » . وهناك ألقى حنّون مراسيه على بعد ألف وثمانمائة كيلومتر إلى الجنوب من قادس يصحبه تراجمة من الليكسيين . على أن أمير البحر القرطاجي لم يكن أبحر مجازفة إذ من الواضح أنه كان يعرف منذ انطلاقه أين ينبغي على مراكبه أن تتوقف وفي أية محطات . وفي سيرنه ـ حيث كان قد أنشيء مركز تجاري قبل ذلك بدون شك ـ ترك آخر الأعمدة التي كلف بإيصالها إليها .

كانت هذه القاعدة المرشوقة في طرف العالم البوني تشكل على هذا الساحل

مكاناً ممتازاً للقيام باتصالات مع مستخرجي الذهب من السود، فالمعدن الثمين كان يوجد في الواقع ليس في وادي النيجر وحده وإنما في الغرب أيضاً على نهر السنغال وفي مثلث الباموك (٧٧) . وكانت جزيرة سيرنه تقع عند المنفذ الطبيعي للذهب الغيني . وعندما دُعمت هذه المنشأة كان الغرض الأول من هذه البعثة قد تم تنفيذه علماً بأننا سنلاحظ أن الوثيقة تصمت عن الباعث التجاري الذي كان وراء إنشاء مستوطنة سيرنه هذه . بعد ذلك مضى حنّون في رحلة اكتشافية غرضها بدون شك أن يهيىء لخلق مراكز تجارية في السودان بحيث تكون أقرب إلى أماكن الإنتاج ، وهكذا تستمر الرحلة على الشكل التالي :

« ومن هناك (أي من سيرنه) مررنا بنهر كبير هو نهر كريتيس Chrétès ووصلنا إلى بحيرة تضم ثلاث جزر أكبر من جزيرة سيرنه. وبعد أن غادرنا هذه الجزر قضينا يوماً في إبحارنا وصلنا بعده إلى أعماق بحيرة تشرف عليها جبال عظيمة مليئة بأناس متوحشين يرتدون جلود الحيوانات أخذوا يرموننا بالحجارة ويمنعوننا من مغادرة مراكبنا ومن هناك دخلنا في نهر آخر عظيم وعريض مليء بالتماسيح وأفراس النهر، ثم نكصنا على أعقابنا وعدنا إلى سيرنه».

وبما أن هذا الاستكشاف حتى ذراعي نهر السنغال (كريتس) لم يعط النتائج المرجوة فإن حنّون الذي عاد إلى قاعدة ارتباطه المتقدمة قرر متابعة الإبحار إلى أبعد من ذلك . وبعد الرأس الأخضر (وهو خاصرة الجبل المرتفع الغابية التي تحدث عنها النص) والمنطقة الساحلية التي تشرف عليها القمة البركانية لجبل كاكوليما وصل رجال البعثة البونيون إلى خليج بينان Bénin (قرن الغرب) ، وعندما لاحظوا من هناك على البعد كتلة جبل الكاميرون الضخمة (مركبة الآلهة) وصلوا أخيراً إلى (قرن الجنوب) الذي ربما ينطبق على خليج بيافرا . وقد جرى كل هذا القسم الأخير من الرحلة في جو بالغ الغرابة تختلط فيه الروعة مع الخيال . وفي سلسلة من اللقطات المختصرة يصور لنا المؤلف أحداث الرحلة المفاجئة بحيث أن رحلة القرطاجي حنّون غدت تشبه هنا قصص مكتشفينا الاستعماريين الذين قاموا بكشوفهم في القرن الماضي وبقصص أخرى أقرب إلينا تروي لنا مغامراتهم في أفريقيا « المتوحشين » :

« أبحرنا من هناك (أي من سيرته) نحو الجنوب مدة اثني عشر يوماً محاذين الساحل الذي يحتله كله أثيوبيون كانوا يفرون عند اقترابنا . وكانوا يتكلمون لغة غير مفهومة حتى لليكسيين الذين كانوا معنا . وفي اليوم الأخير حاذينا جبالاً مرتفعة مغطاة بالأشجار التي تفوح من أخشابها رائحة عطرة وتتلون بألوان مختلفة . وبعد أن التففنا حول هذه الجبال خلال يومين وصلنا إلى خليج واسع كان يوجد على جانبه الآخر سهل رأينا نيراناً تتصاعد منه أثناء الليل في كل الجهات تتخللها فواصل زمنية وكانت كثيفة بعض الشيء . وبعد أن أخذنا مؤونتنا من المياه تابعنا إبحارنا على طول اليابسة لمدة خمسة أيام وصلنا في نهايتها إلى خليج كبير ذكر لنا المترجمون أنه يسمى « قرن الغرب» . وكانت توجد في هذا الخليج جزيرة كبيرة وفي هذه الجزيرة بحيرة مستنقعية تضم بدورها جزيرة أخرى . وعندما نزلنا لم نشاهد في النهار إلا الغابة ، وأما في الليل فقد ظهرت لنا نيران وسمعنا أصوات مزامير وضجيج صنوج وطبول وضوضاء عالية جداً فأخذنا الخوف وأمرنا العرافون بمغادرة الجزيرة .

مضينا إذن بسرعة عن هذا المكان وحاذينا بلاداً ملتهبة مليئة بالروائح العطرة . كانت تخرج منها جداول من اللهب لتصب في البحر، وكان من الصعب علينا النزول على اليابسة بسبب الحرارة فأخذنا الخوف وابتعدنا بسرعة. وفي خلال أربعة أيام من الإبحار كنا نرى اليابسة أثناء الليل مغطاة باللهب . وفي الوسط كانت نار مرتفعة أكبر من النيران الأخرى حتى لتكاد تبلغ النجوم، أما في النهار فكنا نستبين جبلاً كبيراً اسمه «مركبة الآلهة» . وانطلاقاً من ذلك حاذينا لثلاثة أيام ألسنة من النيران حتى وصلنا إلى خليج اسمه «قرن الجنوب» كانت توجد في أعماقه جزيرة شبيهة بالأولى وتضم بحيرة في داخلها جزيرة أخرى ملأى بأناس متوحشين كانت نساؤهم أكثر بكثير من رجالهم وكانت أجسادهن مكسوة بالشعر وسمّاهم المترجمون بالغوريلات . ولاحقنا الذكور دون أن نتمكن من الإمساك بأي واحد منهم لأنهم كانوا يحسنون التسلق على الأشجار كما يحسنون الدفاع عن أنفسهم . ولكننا استولينا على ثلاث إناث كن يعضضن ويخمشن أولئك الذين كانوا يقودونهن ولايردن اتباعهم فقتلناهن ونزعنا جلودهن

وأخذناها إلى قرطاجة لأننا لم نبحر إلى أبعد من ذلك لنفاذ الأقوات » .

فنحن بعيدون جداً هنا عن العاصمة القوية التي خرج منها القاضي القرطاجي حنّون ومعه ثلاثون ألفاً من الليبيين ـ الفينيقيين في هجرة إلى شواطيء الأطلسي. وبوصول هؤلاء الرحالة البونيين إلى هذا الطرف من العالم ، وعلى الرغم من أن القرطاجيين لم ينشئوا مراكز تجارية جديدة فيما وراء سيرته التي تبعد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر عن العاصمة ، نستطيع أن نقدّر تقديراً جيداً تلك السيادة البحرية التي ألمع المؤرخون القدماء إلى سعتها وامتدادها وقد لاحظ بوليب (I,1,10) في عرضه للحالة عشية الحرب الأولى التي وضعت روما في مواجهة منافستها الأفريقية أن الرومانيين أمام التوسع الكبير للسيطرة البونية وبخاصة في البحر المتوسط كانوا يخشون هؤلاء الجيران الخطرين المستقرين على الساحل الأفريقي وفوق قسم مهم من إسبانيا والذين هم أيضاً أسياد كل الجزر في بحر سردينيا والبحر التيراني الا يأتوا فيحيقوا بهم ويهددوا مباشرة كل أجزاء إيطاليا . أما أبيان فقد ذهب إلى حد مقارنة السيادة القرطاجية بأشهر من عرفهم التاريخ القديم : « كان القرطاجيون قد فرضوا أنفسهم أسياداً على ليبيا (إفريقيا) ثم مدوا سيطرتهم أيضاً بعيداً على البحر وحملوا أسلحتهم إلى صقلية وسردينيا وجزائر هذا البحر الأخرى وإسبانيا وأرسلوا مستوطناتهم إلى كل الجهات وساووا الإغريق بقوتهم والفرس بما امتلكوه من ثروات » . (Libyca 2) .

الآلــهـــة

« إلى الربة تانيت وجه بعل وإلى الرب بعل

حمّون * »

إذا كان قد صعب علينا أن نتصدى لموضوع المؤسسات السياسية في قرطاجة فإن المسعى سيكون أكثر مجازفة أيضاً عندما نحاول أن نتبين المجالات المختلفة للعالم الديني الخاص بالسكان البونيين . والواقع أن المشكلة تعود مرة أخرى وبشكل أساسي للمصادر نفسها التي هي على الرغم من تنوعها وأهميتها لاتحمل إلينا في الحقيقة إلا تلميحات شتات ومحدودة يبقى تفسيرها في حدود الفرضيات .

في المكان الأول نجد ندرة بالغة في المعابد البونية التي لم يمكن إلا لبعضها أن تكون آثاره قابلة للدراسة وهي اثنا عشر معبداً منتشرة في العالم القرطاجي المتوسطي . يضاف إلى ذلك أنها من حيث الزمان والأسلوب متباعدة بحيث يصعب أن نكون عنها نظرة موحدة متماسكة تنبئنا بماكان عليه فن البناء الديني .

أما بالنسبة لفن النقش فينبغي أن نشير إلى بعض النقوش المتعلقة ببناء المعابد وترميمها وإلى الآلاف من النذور التي قدمت على شرف الآلهة الكبرى. ولنذكر هنا فائدة الأسماء التي فيها علاقة انتماء للآلهة Théophores والتي تدل بحسب قواعد التسميات السامية على علاقات انتماء أو قرابة أو وصاية قائمة بين الآلهة والناس من أمثال : عبد إشمون وعبد ملقرت (الذي حولناه إلى هاميلكار)، وأمَةُ بعل (أي عبدة الإلهة) ، وهيميلك (أخو ميلك أو أخو الملك) ، وهوتالأت (أخت اللات أو أخت الإلهة) ، وهانيبال = حن بعل (من يحنو عليه بعل) ، وهازدروبال= عزر بعل (المدعوم ببعل) ، وإشمون هاتّو (الذي يحنّ عليه أشمون)، وإشمون أماس (الذي حمله إشمون) .

---

* لعَلَّ حمّون هو بعل الجبل الأقرع .

تأتي بعد ذلك المصادر الأدبية الكلاسيكية (اليونانية - الرومانية) التي توجد فيها إشارات عن مجمع الآلهة البونية . ومع ذلك فإن المؤلفين الإغريق واللاتين لم يكونوا يستطيعون أن يتحدثوا إلا بسطحية عن ديانة لم يكونوا يعرفون عنها إلا بعضاً من مظاهرها الخارجية والتي كانت غريبة عليهم كل الغرابة في أصولها وفي تطورها . يضاف إلى ذلك أنهم عندما كانوا يتحدثون عن آلهة قرطاجة اعتادوا أن يطلقوا عليها أسماء كانت مألوفة في دياناتهم الخاصة بهم . ويتبع ذلك أن آلهة قرطاجة - بحجة ترجمة أسمائها الإغريقية أو اللاتينية - غدت مشابهة لآلهة الأوليمب أو الآلهة الرومانية وهو تصرف لايخلو أحياناً من تعسف كبير . وهكذا طابقوا بعل حمون مع كرونوس - ساتورن بسبب أن الآله القرطاجي كان يُمجَّد بتضحيات طقسية يقدم فيها الأطفال وأن الإله الإغريقي التهم ذريته بنفسه كما تروي الأساطير (Diodore , XX, 14,7) .

ومع ذلك يجب الاعتراف أن القرطاجيين في بعض الحالات كانوا قد أشرفوا بأنفسهم على هذه « الترجمة » كما هو الحال في أمر القسم الشهير الذي ختم هانيبال (حن بعل) معاهدة التحالف مع كزينوفانس سفير فيليب الخامس ملك مقدونيا عام ٢١٥ . فالآلهة الذين ذُكروا في هذه المناسبة باسم الدولة القرطاجية كانوا كلهم بونيين بطبيعة الحال والوثيقة الدبلوماسية ترجمت إلى الإغريقية على يد مترجمين قرطاجيين يعرفون جيداً آلهتهم الذين ذكروا في هذا النص الأصيل وقد تم تعيينهم من أجل أن يطابقوا بين هؤلاء الآلهة وبين آلهة البانتيون الإغريقي ، وإليكم عبارات هذا القسم :

« أمام زيوس وهيرا وأبولون ، أمام جني القرطاجيين وهيراكليس ويولاوس. أمام أريس وتريتون وبوسيدون . أمام الآلهة التي ترافق الجيش في الحرب إضافة إلى الشمس والقمر والأرض . أمام الأنهار والبحيرات والمياه . أمام كل الآلهة التي تحمي قرطاجة (...) قال هانيبال (حن بعل) القائد الأعلى كلمته وكذلك قال كلمتهم كل شيوخ قرطاجة وكل القرطاجيين الذين يخدمون معه (...) » . (Polybe, VII,3,9)

هذه الوثيقة تطرح مشاكل عديدة ، ومن أجل أن نقترح تاويلاً (٧٨) لابد من أن نلجأ إلى التخمين . ففي حالة « الثلاثي» الأول زيوس وهيرا وأبولون يمكن أن يقرنوا ببعل شمين ـ رب السموات (Dominus caeli) كما يسميه القديس أغسطين ـ وتانيت (سيدة قرطاجة الكبرى) ورشف «المنير» سيد النار والصاعقة.

وإذا كان من الواجب أن نكون منتبهين حقاً إلى لعبة « التوازنات » هذه في النصوص الأدبية الكلاسيكية فلنلاحظ أن أسماء الآلهة الإغريقية أو الرومانية هذه ليست بالضرورة استبدالات للدلالة على آلهة العالم الفينيقي ـ البوني الأصلية ، فهذا العالم ينفتح في الواقع على بعض الألوهيات الغربية فباحتكاكهم في الوقت نفسه بمصر وأفريقيا وإتروريا واليونان الكبرى ـ وبخاصة صقلية التي يبدو أنها لعبت دور أرض الواسطة والتجربة بالنسبة للآلهة ـ لم يكن القرطاجيون يستطيعون الا يتأثروا بهذا الجوار وألا يحاولوا هم أيضاً أن يجتذبوا عناية القوى السماوية أو الشيطانية ذات الشهرة العالية .

إن أسطورة إيزيس وأوزيريس تدل على قدم العلاقات الدينية القائمة بين مصر وفينيقية (راجع ماسلف) . وفي قرطاجة نفسها استخرجت من المقابر جعرانات عديدة تمثل الآلهة المصرية كانت تستخدم كطلاسم (٧٩) . كذلك يلاحظ بين التعاويذ وجود عناصر ترتبط بفولكلور الدلتا الديني وبفولكلور وادي النيل (راجع ماسلف) . وتمثلت اليونان من جهتها وبصورة خاصة بالإلهتين كوري Koré (بيرسيفون) وديميتير. وقد تم تبني هذه العبارة رسمياً عام ٣٩٦ أثناء حصار سيراكوزة الذي أدى إلى فاجعة نجمت بدون شك عن تفشي وباء فتك بجيوش القائد هيميلكون . وبما أن معبداً لهاتين الإلهتين الإغريقيتين قد نُهب أمام أسوار المدينة المحاصرة فقد رأى القرطاجيون سبباً لشقائهم في غضب هاتين الإلهتين فقرروا إصلاح مادنسوه . كتب ديودور : «وبما أنهم لم يكونوا قد أدخلوا في طقوسهم حتى ذلك الوقت لا ديميتير ولا كوري فإنهم عينوا أشهر مواطنيهم ليكونوا كهنة لهاتين الإلهتين ونصبّوهم في المدينة باحتفال كبير » . (XIV,77,5)

على أنه إذا كان العالم البوني قد تطور بتاثير بعض الظروف التاريخية فإن

من المبالغ فيه التحدث هنا عن ثورة . وهكذا فإن واقع أن نُصب سالامبو التذكارية تظهر في أغلب الأحيان موضوعات كثيرة التكرار في فن التصوير الديني الإغريقي ـ كصولجان هرمز caducée * والباطيات ** cratéres ورموز باخوسية أخرى ـ هذا الواقع لايسمح لنا أبداً باستنتاج أنه حدث « هلينة » في المعتقدات والطقوس . والحقيقة أن هذه الشعارات المجردة تستمد أصولها الحقيقية من الإرث الديني الفينيقي ـ البوني، أما الآلهة الأجنبية النادرة التي حصلت على نصيب لها في المدينة فمن المحتمل جداً أنها خضعت هي نفسها « لتفسير بوني» Interprétation Punica ويقيت العبادة الشعبية على كل حال تجهلها كل الجهل . والحاصل أن الديانة القرطاجية كانت بعيدة عن أن « تستعمرها » آلهة آتية من الخارج بل كانت تبدو مجموعة معقدة حقاً ولكنها متماسكة .

وقد بقيت الآلهة الفينيقية تمجَّد في العالم البوني ، فعلى أكروبول بيرسا أقيم معبد عظيم على شرف إشمون ، وكثيرة كانت الأسماء القرطاجية التي تشهد بالحظوة الشعبية لهذا الإله الذي يتطابق مع إسكولاب . كذلك كان معزّزاً وشهيراً « سيد المدينة » ملقرت في الأسماء التي تنتمي إلى الآلهة وكان هرقل هو الشبيه الإغريقي لهذا الإله . وفي خلال العديد من القرون كان القرطاجيون يرسلون في كل عام سفارة تحمل القرابين والعطاءات إلى سيد صور العظيم ونُصبت المعابد لتمجيد اسمه مابين العاصمة حتى قادس وليكسوس .

وقد مثلت آلهة أخرى في مجمع الآلهة Panthéon البوني هذا ـ من أمثال عشتار ورشف Reshef وسيد Sid (الذي يشترك أحياناً مع تانيت أو ملقرت)(٨٠) وأريش وصفون ـ ولكن أي واحد منها لم يكن يعادل قط في المهابة السيدة تانيت والسيد بعل حمّون ، اللذين كان اسماهما يترددان بدون انقطاع في النقوش المحفورة على آلاف المسلات والنصب التذكارية (80 bis) الحجرية المكتشفة في قرطاجة وفي الأراضي البونية . وكما هو شأن الأعمدة نفسها فإن هذه المسلات

---

* هو صولجان تلتف عليه حيتان وفي أعلاه جناحان ويعد شعاراً لمهنة الطب ـ المترجم ـ

** الباطية إناء لمزج الخمر بالماء ذو عروتين كان يستعمله الإغريق والرومان ـ المترجم ـ

والنصب التذكارية في معظمها قد نصبت فوق جرار تضم رفات الضحايا المحروقة وتشكل نوعاً من المسكن للشخصية الإلهية التي أمسكت بها في هذا المكان المذبحةَ السامية التي تكون جدواها فعالة على الدوام .

وتضم هذه النقوش ـ تبعاً لأسلوب مكرر ـ تكريساً على شرف الشخصيتين الإلهيتين الكبيرتين واسم المكرِّس مع لقب عائلته وتشير أحياناً إلى مهنته وتنتهي غالباً بصيغة تبريك ، وإليكم مثلين أحدهما آت من هادروميت (السوس) والثاني من سالامبو : « إلى الربة تانيت وجهِ بعل وإلى الرب بعل حمّون ماندره بودميلكار بن زيركيش بن آشال لأنهما سمعا صوته فليباركاه » ،« إلى الربة تانيت وجهِ بعل وإلى السيد بعل حمّون ما نذرته أريشاتبعل ابنة كركين لأنه سمع صوتها وسيباركها » (٨١) .

ومن بين المعبودات المعروفة في العالم الفينيقي الشرقي لاتوجد أية واحدة تحمل اسم تانيت هذه التي يبدو أن عبادتها شُجعت على يد الماغونيين المتأخرين في مطلع القرن الرابع (٨٢) . ومع ذلك فإنه على عكس ماتطرحه بعض الفرضيات لايوجد أي سبب يسمح بإسناد أصل ليبي لربة قرطاجة ، وإذا كنا نجهل مكان ولادتها فإننا نعرف على الأقل أنها اضطلعت بالوظائف نفسها التي كانت لعشتار إلهة الخصب الكنعانية وأنها مساوية لهيرا التي كانت تلعب دوراً مشابهاً في إيطاليا الجنوبية كما أن الرومان طابقوها من جهة أخرى مع جونون ـ كايليستيس سيدة مستوطنة قرطاجة الايونية التي نظمها غايوس غراكوس . وأن تُمثَّل تانيت في بادىء الأمر على أنها الأم التي توزع الخصب ـ وهذا مانقرأه على نصب تذكاري من الحفرة الواقعة بالقرب من قسطنطينة : « إلى بعل وإلى تانيت وجهِ بعل وإلى ذريتهما » ـ يفسر بدون شكٍ الحظوةَ الواسعة التي تمتعت بها لدى كل الطبقات الاجتماعية في المدينة .

أما الرمز الشهير الذي يرمز إلى تانيت والذي ـ مع الوثن (معزولاً عن الثالوث أو مرفقاً به) ، ومع القرص الذي يعلوه هلال، ومع « الوثن القارورة » ـ يشكل أحد الموضوعات المكررة في الرسوم الدينية المرسومة على شواهد القبور والنصب التذكارية في قرطاجة (٨٣) فليس من المحتمل كثيراً أن له أية علاقة

خاصة بالإلهة . وهذا التشكيل الهندسي مؤلف من ثلاثة عناصر : شبه منحرف أو مثلث متساوي الساقين وقرص يفصله عنهما قضيب أفقي نهايتاه ينتهيان غالباً بساعدين منتصبين بطريقة عمودية . « والصورة ـ كما لاحظنا ـ تجعلنا في مجموعها نفكر بإمرأة ترتدي ثوباً طويلاً وترفع ذراعيها » (٨٤) . فهل يجب علينا أن نرى في هذا الشعار المخروطي ـ كما نرى في صور القرص والهلال ـ رموز عبادة شمسية؟ (٨٥) . أو أن ذلك هو بالأحرى مجرد رمز للوقاية من الأخطار والأمراض؟ . وفي هذه الحالة يمكننا أن نفهم أن القرطاجيين بسبب قيمة هذا الرمز الحامية الواقية من الأمراض إنما كرروه على عتبات بيوتهم (٨٦) ، ومع ذلك فإن المشكلة ستبقى معروضة للنقاش . والواقع أنه على الرغم من أنه استعمل هنا ـ كما يبدو ـ كطلسم سحري فلاشيء يمنع من القبول ـ في المنطق الرمزي الديني ـ بأن «رمز تانيت» كان رسماً رمزياً يعبر عن فكرة كانت تترجم المفهوم القرطاجي للشخصية الإلهية الرفيعة في علاقاتها مع العالم .

أما بعل حمّون فهو إله قرطاجة الأكبر، إنه الإله الرفيع المقام ، وبما أن القرطاجيين كانوا يتجنبون ـ مثلهم في ذلك مثل كل الساميين ـ الإشارة إلى الإله إيل باسمه مباشرة لأنه كان يتمتع بسلطة رهيبة فقد لجؤوا إلى تسميته بعل حمّون. والكلمة الأولى تنطبق مع كلمة « المعلم » أو «السيد» . أما الثانية التي يصعب تحديد جذورها فيمكن أن تدل على «مذبح العطر» (في العبرية التوارتية «حمّان») ، أو ربما تدل ـ وهذا أكثر احتمالاً ـ على « الحرارة » أو « الجمر » . فبعل حمّون يكون بذلك «سيد الجمر» (٨٧) . وهذا الجمر يمكن أن يشير إلى جمر حفرة الأضاحي التي كانت ترمى فيها الضحايا وفي الوقت نفسه إلى الشمس المتأججة التي وردت صورتها إلى جانب صورة الهلال في رمز القرص مما يؤكد أيضاً الصفة الفلكية الظاهرية لهذه الديانة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الفينيقيين كغيرهم من الشعوب السامية بما فيهم العبرانيون مالوا إلى نظرية لاهوتية تؤمن بوجود إله أعلى مع عدم رفضها لوجود آلهة أخرى أدنى مرتبة منه **hénothéiste** . على أن « آلهة » البانتيون الفينيقي ـ البوني كان يمكن أن تعتبر يومئذ كرموز أو انبثاقات أو تجليات لسيد

السموات وهي في ذلك شبيهة بالنومينا numina أو الأنديجيتامنتا في الديانة الرومانية . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفهم تسمية «تانيت وجه بعل» على أن تانيت هي انعكاس للإله . ويمكن لهذه الشخصيات الإلهية أيضاً أن يكون لها وجود خاص إذا أنقصت مكانتها إلى مرتبة الوزراء أو المساعدين التابعين للإله الأعلى ان لم نقل الإله الأوحد بحق .

على هذه الصورة يبدو لنا بعل حمّون في التمثيلات المصورة التي وصلت إلينا (٨٨) وبخاصة على النصب التذكاري الهام الذي يعود تاريخه إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد والذي اكتشف في نطاق معبدهادروميت البوني (السوس) (٨٩) . عابد أمرد ـ ربما كان كاهناً ـ يعتمر قلنسوة ينسدل رأسها إلى الخلف يقف ويده اليسرى لاصقة بجسده على طيات ثوبه السابغ ويرفع يده اليمنى مفتوحة إلى مستوى وجهه في حركة خضوع للإله الذي تغطي وجهه لحية طويلة ويعتمر تاجاً ذا شرائط ويجلس على عرش له مسند عال وعلى جانب كل من متكأيه تمثال لأبي الهول Sphinx ، وهو يمسك بيده اليسرى سنبلة قمح كبيرة يشبه ساقها سارية حربة ويرفع يده اليمنى وراحتها موجهة إلى العابد في حركة مباركة يتلقاها من السيد الأعلى دون الحاجة إلى أي قربان مصطنع .

مولك وتوفِت (المحرقة المقبرة) Tophet

قلنا فيما مضى إنه إذا كانت النصوص الأدبية الكلاسيكية والوثائق المنقوشة قد أشارت في مرات عديدة إلى معابد شيدت على شرف آلهة قرطاجة فإن الصروح التاريخية الأثرية التي كشف عنها التنقيب قليلة للغاية . يضاف إلى ذلك أن التبدلات وتراكب الأبنية التي يعود تاريخها إلى العصر الروماني تجعل في كل محاولة لإعادة تركيب المخططات الأولية محاولة تخمينية .

في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى أمكن دراسة معبدين في محيط قرطاجة . وفي زمن أحدث من ذلك ـ أي في عام ١٩٦٦ ـ جرت تنقيبات في رأس الدريك على أنف صخري يمتد من الطرف الشرقي لرأس بون سمحت بالكشف عن أساسات معبد طوله أحد عشر متراً وعرضه ثمانية أمتار أنشيء فوق الصخرة

نفسها مشرفاً على البحر غير بعيد من حصن ربما يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد . وبفضل حملات تنقيب بعضها لايزال جارياً حتى الآن في عالم البحر المتوسط تحقق علماء الاثار من هوية أبنية دينية بونية أخرى في تاس سيلغ (مالطا) حيث قامت عبادة لعشتار ، وفي صقلية في موتيي وسيلينونت وفي منطقة بالرمو (مغارة ريجينا) ، وفي سردينيا في مواقع عديدة كما هو الحال في كاغلياري ونورا (التي يبدو أنها خصصت مكاناً فيها لعبادة قامت على شرف إشمون - إسكولاب) وفي رأس سان ماركو بالقرب من تاروس حيث كان المعبد القديم هنا مؤلفاً من ثلاثة عناصر هي على التوالي : رواق ، صالة وسطى ، غرفة المذبح . وفي أنتاس التي كشفت فيها نقوش تشير إلى الإله سيد Sid ، وأخيراً في جبل سيراي Sirai المرتفع حيث يوجد معبد ربما يعود إلى القرن الرابع ويتمثل في مخططه كذلك مخطط الأقسام الثلاثة الذي هو من خصائص فن البناء الديني الفينيقي .

وعندما نقوّم هذه الآثار الفقيرة التي وصلت إلينا لانكاد نتصور الغنى الفاحش الذي كانت ترفل فيه بعض المعابد. يذكر أبيان أنه في الأيام الأخيرة التي سبقت سقوط قرطاجة كان سكيبيون قد دفع بأربعة آلاف رجل من فرقة صدام في هجومه على معبد أبولون (ربما طابقوه هنا مع الإله الفينيقي رشف) . وفي هذه المناسبة كتب المؤرخ الإغريقي : «ماكادوا يدخلون المعبد حتى نهبوا تمثال أبولون الذي كان مغطى بالذهب وبيت القربان المغطى بأوراق من الذهب بحيث بلغ وزن مايزويه بيت هذا التمثال من الذهب ألف وزنة » (Libyca 127) .

أما رجال الدين المكلفون بهذه المعابد فكانوا كثيرين ، وغالباً ماتدلنا شواهد القبور والنذور على الكهنة (Kohen) وفي كثير من الأحيان أيضاً على كاهنات وفي بعض الحالات يحدد النقش شخصية الإله الذي كان هذا الكاهن مكرساً له كأن يكونوا كهنة لبعل شمين أو كاهنات للربة ، كما أن تلك الوثائق نفسها تشير إلى بعض الرتب الدينية المتسلسلة من أمثال «رئيس الكهان » (أو الكاهن الكبير) - وهو لقب يمكن أن تحمله امرأة ويمكن أن يكون الحبر الأعظم - أو « كهنة من الدرجة الثانية » . وكانت البنى الإكليركية وطيدة الأركان وتحتكر

المناصب الدينية احيانا عائلات أرستقراطية أو كما هو الحال في الأعباء المدنية الوراثية إذ كانت الوظائف الكهنوتية تنتقل من الأب إلى الابن . على أنه لاشيء يسمح لنا بالتفكير بأن الإكليروس ـ على الرغم من المهابة التي كانوا يتمتعون بها ـ كانوا يشكلون طبقة في جهاز الدولة . والحقيقة أن الكهنة والكاهنات كان لهم عائلاتهم وكانوا يشاركون في الحياة المدنية ولكن وظائفهم لم تكن تمنحهم أي امتياز خاص في الميدان السياسي .

كانوا يرتدون لباسهم الكهنوتي المؤلف من قلنسوة عالية أسطوانية شبيهة بالطربوش الشرقي ، وثوبا طويلاً من الكتان هو أحياناً ضرب من رداء يوضع على الأكتاف ويربط بشرابة مع الكتف الأيسر ، وكان عليهم أن يسهروا على الاحتفال بعبادة تتطلب احترام طقوس تهتم اهتماما بالغا بالتفاصيل ، ويساعدهم في وظيفتهم هذه ملاك مؤلف من مجموعة من الموظفين الثانويين متفرغ للقيام بوظائف عديدة ويضم مرتلين وضاربي أصناج ومولجين بشؤون الشمعدانات وجزارين . وكان الكهنة يعيشون على المعبد . ومن المعروف أنه من بين أكثر الوثائق البونية لفتا للنظر تلك التي تصور « تعريفات القرابين » وتحدد الحصص المجزية التي تعود منها إلى الكاهن وإلى مقدم القربان بحسب الحيوان المقدم وطبيعة التضحية . وإليكم مثالاً على ذلك : « في حالة ثور تكفيري أو قرباني أو للمحرق فللكهنة عشرة (شواقل) * من الفضة لكل منهم ، وفي حالة التضحية التكفيرية يخصص لهم ـ إضافة إلى هذا الرسم صدر الفخذ (الأيمن) ، أما الجلد والضلوع (؟) والقوائم وبقية اللحم فهي تخص صاحب الأضحية» . هذه التعرفة تعرف بالتعرفة « المرسيلية » وكانت معلنة في معبد بعل صفون في قرطاجة. وبموجبها كانوا يتبعون الشروح الدقيقة التشريعية نفسها الواجبة نحو الكهنة عند قيامهم بتضحية حيوانات أخرى سواء كانت داجنة أو غير داجنة من وعول وظباء وطيور . وتشير هذه التعرفة أيضاً إلى « البواكير المقدسة » من غلال الأرض ونتاج الحيوان وإلى بعض القرابين من طحين وزيت ولبن وأنواع من

---

* مفردها شاقل وهو وحدة وزن فينيقية قديمة ـ المترجم ـ

الحلويات . وإذا طولب « المؤمنون » في كل مرة بإتاوات من قبل منفذي التضحية فإن الوثيقة أضافت أيضاً : « كل كاهن يجبي رسماً آخر(؟) غير ذلك المحدد في هذه اللائحة ستفرض عليه غرامة » .

ولكن بالإضافة إلى هذه القرابين والأضاحي من محرقة تأكل النار فيها كل الضحية ومن تضحية المشاركة (القربان) التي يشارك مقدم الأضحية الشخصية الإلهية بتلقيه حصة من الضحية ، ومن التضحية التكفيرية التي يحق للكاهن وحده أن ينال جزءاً من القربان ، ومن تضحية الرقية وتضحية النبوءة ، بالإضافة إلى تلك القرابين والتضحيات التي ذكرناها كانت تقع على الكهان أيضاً مهمة رهيبة في أن يقوموا باحتفال مولك Molek أو مولك Molk الذي هو محرقة يعجز عنها الوصف ولم تشر النصوص البونية إليها قط .

تلك التضحيات بالأولاد هي إرث من صور، وقد أنب النبي إرميا العبرانيين أنهم هم أنفسهم « بنو المرتفعات للبعل التي في وادي ابن هِنّوم (جهنم) ليدفعوا بنيهم وبناتهم لعبور نار مولك * » (إرميا ٣٥،٣٢) . وكان العديد من الشعوب القديمة يقدمون الأضاحي البشرية ولكن خاصية « المولك » هي أنه يشير إلى طقس قرباني خاص بعبادة بعل حمّون . والسؤال الذي يمكن أن يطرح نفسه هنا هو لماذا كان الفينقيون والبونيون يقدمون مثل هذه الأضاحي . هل كانوا يفعلون ذلك لأنهم يظنون أنهم « يجددون النشاط » في شخصية إلهية أصيبت قواها بفقر الدم؟. كل فرضية في هذا المجال تبقى من باب التخمين وينبغي الاحتراس من التعميم . إلا أن من المؤكد على الأقل أن المؤمنين عندما يقبلون بتضحية أبنائهم باختيارهم « أفضل هؤلاء الأبناء » (والنصوص في الواقع لم تشر إلى الأولاد البكور من الذكور) فإنهم ينتظرون في مقابل ذلك إنعامات استثنائية على مستوى عظمة التضحية . وليس من وثيقة تجيز لنا اعتبار « المولك » طقساً

---

* جاء في الفرنسية عبارة « بحسب طقس مولك » بدلاً من كلمة « لمولك » الواردة في النسخة العربية من سفر إرميا. ويتضح من ذلك وما بعد أن المؤلف يعتبر « مولك » طقساً لا اسماً له _ المترجم _

إجبارياً قد جرت العادة به وأن نستنج أنه كان على العائلات أن يضحوا بأبنائهم بشكل منهجي منظم (٩٠) .

يروي مقطع من ديودور الصقلي قصة تضحية من هذا النوع . ففي عام ٣١٠ أثناء الغزو الذي قام به أغاثوكليس وعندما هددت جيوش طاغية سراكوزة أهالي قرطاجة عزا هؤلاء القرطاجيون الذين أصابتهم الدهشة هذه الكارثة إلى تهاونهم تجاه كرونوس بعل حمّون « وقدّروا أن كرونوس أصبح مبغضاً لهم . والواقع أنهم هم الذين كانوا يضحون لهذا الآله بأفضل أبنائهم غدوا يشترون سراً أولاداً يغذونهم ثم يرسلونهم للتضحية . ولدى البحث والتنقيب اكتُشف أن بعض الأولاد الذين ضُحي بهم كانوا قد قُدّموا بدلاً من آخرين . وعندما تمعنوا بهذه الأمور ورأوا العدو معسكراً أمام أسوارهم شعروا بخوف ديني من فكرة أنهم قوضوا التكريمات التقليدية الواجبة للآلهة . وعندما أحرقتهم الرغبة في أن يصلحوا أخطاءهم اختاروا مائتين من أبناء أرفعهم شأناً وقدموهم ضحايا باسم الدولة . وقدّم آخرون من المتهمين أنفسهم بأنفسهم ويلغ عددهم ثلاثمائة . وكان يوجد في قرطاجة تمثال من البرونز لكرونوس ماداً يديه بحيث تكون راحتهما إلى الأعلى وهما مثنيتان نحو الأرض بحيث يتدحرج الولد الذي يوضع فوقهما ويقع في حفرة ملأى بالنار » (XX ,14,4) .

وقدم لنا مؤلفون آخرون منهم بلوتارخوس وترتوليان ـ إضافة إلى نقوش عديدة ورد فيها ذكر للأضاحي البديلة ـ قدموا لنا إيضاحات عن كيفية حدوث الجريمة الطقسية . كانت تحدث كما يبدو أثناء الليل . فكان لاعبون على الناي وعلى الطبلة يأخذون أماكنهم أمام حفرة الأضاحي ، أما الآباء الذين كانوا يساهمون بالدرجة الأولى في هذه الشعائر فكان عليهم أن يمسكوا أنفسهم عن البكاء ، والواقع أن التذمرات والدموع لم تكن تليق بشرف احتفال غايته تقديم قربان كامل إلى الإله ، وكان على الأم بمداعباتها أن تحرص على الا يصدر عن الطفل أي نحيب . وفي اللحظة المقررة كانت تسلمه إلى كاهن يرتدي زينات كهنوتية فيحمله بين ذراعيه ، وقد قدّم لنا نصب تذكاري من قرطاجة لحظة التضحية تلك . ولاشك أن الضحية الصغيرة ـ بموجب طقس سري كان لايزال

قيد الاستعمال عند الفينيقيين ـ كان يُذبح أولاً ثم يوضع جسده على يدي تمثال « سيد الجمر» ليتدحرج في الأتون .

وإذا كان قد بدأ تطور في الظهور بدءاً من القرن السادس جعل القرطاجيين في الأزمان الأخيرة من تاريخهم أن يستبدلوا في أغلب الأحيان بطقس مولك أضاحيَ بديلة ـ كما هو الحال في المولخومور (أي التضحية بحمَل) ـ أو حتى إلى اللجوء للحيلة والخديعة ـ كالقربان بأجنّة مجهَضة ـ فإن الممارسة القديمة لم تختفِ من الوجود . ويُظهر علم الآثار أن التضحية بالأطفال قد استمرت الاحتفالات بها حتى سقوط العاصمة الأفريقية بل ان مؤلفين ذكروا أنها بقيت قائمة في السر حتى في ظل السيادة الرومانية . ومثل هذا الطقس ـ بالنسبة لقرطاجة التي كان بإمكانها أن تفاخر من ناحية أخرى بأنها طوّرت حضارة لامعة ـ يمكن أن يبدو لنا وحشياً مثيراً للغضب خاصة،عندما كانوا يحتفلون به أحياناً في محارق واسعة تضم المئات من الضحايا وأن السلطات في الكوارث الوطنية والنكبات العسكرية كانت تلجأ للمولك التقليدي كما تلجأ إلى مؤسسة من مؤسسات الدولة . ولنلاحظ مع ذلك أنه على الرغم من ضغائن الرومان التي استشرت إلى حد تحميل هانيبال (حن بعل) مسؤولية الكثير من أنواع القسوة فإنها لم تصل إلى حد اتهامه بتقديم مثل هذه القرابين .

أما رماد الضحايا المقدمة إلى بعل حمّون وإلى تانيت شريكته في الألوهية فكان يجمع في جرّة تودع في مايشبه معبداً واسعاً مكشوفاً على السماء يسمى (التوفيت) Tophet . وهذا التعبير الذي لم نصادفه حتى الآن في أي نقش فينيقي أو بوني قد تمت استعارته من العهد القديم (أشعيا الاصحاح ٣٠ الآية ٣٣ ـ الذي يبين العلاقة بين محرقة المولك وبين حفرة التوفيت العريضة العميقة : أرميا٧،٣١. و١٩،١١. وملوك ثاني ٢٣، ١٠) .

في عام ١٩٢١ تم اكتشاف توفيت Tophet قرطاجة الذي يمتد بمحاذاة الضفة الغربية من « المرفأ التجاري » البوني على هذا الشط من سالامبو الذي كانت الأميرة إليسا ومُرافقوها قد ألقوا فيه عصا الترحال والذي فيه أيضاً قدموا أول محرقة لهم بعد إشادة المدينة . ويبدو المعبد مثل فِناء مستطيل الشكل لم

تحدد أبعاده بعد وربما كانت خمسين متراً طولاً وستين في العرض . وكانت حملات تنقيب عديدة قد باشرت عملها في هذه المنطقة وجرت أعمال سبر في بعض نقاطها حتى عمق سبعة أمتار تحت سطح الأرض الحالية . وعلى الرغم من أن أقسامها الأكثر قدماً لم تكتشف بدون شك حتى اليوم (٩١) فإن التوفيت أسلمت لنا الآلاف من الجرار التي كانت تضم بقايا لأطفال محروقين يمكن لبعضهم أن يكونوا قد بلغ الثانية عشرة من العمر وإن كان عمر معظمهم لم يتجاوز العامين بل ان العديد منهم كانوا قد أهلكوا بعد بضعة أيام من ولادتهم. ولم تكن الأضاحي البديلة من طيور وحيوانات صغيرة نادرة أيضاً بل إنه يمكن مشاهدة أن النسبة المئوية للأضاحي من هذا النوع من « المولخومور» ازدادت بشكل ملحوظ في بعض العصور كما حدث في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وفي مقابل ذلك فإنه على الرغم من زيادة سكان المدن وبالتالي زيادة المواليد فإن عدد الأولاد المضحى بهم بقي يومئذ نفس ماكان عليه من قبل . فهنا يوجد مايشبه البارومتر الذي يشير إلى «مناخ» المدينة العام : تطورها الديني وحالتها الاقتصادية والاجتماعية .

ولاشك أن التوفيت يعود إلى أصول قرطاجة . وقد استمرت العبادة التقليدية فيها حتى عام ١٤٦ وهكذا نستطيع أن نميز عدة مستويات متتالية ينطبق بعضها فوق بعض . وإذا اخذنا بعين الاعتبار أنواع النماذج الفخارية المختلفة التي تضم رماد الضحايا والودائع القربانية أمكننا أن نميز ثلاث مراحل رئيسية في هذا التنضيد : أقدمها هي تلك التي كشفت آنيتها تحت أكوام من الحجارة الصغيرة أو تحت حصباء ملساء . وتُمثّ ثانيتها إلى الحقبة الممتدة من منتصف القرن السابع حتى القرن الرابع وتضم جراراً فخارية موضوعة تحت حجارة على هيئة مسلات أو أنصاب أو تحت شاهدات قبور من نماذج مختلفة . أما أحدثها فهي تتميز بمسلات أو نصب تذكارية مسطحة ذات قمة مثلثة يخاصرها أحياناً على جانبيها قاعدتا تمثال . ومن المعروف أن هذه المسلات أو النصب كانت تحمل بوجه عام تكريساً على شرف بعل حمّون وتانيت . وعلى الرغم من هذا التطور في تقديم القرابين فإن التوفيت احتفظ بصفته الرئيسية التي هي في

الواقع عكس المقبرة بطريقة ما . والحقيقة أن العادة قد جرت في مقابر الأموات أن تدفن الرفات تحت الأرض حتى في حالة تحويلها إلى رماد فتوضع أحياناً في حفر بسيطة أو في مستودعات صغيرة لحفظ العظام وأحياناً في غرف محفورة في أمكنة عميقة أو على جانب بئر أو في مغاور يمكن الوصول إليها عن طريق دروموس Dromos وهو ممر منحدر ذو درجات يودي إلى صالة الدفن التي حفرت في جدرانها ثقوب تقوم مقام القبور . وعلى العكس من ذلك أمر الجرار التي تضم رفات الضحايا الذين طهرتهم نار المولك فهي تشهد على المحرقة التي قدمت للإله والتي ارتبطت به بشكل حاسم كما كان حاسماً أمر التضحية بالأرواح الفتية . « سمع صوته فباركه » نقرأ ذلك على النذور . فالناذر يظهر بذلك أنه أفاد من النعمة المطلوبة أو ربما التمس تلك النعمة ، ومن أجل أن ينتزع حسن الالتفات الإلهي فقد استعمل زمن الفعل التام وكأن القدَرَ المناسب قد أُنجز بالفعل . ولذلك فإن التوفيت ـ هذا المكان المخصص للأضاحي الذين تعتبر جرارهم مثل صناديق ذخائر القديسين تحت ماأقاموه فوقها من نصب تذكارية ـ هذا التوفيت يذكّر في وضح النهار وتحت الشمس بقيمة المولك الخالدة .

وقد وُجدت «توفتات» أخرى في الأمبراطورية القرطاجية . ففي أفريقيا نفسها وجدت في هادروميت (السوس) . وفي صقلية في موتيي . وفي سرديينيا في نورا وكاغلياري وسولكيس ومونت سيري وأكبرها جميعاً موجود في تارّوس ، وهذا يدل على أن طقس مولك الرهيب كان يمارس في كل مكان على شرف الإله الأعلى وأن هذه التضحية كانت تشكل بدون شك أحد العناصر الرئيسية المميزة في الديانة البونية .

رؤى أخروية

إذا كانت هذه العبادة وتلك الأضاحي تشهد حقاً على إيمان بالآلهة بل بإله أعلى فهل لدينا من الدلالات مايسمح لنا بالتفكير بأن البونيين آمنوا أيضاً بحياة «للنفس» بعد الموت في عالم آخر؟ . لنقل فوراً إنه لم تستخرج في العالم القرطاجي أية وثيقة تشير إلى مثل هذه الموضوعات ، فينبغي إذن أن نوضح

الصفة التخمينية للتقديرات التي يمكن أن تقدم في هذا المجال .

فانطلاقاً من الأثاث الجنائزي المكتشف في المقابر البونية من جرار وقوارير من ذوات العروتين وأباريق من ذوات العروة الواحدة وآنية أخرى كانت مليئة بالأغذية والسوائل قبل إيداعها سارع بعض المؤرخين إلى استنتاج أن القرطاجيين كانوا بسطاء جداً في اعتقادهم بحياة مادية للمتوفى في قبره أو على الأقل بنوع من الوجود السباتي يستمر على هذا المنوال ويحتاج الأموات من أجله إلى أشياء وآنية مزخرفة وتعاويذ مما كان مألوفاً لهم في عالمهم المعتاد أثناء حياتهم. ولكن ألا تكمن السذاجة في تصور أن هؤلاء الذين كانوا يلجؤون إلى هذا الأثاث أمكنهم أن ينسبوا حقاً قيمة نفعية و« وظيفية » ؟ .

وبديهي أنه قد يكون تجاوزاً على التاريخ أن ندعي أن البونيين تمكنوا من الوصول إلى بعض رؤى أخروية نجم تكونها البطيء عما حملته شعوب المتوسط المختلفة وبخاصة الساميين والمصريين والإغريق ، ويبقى أن كل ماله علاقة بالطقوس الجنائزية من تهيئة للمقابر ونموذجية القبور والأثاث وأنماط الرموس من دفن أو تحويل إلى الرماد وإنما يترجم بدون شك حقيقةً عميقة تشهد على تفكير « لاهوتي » قوي البناء . أما الادعاء بأن هذه الطقوس إنما تجسد بكل بساطة مفاهيم ميتافيزيقية « بدائية » فهو الذي سيسقط في السذاجة التي تسم الكثير من هذه النظريات المخصصة « للعقول البدائية » .

والحقيقة هي أن مورخ الديانات في عصرنا بدلاً من أن يقترح تأويلاً على مستوى « الثقة » التي تقدمها لنا الدراسات الأثرية ـ الأمر الذي يقود بالضرورة إلى تفسير «مجسد» ـ سيرى من الأفضل أن يرى في هذا الجهاز الجنائزي وثيقة لاتزال في حاجة إلى حل رموزها . وكما هو الحال في كل « كتابة » فإن هذه الوثيقة لايمكنها أن تكون ذات دلالة حقاً إلا بمقدار مايأخذ الباحث بعين الاعتبار تطور البنى والأشكال . وعند ذلك يمكن للمرء أن يتقدم بالعديد من الملاحظات . أولها أنه بينما كان الأثاث غزيراً نسبياً وأحياناً بالغ القيمة في قبور القرنين السابع والسادس مالبث أن غدا فقيراً حتى مال إلى الاختفاء دون أن

يتمكن أحد من تفسير ذلك بالظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة . وبالتوازي مع هذا « الفقر » البادي بصورة خاصة في المقابر القرطاجية بدءاً من القرن الخامس نلاحظ انتشار ممارسة الإرماد (أي حرق الجثث وتحويلها إلى رماد) الذي تم تبنيه على نطاق واسع . وبدلاً من سراديب الدفن الواسعة التي كان فيها الميت يستقر فوق دكة بالقرب من مؤن كثيرة وقنديل موقد « فإن الميت في معظم الأوقات (في حالة مقبرة أوديون البونية المتأخرة) قد أحرق قبل أن يُسلَّم إلى التراب ووضعت رفاته المحترقة في صندوق حجري صغير أو في إبريق ذي عروة واحدة أو وضعت بكل بساطة في القاعة الجنائزية التي لم تعد مخصصة لشخص واحد وإنما لعائلة بكاملها، بل إنها كانت أحياناً حفرة جماعية يكدس فيها رماد الموتى وبقاياهم والآنية التي ترافقها دون أي نظام (٩٢) » . وتشهد هذه الثورة المزدوجة في الطقوس على تطور في المعتقدات ولكنها كانت أبعد من أن تتكشف عن انهيارها أو حتى عن تآكلها بل إنها كانت تستطيع أن تثبت العكس .

والواقع أنه إذا كان الاعتقاد ببقاء النفس أو بقاء العنصر الحيوي الذي هو « الروح » قد عُبِّر عنه في بادىء الأمر بالاستعدادات العظيمة التي كانت تجري حول جسد الميت نفسه - الأمر الذي كان يقود إلى اللبس والغموض - فإن تأكيد هذا البقاء صار يُعبَّر عنه بعد ذلك من خلال ترميز تميل رمزيته أكثر فأكثر إلى النقاء والتهذيب برد الأثاث الجنائزي إلى « دلالته » البسيطة وباللجوء إلى الترميد الذي يجنِّب كل إغراء لعبادة مادية للأجداد . هذه الروحانية في الإقرار بحياة تتجاوز حياة الأجساد إنما هي بصورة خاصة باكورة تلفت النظر عند البونيين .

وهذه الرحلة نحو العالم الآخر التي تباشرها النفس المحررة - وهي رحلة رُمِزَ إليها في مجموعة الايقونات والصور الدينية على شكل فارس أو حيوان بحري خرافي أو قارب - يجب أن تبلغ « المدينة » الحصينة جداً من أمثال صور وصيداء تلك المدينة التي احتفظوا بها حنيناً سرياً لايرقى إلى مرتبة الوعي . وهكذا نجد

في أحد القبور البونية المكتشفة في جبل مليزاً (٩٣) في رأس بون زخرفةً تشير على مايبدو إلى هذا الحج الذي تقوم به النفس إلى وطنها (٩٤) . فعلى الحوائي الجانبية وعلى الجدار الداخلي ثلاث لوحات تتوالى في شكل شريط مرسوم وكأنها تروي لنا قصة . ويمكننا أن نتخيل لوحة رابعة على الجانب الذي أقيم فيه باب الدخول كانت ظاهرة حقاً يوم الدفن عندما اجتازت الرفات عتبة الغرفة الجنائزية. في هذا التشكيل ذي الأهمية الاستثنائية تقدّم لنا النفس أولاً ـ وقد صُورت هنا على شكل ديك ـ وهي في طريقها إلى ضريح يوجد بقربه مذبح أضاح تشتعل ناره . وهذه الصورة الأولى تذكّر بمصير الإنسان الفاني على الأرض. وبعد أن يجتاز الجسد هذه العتبة بعد الموت يوضع في السرداب ويبقى فيه حبيساً وهو ماتعبر عنه اللوحة الثانية الموجودة إلى يمين باب الدخول حيث لم يعد يُرى سوى الضريح الجنائزي ومذبحه . ولكن النفس ليست سجينة القبر لأننا نجدها في الواقع على لوحة الجدار المركزي تتابع طريقها نحو الملكوت . وقد رُمز إلى هذا الملكوت على هيئة مدينة محمية بسور مجهز بأبراج صغيرة ويشكل حزاماً نصف دائري . وهكذا فإن الرسم يذكر بممالك المدن الفينيقية التي كانت محمية من جهة البر ولكنها تظل مفتوحة على البحر ، تلك المدن التي كانت (بالنسبة للبونيين) ملكوتهم الحقيقي . فالمدينة السماوية في نظر هذا الشعب من الملاحين كانت آخر مرفأ يستطيعون الوصول إليه .

من الاتفاق الودي إلى الحرب

لقد بَعُدَ الزمان الذي كان فيه الإتروسك والقرطاجيون يوحدون قواهم لطرد المستعمرين الإغريق الفوسيين من كورسيكا . ففي القرن السادس قبل الميلاد ـ وهذه المسالة تعود في الواقع إلى حرالي العام ٥٣٥ ـ كان التعاون بين هذين البلدين المتوسطيين قد لعب دوره ليس في مثل هذه التدخلات العسكرية فقط عندما يستدعي الأمر حماية المصالح المشتركة وإنما كان يمتد أيضاً في ذلك الحين إلى كل المجالات . وهكذا فإن النشاطات التجارية كانت تطورت وتوسعت إلى حد أن الإغريق كانوا يطلقون على كايري Caeré اسم أجيلا الفينيقي بينما كان أحد مرفأي هذه المدينة الإتروسكية الذي كان مشغولاً في العادة بدون شك بالمراكب القادمة من العاصمة الإفريقية يطلق عليه اسم بونيكوم . كذلك كانت آلهة قرطاجة نفسها جزءاً من هذه المبادلات حتى غدت المعاهدة بين الطرفين ميثاقاً غير قابل للانفصام بعد أن دمغت بخاتم الآلهة . ويدلنا نقش من بيرجي كتب باللغتين البونية والإتروسكية على أن أحد القضاة الإتروسكيين الرفيعي المقام قام بتقديم طقس من طقوس الأسرار على شرف عشتار ، وقد انتهى التكريس الذي خلّد هذا الطقس بهذه الأمنية : « لتكن سنو تمثال الإلهة في هذا المعبد سنين عديدة كهذه النجوم التي نراها » (٩٥) ، ولكن الإلهة العتيقة سيدة صيدا لم يكن لها من القوة بدون شك مايسمح لهذا الاتفاق الودي بأن يبقى على الدوام .

على أن من المؤكد أن هذه العلاقات بقيت في الظاهر قوية الوثوق خلال العديد من القرون حتى أن أرسطو في تقديره المعاهدة العسكرية القائمة بين القرطاجيين والإتروسكيين وما بينهما من علاقاتِ عمل أبدى ملاحظته بأن هذين الشعبين كان يبدو كأنهما يشكلان دولة واحدة (Politique III, 9, 6) . إلا أنه

بدءاً من انحطاط الإتروسكيين انحسر المد نحو كل من الشاطئين فهذه الحركة التي انتهت بالقطيعة والحرب امتدت على قرنين ونصف القرن . وعلى عكس ماينتظر المرء فإن مراحلها الكبرى لم تبدأ بسلسلة من الصدامات بل بمعاهدات تحالف ، ذلك لأنه على الرغم من قيام شيء من عدم الثقة بينهما فإن البلدين كانا يشعران في الواقع بالحاجة في وقت الأزمات إلى اللجوء لوسائل دبلوماسية لتأكيد أنهما مازالا دائماً « حليفين » ، وكانت تلك مناسبة لمن يجد نفسه في الموقف الأفضل أن يطلب من شريكه تنازلات اوسع فأوسع . ويعود تاريخ أولى هذه المعاهدات إلى عام ٥٠٩ (كما رأينا في مناسبة سابقة) أي إلى العام الذي دشنت فيه روما الجمهورية بحسب التقويم التقليدي . وقد طلب البونيون يومئذ أن تؤكد لهم امتيازات كانت قديمة بدون شك . إلا أنه بدءاً من الحروب مع السمنيين بدأت سياسة روما تتجه إلى الاهتمام بالشؤون الإيطالية . وكانت عائلات النبلاء الكامبانيين الموجودين في مجلس الشيوخ بمساندة من حلفائهم في العاصمة يشكلون جماعة ضغط قوية قادت الدولة تباعاً للارتماء في مشروعات مستلهمة من مصالحهم الخاصة . وكانت هذه المصالح لاتقتصر على احتلال إيطاليا الجنوبية حتى تارنت فحسب وإنما تهدف إلى احتلال صقلية أيضاً وهي كلها مناطق وصلت إليها عصابات من المرتزقة تسعى وراء الثروة وشكلت مايشبه العناصر الرائدة . وقد أدى هذا الزحف إلى الجنوب بالضرورة إلى نزاع مع قرطاجة . وهكذا انطلقت حركة المسيرة ولم يعد يوقفها شيء . وقد أشار تيت ليف إلى تسلسل الأحداث هذا بقوله : « بعد محاربة السمنيين دون نتيجة حاسمة أصبح العدو هو بيروس Pyrrhus وبعد بيروس يأتي القرطاجيون » . (VII, 29, 1) .

ونحن نعرف أنه في المعاهدات الثلاث التي أعقبت معاهدة عام ٥٠٩ فرض القرطاجيون تعميق هيمنتهم على المتوسط وحموا أنفسهم باحتياطات دقيقة عن طريق بنود قاسية كي لايتعرضوا لأي خطر من جانب حليف كانت أطماعه تقلقهم . ولم تكف العداوة عن التوسع بين الدولتين . وفي الاتفاق الذي تم توقيعه عام ٣٠٦ وجب على الرومان أن يتعهدوا بالايتجازوا مضيق مسينا وفي مقابل

ذلك ينالون كامل حريتهم في العمل في إيطاليا . وكان على روما أن تسير خطوة خطوة ، وكان بإمكان ذلك أن يهدىء من مخاوف قرطاجة موقتاً ولكن مافائدة مثل هذه الاتفاقات بعد أن تنتهي روما من فرض سلطانها على كامل أرض شبه الجزيرة الإيطالية .

بعد أن استقرت روما في ريجيو (كالابريا) أصبحت تتطلع إلى مواسم صقلية الغنية . وبعد أن عدت بتوسعها دولة متوسطية كبرى تسيطر على ساحل يزيد طوله عن ألف كيلومتر لم تعد تستطيع ان تقبل من حليفتها القديمة ادعاءها الاحتكار المطلق للحوض الغربي من البحر المتوسط .

حقاً كانت توجد دائماً المعاهدات الموقعة . ولكن هذه الارتباطات ـ حتى بالنسبة لمشاعر الرومان التي كانت تهتم طواعية بالمسوغات الأخلاقية ـ لم تستطع أن تصمد في ذلك اليوم من عام ٢٦٤ عندما وجه المامرتان Mamertins ـ وهم مرتزقة اقتطعوا لأنفسهم إقطاعية حول مسينا في بعض الظروف المناسبة ـ نداء يطلبون فيه مساعدة الوطن الأم . أليس من واجب الجمهورية أن تهب لمساعدة أبنائها ، وإذا كان لابد من أن تنفجر الحرب بعد ذلك مع الحليف التقليدي ألن تكون في سبيل أعدل الأسباب؟ . وهكذا كانت « الحرب البونية » الأولى .

الحرب في صقلية

بدأ التدخل الروماني في ظروف غامضة . والواقع أنه بحسب رواية نشرها بوليب ـ بينما لم يتوصل مجلس الشيوخ إلى اتخاذ قرار كان القنصل أبيوس كلوديوس كوديكس هو الذي اتخذ المبادرة في مباشرة العمليات مستفيداً من التأييد الشعبي : « فالشعب ـ على الرغم مما عاناه من الحروب السابقة ومن أنه كان بحاجة ماسة لاستعادة قواه من جميع الوجوه ـ أصغى إلى القناصل الذين كانوا يريدون الحرب إضافة إلى الحجج التي سيقت بين يدي المصلحة العامة (...) والواقع أنه سيتم الحصول بالتأكيد على الكثير من الغنائم وأن كل فرد قد يستفيد من ذلك » (I,1,11) .

في بداية هذا الموضوع يجب الإشارة إلى ان أبيوس كلوديوس كوديكس كان يمثل تلك العائلات النبيلة التي اكتسبت وجهات نظرها من الطبقة الأرستقراطية الكامبانية التي كانت تحث على المواجهة مع قرطاجة بحجة أن وجودها في صقلية كان مشبوهاً ويشكل خطر تطويق بالنسبة لإيطاليا . والحقيقة أن مصالح تجارية خاصة دخلت في هذه اللعبة إذ أن وجوداً بونياً في مسينا كان يمكنه في الواقع أن يشكل تهديداً على الروابط البحرية مع مرافىء البحر الايوني وخليج تارنت .

وهكذا أنفذ القنصل فريق استطلاع من جيشه المعسكر في ريجبون واستعجل الذهاب لإقامة رأس جسر على الضفة الأخرى من المضيق . أما حنّون قائد حامية مسينا فكان قد أخلى القلعة على جناح السرعة تحت ضغط المامير تان أنفسهم فأدانته قرطاجة لهذا التخلي وصلبته . وبعد أن احتلت بعض الفيالق الرومانية المدينة مالبثت أن وجدت نفسها محاصرة من جيوش بونية وسيراكوزية، ولكن هذا الاتفاق بين هذين الخصمين القديمين مالبث أن انقطع بسرعة وذلك بسبب أن هييرون ملك سيراكوزا خاف من أن يفقد المدينة وعرشه فاختار الجانب الروماني الذي بدا له أنه الأقوى . أما قرطاجة التي كانت تنفر من التورط في حرب لم تكن مستعدة لها فقد تمنت أن تضع نهاية سريعة لهذه العمليات العسكرية الأولى . وأما الرومانيون الذين شجعتهم نجاحاتهم الأولى واشتد أزرهم كثيراً بمحالفة سيراكوز - الذي كان حليفاً بالغ المروءة فساهم بالقسط الأوفى من تزويد أربعين ألف رجل أرسلهم مجلس الشيوخ إلى صقلية بالطعام - فإنهم أخذوا يشعرون شيئاً فشيئاً بأن هذا المشروع كان قطعاً مشروعاً مليئاً بالوعود .

وعندما رأى القرطاجيون المسار الذي اتخذته الأحداث صمموا أخيراً على مواجهة حرب فرضت عليهم وباشروا بتركيز جيوشهم في أغريجنت وكانت مؤلفة من مرتزقة ليغوريين وغاليين وبخاصة من الايبريين . ولكن في الربيع من عام ٢٦٢ وبينما كانت هذه الاستعدادات تجري حوصرت المدينة الإغريقية الكبيرة الجميلة حليفة قرطاجة على يد فيالق القنصلين ، وبعد ستة أشهر من المقاومة وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها جيش بوني لفك الحصار من الخارج كان لابد

لأغريجنت من أن تستسلم بعد ان أصبحت المجاعة فيها لاتطاق ، ولكن بفضل مناورة عسكرية قام بها قائد قرطاجي يسمى هانيبال (حن بعل) توصلت الحامية مع ذلك من الانسحاب إلى مكان آمن . وعندما علم مجلس الشيوخ بهذا النجاح الجديد قرر أن على الأمة أن تستمر في القتال، فلم يعد الأمر مقتصراً على تقديم المساعدة للماميرتان « أخواننا في الجنس » وإنما ينبغي على روما أن « تحرر » كل صقلية .

من أجل حسن القيام بهذا المخطط الطموح كان لابد من امتلاك أسطول حربي. والواقع أنه ـ كما لاحظ بوليب ـ على الرغم من تفوق الجيش الروماني على الأرض « فإن خاتمة الحرب كانت متأرجحة طالما كان القرطاجيون أسياداً لامنازع لهم في البحر» (I,1,21) . لذلك وضع قيد البناء في عام ٢٦١ مائة سفينة من ذوات الخمسة صفوف من المجاذيف وعشرون من ذوات الثلاثة صفوف . وبحسب مايقوله المؤرخ الإغريقي الذي تبنى هنا بكل سذاجة رواية تمجد بمشروعات الجمهورية ومبادراتها فإن الرومان بنوا بأنفسهم سفنهم ذات الخمسة صفوف وفقاً لنموذج مركب بوني من هذا الطراز كان قد جنح على شاطئهم وكان عليهم أن يدربوا طواقمهم على استعمال المجاذيف على اليابسة ، ومثل هذا القول إنما هو تظاهر بنسيان أن روما لم يكن ينقصها حلفاء بحريون لهم خبرة ممتازة في بناء السفن وفي الملاحة وقد قدموا مساهمتهم في هذا المجال على أوسع نطاق .

في طلعته الأولى حوصر أسطول مؤلف من سبع عشرة قطعة بحرية يقوده ك. كورنيليوس سكيبيون على يد البونيين في مرفأ ليبارا Lipara ، وقد وجد القنصل الذي ينتمي إلى أسرة نبيلة شهيرة والذي اشتهر بعد ذلك شهرة كبيرة أثناء الحرب الثانية مع قرطاجة ، وجد هذا القنصل نفسه أسيراً قبل أن تبدأ المعركة فكانت نتيجة هذه التجربة المغضبة أن باشروا بتزويد الأسطول بتقنية متقنة كان من شأنها بعدئذ قلب طرائق الحرب البحرية رأساً على عقب .

كانت تنقص طواقم الرومان المهارة والخبرة في المناورات ولاتمتلك سوى سفن ثقيلة كما أنها لم تكن طيعة القيادة فقرروا تجهيز هذه الوحدات بجهاز

عرف باسم « الغراب Corvus » وهو جسر ضيق يخاصره درابزينان طوله حوالي العشرة أمتار وعرضه أكثر بقليل من متر مجهز في طرفه بكتلة من الرصاص لها هيئة كلاّبٍ أو منقار طائر كاسر ، فإذا ماثُبت في مقدمة المركب وربط إلى أحد الصواري بحبل يسمح برفعه وإعطائه حركة دوران حول محور فإن الجسر كان صالحاً لأن يرتمي فوق مركب العدو الذي يقترب كثيراً فيتشبث الكلاّب بسطحه ويجد هذا المركب نفسه وقد وقع في الصنارة بطريقة محكمة. « وعندما يجد المركبان نفسيهما جنباً إلى جنب كان الرومان يرمون بأنفسهم في التحام على طول السطح ، وعندما يصادف الأمر أن يعلق جوجؤا السفينة بعضهما ببعض يقوم الالتحام بين كل اثنين من الطرفين فوق الجسر الضيق نفسه لاقتحام الخصم ، ومن كانوا يتقدمون كانوا يحمون جبهة الرتل مادين أمامهم مجناتهم بينما كان من يتلونهم يحمون خواصرهم مسندين وجوه تروسهم على حاجز الجسر» . . (Polybe I, 1, 22)

وبفضل هذا الجهاز البارع استطاع الرومان أن يتجنبوا أسلوب صدم السفينة بمقدم الحيزوم الذي كان مألوفاً لدى الملاحين البونيين وأن يفرضوا أسلوب الالتحام الذي كان يسمح لهم بالعراك جسداً إلى جسد كما يحدث لهم في معارك البر التي كانوا فيها خبراء مجربين . فأمراء البحر كانوا إذن يقودون أسطولهم كما كان القواد يقودون فيالقهم على اليابسة . ومن أجل هذا كانت كل سفينة رومانية ذات خمسة صفوف من المجدّفين تضم ـ بالإضافة إلى طاقمها المؤلف من حوالي مائتين وخمسين مجذفاً ـ أربعين من جنود البحرية يؤلفون طاقماً احتياطياً من المجذفين مع كتيبة مؤلفة من ثمانين من جنود الفيالق فصلوا عن قطعاتهم الأرضية بقصد اشتراكهم في العراك . وفي الربيع من عام ٢٦٠ بعد أن جهزت مراكبهم بأجهزة « الغراب » تمكن الرومان بقيادة القنصل ك . دويليوس من إحراز أول نصر بحري في تاريخهم ، وقد جرى هذا الالتحام في عرض البحر أمام ميلاي (أو ميلازو) وخسر القرطاجيون فيه خمسةً وأربعين مركباً ولم تعد حظوظ الخصمين منذ ذلك الحين متعادلة في النزال .

ومع ذلك لم يكن لهذا النصر نتائج حاسمة وبقيت الحرب خلال أربع سنوات مشتعلة في صقلية حيث كانت النجاحات والاخفاقات تتعاقب بين الرومان والقرطاجيين وتتأرجح بينهما الكفتان . ولكن روما خلال ذلك كانت تهدف إلى إحياء محاولة أغاثوكليس بنقل الحرب إلى أفريقيا فأنجزت في سبيل ذلك برنامجاً واسعاً في الإنشاءات البحرية . وفي مطلع الصيف من عام ٢٥٦ كان القنصلان لوكيوس مانليوس فولسو وماركوس أتيليوس ريغولوس ـ وكان هذا الأخير يمثل عائلة الأتيلي Atilii الكامبانية القوية ـ يقودان أسطولاً عظيماً مؤلفاً من ثلاثمائة وثلاثين مركباً . وفي مقابل هذه الأرمادا التي كانت تتوزع في أربعة أساطيل رمت قرطاجة بقوة قادرة مؤلفة من ثلاثمائة وخمسين وحدة كان لها على ظهورها أكثر من مائة وخمسين ألفاً من الرجال (بينما كانت المراكب الرومانية تضم مجموعاً من البحارة والجند يبلغ مائة وأربعين ألفاً) . ولكن مهما كان عدد المراكب وأهمية القوات المسلحة المشتركة في هذه المعركة البحرية التي ربما كانت أكبر معركة في التاريخ القديم فإن من المحتمل مع ذلك أن هذه الأرقام التي أعطاها بوليب (I,1,26) كان مبالغاً فيها .

وجرى اللقاء في عرض البحر أمام رأس إكنوموس على الساحل الجنوبي من صقلية . وكانت مهمة القائدين البحريين حملقرت وحنّون أن يحطما قوافل حملة العدو العسكرية . وبينما بدا أن الصدام كان في بادىء الأمر لصالح البونيين فإن القنصلين أصلحا من أوضاع أساطيلهما التي هوجمت على انفراد أما القرطاجيون الذين خافوا من « غربان » المراكب المعادية فقد وجب عليهم أن ينسحبوا في النهاية وغدت المعركة في مجموعها نجاحاً للرومان الذين دُمّر لهم أربعة وعشرون مركباً بينما خسر القرطاجيون أكثر من ثلاثين . ومن جهة أخرى لم يقع مركب روماني واحد مع طاقمه في أيدي العدو بينما استسلم أربعة وستون من مراكب القرطاجيين» (Polybe I,1,28) . وهكذا أصبحت الطريق مفتوحة إلى أفريقيا ومالبث القنصلان أن وصلا إلى رأس بون .

استوليا في بادىء الأمر على كلوبيا (كيليبيا) التي كان أغاثوكليس قد

استقر فيها فيما مضى واتخذا منها مكاناً لسلاحهما بغية مراقبة المنطقة . بعد ذلك أخذ الجيش في نهب المدن والممتلكات الغنية في الأرياف المجاورة وتخريبها . وأفاد النوميديون من الوضع فأسلموا أنفسهم لعمليات اجتياح حقيقية بينما بدأت المجاعة تظهر في العاصمة التي كان يتدفق إليها أفواج اللاجئين الهاربين من أراضي الريف . وبما أن فصل الشتاء كان قد تقدم وكان على القنصل مانليوس أن يعود إلى إيطاليا ليأتي منها بأكبر قسم من الأسطول فقد ترك في أفريقيا زميله الذي بقي مع أربعين مركباً وخمسة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان.

ومنذ الربيع من عام ٢٥٥ عاد ريغولوس إلى الريف مستولياً على العديد من القرى بما في ذلك تونس التي أنشأ فيها معسكراً كان يهدد قرطاجة بشكل مباشر. ولكن القنصل الذي لم يكن قائداً لامعاً لم يثبت كذلك ذكاء سياسياً كبيراً. فقد أهمل الإفادة من استياء الأفريقيين من تصرفات الحكومة البونية في الوقت الذي كانت فيه مساعدة هؤلاء السكان الوطنيين يمكن أن تكون ذات قيمة ثمينة . وكان مقتنعاً من جهة أخرى أن العدو يمكن أن يكون قد أصبح مستعداً لقبول كل شروطه فبالغ في مطالبه في معاهدة الصلح حتى أجهض منذ البدء ماقدّم له من عرض للتفاوض . وكان لابد ان يلي ذلك كارثة على الرومانيين . ففي خلال ذلك وصل إلى قرطاجة أحد قادة المرتزقة اللاكيديمونيين * ومعه رهط من المرتزقة الإغريق . وبفضل النصائح الثمينة التي محضها هذا الضابط أعيد تنظيم الجيش وقرر القادة أن يتبنوا تكتيكاً جديداً للمعركة . وما أن أخذ القرطاجيون بأنفسهم زمام المبادرة في الالتحام الجديد خلال الصيف حتى سحقت الجيوش الرومانية وغدا ريغولوس في عداد الأسرى ولم ينج إلا ألفان من الفارين الذين تمكنوا من الوصول إلى قاعدة كلوبيا Clupea .

وقد توجب أن تزداد خطورة هذه الكارثة في العام التالي . والواقع أن مجلس الشيوخ كان قد أرسل أسطولاً بقيادة القنصلين وكان مؤلفاً ـ كما كتب بوليب ـ

---

* اللاكيديمونيون هم الأسبرطيون ـ المترجم ـ

من ثلاثمائة وخمسين مركباً لحمل بقايا الحملة . إلا أن قوة بحرية بونية مؤلفة من مائتي سفينة أتت لملاقاة الأساطيل . الرومانية فهزمت سريعاً ووضعت خارج المعركة ووقع منها مائة وأربعة عشر مركباً في الأسر . ومع ذلك فإنه بعد هذا النجاح اللامع وبينما القنصلان يعودان من مهمتهما ويصلان إلى عرض البحر أمام كامارينا على ساحل صقلية الجنوبي ـ وهي نواحٍ خطرة كان ضباط البحرية قد طالبوا بتجنبها طالما كانت الظروف المناخية سيئة ـ هبت عاصفة هوجاء ابتلعت كامل الأسطول تقريباً باستثناء ثمانين مركباً نجت من الغرق . وقد لاحظ بوليب أنه « لايوجد مثال آخر في التاريخ عن كارثة مشابهة حدثت فوق البحر دفعة واحدة على هذا الغرار » . (I ,1,37) .

كانت الأعوام الثلاثة عشر التي تلت ذلك ـ منذ الفشل الخطير الذي منيت به الحملة الأفريقية وحتى عام ٢٤٢ ـ أطول السنوات بالنسبة لروما وأقساها في هذا الصراع الطويل . كانت النكسات وخيبات الأمل أقسى على الشعور من النجاحات الأولى في المعارك البحرية التي سمحت بأوسع الآمال . والحقيقة أن القنصلين الرومانيين اللذين «ارثجلا» قادة بحريين لم يكونا يملكان أية خبرة حقيقية في شؤون البحر. فقد كانا يجهلان فن الملاحة ويؤمنان بفرض إرادتهما في هذا المجال دون أن يقيما وزناً لنصائح وملاحظات التقنيين الموجودين في طواقمهم فكانوا يكدسون الأخطاء فوق الأخطاء ، ولنا في ذلك مثال شهير خلال عام ٢٥٣ . فعندما تسلم القنصلان قيادة أسطول مهم ـ وكانت الترسانات قد انتهت لتوها من بناء مائتين وعشرين سفينة ـ قاداه نحو الساحل الشرقي من المملكة البونية في أفريقيا ليقوما هناك بغارات سلب ونهب . وكان لابد لهذه العملية في الواقع من أن تكون مفجعة. فقد حدث قبل كل شيء جنوح للسفن فوق القيعان العالية لسيرت الصغرى بالقرب من جزيرة ليتوفاج (جربة) . وبعد ذلك بقليل اختفى أكثر من مائة وخمسين سفينة بحادث غرق نجم عن عاصفة فتخلى مجلس الشيوخ عن بناء أسطول جديد .

هذه الكوارث التي كانت تدمّر جهود الجمهورية كانت تسمح للقرطاجيين

بأن يتفاءلوا بالمستقبل « فقد كانوا يسيطرون على البحر بدون اعتراض منذ أن انسحب الرومانيون منها كما أنهم صاروا من جهة أخرى يبنون آمالاً كبيرة على جيشهم البري ولم يكن هذا التفاؤل ـ كما كتب بوليب ـ مجانباً للصواب» (I,1 , 39) .

وعندما تخلت روما نهائياً عن كل أمل بضرب قرطاجة ضربة مباشرة على أرضها نفسها عزمت على أن تطرد غريمتها من صقلية وأن تنتزع منها مواقعها واحداً بعد الآخر. وكانت هذه المبادرة سهلة في الوهلة الأولى بسبب الحالة المحلية . والواقع أن قرطاجة بعد أن هُددت في أفريقيا أثناء حملة ريغولوس لم يكن لديها الفرصة لتقوية مواقعها في الجزيرة ولم تكن في حالة تمكنها من المقاومة. وكانت باليرمو (بانورموس) المدينة البونية الرئيسية في صقلية قد خضعت لحصار بري وبحري منذ نهاية عام ٢٥٤ فسقطت بيد الرومان بينما لجأت مواقع أخرى من أمثال سولونت إلى الاستعجال بطرد الحاميات البونية الهزيلة بنفسها وانتقلت إلى معسكر الرومان (Diodore XXIII ,14) . ومن أجل ألا يبعثر القرطاجيون قواتهم بدون فائدة بين مناطق يصعب الدفاع عنها أحياناً قرروا تركيزها على الحرز الذي كان يشكله الرأس الغربي من الجزيرة وحيث كانوا يستطيعون التصرف بحصون قوية من أمثال ليليبي (مارسالا) ودريبان (تراباني) .

وقد فهم قواد روما العسكريون أن أمثال هذه المواقع ستبقى عصية المنال إذا لم يتمكنوا من حصارها من البحر أيضاً ومنع كل مساعدة عنها حتى تجبرها المجاعة على الاستسلام . ومن أجل أن يطبق مجلس الشيوخ هذه الخطة قرر في عام ٢٥٠ أن يقوم بتجهيز أسطول جديد . وفي خلال ذلك كان جيش بوني بقيادة هازدروبال (عزر بعل) قد شن هجوماً لاستعادة باليرمو/ بانورموس ولكنه هُزم رغم استعماله قطيعاً من الأفيال وكان لابد للقائد القرطاجي من أن يدان بعد ذلك على يد محكمة « المائة وأربعة » وأن يصلب .

أما الجيوش الرومانية التي قويت بهذا النجاح الذي نجم عنه فرح عارم في

العاصمة فقد استعادت أمانها وثقتها بالنفس . وفي عام ٢٤٩ قدم القنصل بولشي على رأس أسطول لإلقاء الحصار على ليليبي . وكانت حامية هذا الموقع بقيادة هيميلكون قد ارتفع تعدداها إلى عشرة آلاف من المرتزقة من بينهم عدد من الضباط العصاة الذين تركوا جانب المهاجمين وانضموا إلى المحاصرين . ولم يكن الرومان أهل خبرة وتجربة فلم يعرفوا كيف يمنعون جيشاً قدم للنجدة من اختراق الحصار . وبعد عدة أشهر بقي الحصار دون أية نتيجة فوجد القنصل أن من المناسب أن يذهب لمهاجمة الأسطول البوني الراسي في دريبان والذي كان ينتظر تلقي الإمدادات من قرطاجة . ولكنه كان يجهل مخطط هذه الأمكنة ـ وكان للمرفأ منفذان ـ فوقع في المصيدة حيث كان القرطاجيون له في الانتظار . وقع في الأسر ثلاثة وتسعون من مراكبه مع جزء من طواقمها بينما تمكن كلوديوس من الفرار مع ثلاثين من المراكب . وكان ثمة أسطول روماني آخر يقوده القنصل الثاني ل . جوينوس بولوس ويحاول الوصول إلى ليليبي مع تجهيزات للجيوش المكلفة بالحصار فرد على أعقابه على يد أمير البحر القرطاجي كارثالون ثم غرق بكامله ـ زيادة في المصيبة ـ بعد أن ضربته عاصفة هوجاء في عرض البحر أمام كامارينا فاستعاد القرطاجيون بذلك سيادتهم على البحر . وساد الذهول في روما. واستعادت عائلة فابيي Fabii « المسالمة » حظوتها في مجلس الشيوخ ونالت ثلاث قنصليات متعاقبة . ومع ذلك فإن هذه الهزيمة النكراء لم تقض على عناد الأمة أو على الأقل عناد العائلة التي كانت قد قررت احتلال صقلية مهما كلفها الأمر . أما قرطاجة فقد تركت الفرصة المناسبة تفلت من يدها مرة أخرى ولم تبذل أي جهد لتقوية مواقعها وتعميق تفوقها ، ولكن هل كانت الأوليغاركية البونية لاتزال تتطلع حقاً إلى صقلية ؟ .

ومع ذلك فإنه بعد الاندحار الروماني في دريبان لو أن الحكومة القرطاجية عزمت أخيراً على واحدة من هذه الهجمات العصبية التي طالما لجأت روما إليها في مرات عديدة فإن حرب صقلية كانت قد اتخذت لها مسيرة أخرى . والواقع أنه في عام ٢٤٧ تسلم قيادة العمليات في صقلية قائد مميز هو هاميلكار (حملقرت)

برقة . وعندما قام بوليب بوضع حساب ختامي لهذه الحرب البونية الأولى كتب بنفسه : « أما بالنسبة للقادة فإن من ينبغي أن يُعتبر الأفضل في ذكائه وجرأته إنما هو حملقرت برقة والد الهانيبال (حن بعل) الذي قاد بعد ذلك الحرب ضد الرومان » (I ,1,6) . ولكن مع كل هذه المواهب ماالذي كان بإمكان حملقرت أن يفعله لو أن قرطاجة المنهمكة في أعمال عسكرية في أفريقيا قتّرت عليه بالمساعدات الضرورية ليحرك في الأحداث دافعاً جديداً وحاسماً ؟ . وكانت الحرب قد انقضى على نشوبها عند ذاك ثمانية عشر عاماً .

باشر القائد القرطاجي عمليات تخريب على سواحل إيطاليا الجنوبية حتى كوم Cumes . وفي صقلية كان يناوش الجيوش الرومانية بدون انقطاع فاستولى على جبل هيركتي (جبل بيليغرينو) واستعاد مدينة إيريكس (إيريس) بعد معارك حامية وكانت هذه المدينة مبنية على منحدرات جبل يحمل الاسم نفسه ، ولكنه لم يتوصل مع ذلك إلى كسر مقاومة مراكز الحراسة الرومانية الموجودة على القمة حيث كان ينتصب معبد أفروديت إيريسين الشهير . وهكذا أنشئت نقاط استناد متينة في قلب التشكيلات القتالية للعدو ولحماية قاعدة دريبان الكبرى التي كانت دائماً - كما هو شأن ليليبي - خاضعة للحصار . وفي خلال السنين الست التي وجد فيها على رأس الجيوش البونية في صقلية كشف هاميلكار عن نشاط عظيم . وعلى الرغم من أن القائد البرقاوي لم يكن يمتلك إلا جيشاً صغيراً جداً ويضع عشرات من المراكب - وذلك لأن قرطاجة لأسباب اقتصادية وجب عليها أن تنتزع السلاح عن قسم كبير من أسطولها - فإنه لم يكف عن تعبئة كامل القوات الرومانية الموجودة أمامه في الجزيرة والتي كانت خاضعة لضرباته على الدوام .

ولكن هذه الحرب تعفنت وطال عليها الأمد ولم يكن التوفير والاقتصاد طريق الوصول إلى خاتمة لها . «كان الرومان والقرطاجيون قد استنزفتهم الآن الجهود التي فرضتها عليهم هذه المعارك التي لاتنقطع فانتهى بهم الأمر لأن يشعروا بأنهم على آخر رمق (...) وفي مثل هذه الحال تلعب إرادة الانتصار

المحضة أكبر الأدوار» (Ibid ,I 1, 58- 59) . ومن المؤكد أن هذه الإرادة لابد أن تكون أكثر تصميماً لدى من تكون مصالحه هي الأكثر أهمية في هذه اللعبة . وكانت روما هي التي كانت صقلية تقدم لها أعظم الفوائد وأكبر الإغراء .

وعلى الرغم من الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها بعض ممثلي حزب الحرب البارزين وفي مقدمتهم أسرة الكوديين وكلفت الأمة الكثير من الخسائر نتيجة للحصار الذي فُرض على أبيوس كلوديوس ومراكبه في مسينا وقيام ب. كلوديوس بولشر بإقحام أسطوله بصورة حمقاء في ميناء دريبان حيث تم تدميره فإن هذه العائلة ذات الأصل الكامباني كانت لاتزال تتمتع بنفوذ يسمح لها بفرض وجهات نظرها . وهكذا لجأ مجلس الشيوخ إلى نوع من قرض إجباري وجب على المواطنين الموسرين الاكتتاب فيه لبناء مائتين من المراكب ذات الصفوف الخمسة من المجاذيف وتزويدها بما هي في حاجة إليه من عتاد . وفي مطلع الصيف من عام ٢٤٢ كان القنصل ك. لوتاتيوس كاتولوس يقود أسطوله ويتخذ له مواقع أمام دريبان . وقد فوجئت قرطاجة مفاجأة كبيرة من المبادرة الرومانية فاستعجلت في تسليح مراكب كانت مشحونة بالقمح مع طواقم من بحارة مبتدئين جمعوا على عجل بحيث أبحرت في آذار مارس من عام ٢٤١ لتنضم إلى مواقع حملقرت . ولكن عندما أصبحت هذه القافلة البونية الثقيلة أمام جزر أيغاتس في عرض البحر من ليليبي هاجمتها وحدات رومانية خفيفة من كل حمولة قد تدرب مجذفوها على المناورات أكمل تدريب فكان النصر سريعاً وخسر القرطاجيون مائة وعشرين مركباً وأسر منها سبعون مع مايقارب العشرة آلاف من الرجال .

أما حاميات دريبان وليليبي وإيريكس التي كانت تحتفظ بمواقعها سليمة ولم تفقد شيئاً من جاهزيتها القتالية فكانت مصممة على متابعة المقاومة . ولكن حملقرت تلقى من قرطاجة أمراً في فتح محادثات الهدنة فسارع القنصل الروماني بقبول هذه المفاتحات وعرض شروطه لإقامة « علاقات صداقة » . وبعد تدخل من لجنة من الشيوخ تشددت في الشروط عقد حملقرت معاهدة الصلح تلك التي تعهد فيها القرطاجيون بإخلاء كامل صقلية « وكل الجزر الواقعة بين صقلية

وإيطاليا» (جزر ليباري) وأن يعيدوا للرومان كل أسراهم بدون مقابل وألا يشنوا الحرب على السيراكوزيين وحلفائهم وأن يدفعوا خلال عشر سنوات غرامه مقدارها ثلاثة آلاف ومائتا تالنت ، وأضيفت شروط ثانوية تتعلق بحلفاء الجانبين وتنص على بعض الممنوعات في تجنيد المرتزقة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا قررت قرطاجة فجأةً - بعد هزيمة بحرية لم تحمل ضربة مميتة إلى مواقعها العسكرية في صقلية - أن تنسحب من مشروع بذلت فيه الكثير من البسالات الإنسانية والثروات الطائلة بينما كانت روما هي التي كابدت في الحقيقة أعظم المصائب في هذه الحرب حتى أنها رأت قنصلين من قناصلها أسيرين بيد البونيين هما كينوس كورنيليوس سكيبيون في ليبارا وم. أتيليوس ريغولوس في أفريقيا ؟ وقد سجل بوليب بنفسه الخسائر البحرية عندما قال : « إن الرومان أثناء الصراع لم يفقدوا أقل من سبعمائة مركبٍ بما فيها تلك التي دُمرت في حوادث الغرق ، أما القرطاجيون فقد خسروا منها من جهتهم حوالي الخمسمائة » . (I,1,63) .

إن السبب العميق للتخلي عن صقلية لابد أن يُبحث عنه خارج أحداث الصراع العسكري نفسه . حقاً إنه لاينبغي نسيان أن العاصمة البونية كانت قد تحملت من أعباء الحرب وأنها ربما عانت أكثر من عدوتها روما التي نالت مساعدة سيراكوز وأفادت فائدة كبيرة من حلفائها الايطاليين في تجنيد الجيوش وعملت في خدمتها ترسانات نابولي وترسانات كل اليونان الكبرى من أمثال إيليا ولوكريس وتارنت ، ولكن الكلال الذي أصاب قرطاجة لايفسر مع ذلك كل شيء . فالعاصمة الكبيرة كانت قد جُرّت إلى هذه الحرب للدفاع عن بعض المواقع التي كانت جزءاً من جهازها القتالي المعقد الذي كان يؤمن لها السيطرة على البحر المتوسط الغربي . ومع ذلك فإن القرطاجيين لم يكونوا يعتبرون أن الدور الذي تلعبه صقلية في هذا المجال كان أساسياً ، فبعيداً عن صقلية وبرغم كل المعارك التي خاضوها ضد الإغريق - بدءاً من معركة هيمير المشؤومة عام ٤٨٠ - ألم يبقوا مقيمين في « إقليمهم » الضيق ؟ . يضاف إلى ذلك أنه في المعاهدات الموقعة

مع الجمهورية الرومانية لم تذكر قط إلا العلاقات التجارية مع صقلية القرطاجية التي خضعت لبعض القيود ، بينما منعت على الرومان في المقابل منعاً باتاً كل تجارة في أفريقيا وسردينيا اللتين كانتا تشكلان المجالين الخاصين للقرطاجيين . والخلاصة أن الحكومة القرطاجية بعد أن أجرت حساباتها لم تعتبر أن هذا التخلي يمكن أن يودي إلى تفكيك شبكتها التجارية القائمة . وكانت عائلة أوليغاركية متنفذة قد استخدمت نفوذها من جهة أخرى لقبول قرار الانسحاب هذا طالما كانت الحرب مخربة لثروات البلاد ، وانتصرت في النهاية وجهة النظر هذه لاسيما بعد أن بدا في الحساب الختامي تعويضاً وازن ضياع صقلية .

وكنا رأينا أن نوميدين كانوا قد ثاروا على قرطاجة مستفيدين من الغزوة التي قام بها ريغولوس . وكانت الحكومة القرطاجية في الواقع ـ من أجل مواجهة صعوباتها المالية والتخفيف من وطأتها ـ قد أخضعت السكان الأفريقيين لتدابير جور وظلم وابتزاز كانت حقاً بعيدة عن كل احتمال .

وكان بين حكام الولايات رجل يسمى حنّون الكبير ـ يجب أن لاتخلط شخصيته بشخصية من كان يحمل الاسم نفسه من القرن السابق ـ قد اشتهر بالقسوة التي كان يستخدمها في الخاضعين لإدارته . وهذا الشخص هو نفسه من كُلّف بدءاً من عام ٢٤٧ بإعادة النظام إلى المقاطعات المضطربة بعد حملقرت الذي كان موفداً يومذاك إلى صقلية . ولم يكتف هذا الحاكم بإخضاع القبائل المتمردة التي كان عليها إضافة إلى المساهمة في نفقات الدولة أن تتكفل بنفقات الجيوش المقيمة فوق أراضيها بل شرع بعمليات فتح وتوسيع للمتلكات البونية على أوسع نطاق، وعلى هذا الأساس أشار كل من ديودور الصقلي (XXIV,10, 2) وبوليب (I, 2, 73) إلى احتلال المدينة الأفريقية الكبيرة هيكاتومبيلوس (تبسة في الجنوب الشرقي من الجزائر) وهو نجاح جعل حنّون الكبير في النهاية يستحق اسم قائد القوات القرطاجية في ليبيا . ولنذكر في جهة أخرى أن قرطاجة في الوقت الذي كانت توقع الصلح فيه مع روما كانت تحتل سيكا (الكف) أيضاً حيث تجمع المرتزقة المنسحبون من صقلية . وكانت سياسة توسيع المجال الليبي هذه ترضي

تماماً أولئك الذين كانوا قد شرعوا منذ زمن طويل يقتطعون لأنفسهم إقطاعات Latifundia في المناطق الريفية الشديدة الخصب حيث كانوا يجدون فيها حقاً مصدراً لثروة مضمونة تحل محل المنافع المشكوك فيها والتي كانت تؤمنها التجارة مع صقلية .

وهكذا يمكننا أن نشاهد في عائلات قرطاجة الكبيرة النافذة تصادم مفهومين عن الأمبريالية أولهما أكثر « واقعية » من حيث الظاهر وقد استدار نحو أفريقيا في بادىء الأمر، والثاني بقي مخلصاً لحلم الماضي الكبير وسيكون مفهوم البرقاويين (أسرة برقة) Parcides المتطلعين بالدرجة الأولى إلى البحر المتوسط . ومن البديهي أن المصالح كانت شديدة التعقيد في معظم الأحيان كما أن الخيارات السياسية كانت صعبة الثبات . وكانت العصبة المتنفذة الممثلة في حنّون الكبير مستعدة لإقامة علاقات وثيقة مع روما وتجد بدون عناء طموحات مشابهة لطموحاتها في وجهات النظر الحكيمة التي كانت تدافع عنها عناصر من أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر محافظة من أمثال جماعة الفابيين Fabii . وكانت تظهر تواطؤات غنية بالوعود لتشجيع المصالح المتبادلة والسير بها قدماً إلى الأمام، ولكن معاهدة عام ٢٤١ لم تحمل السلام إلى قرطاجة وفي أفريقيا نفسها في الواقع حلا للحرب المقام .

حرب المرتزقة و« الحرب الأفريقية »

من المعروف أن السياسة التي نادى بها حنّون الكبير وأنصاره كانت وضع نهاية للنزاع الذي كان يتطلب عبئاً كبيراً أصاب خزانة الدولة بالخراب . وكانت قرطاجة قد حاولت بدون نجاح أن تحصل من بطليموس الثاني فيلادلفوس على قرض من ألفي تالنت ولكن ملك مصر كان يرفض بحجة أنه لايريد أن يكون طرفاً في الحرب بين الدولتين . ومن جهة أخرى كانت المعاهدة المعقودة مع روما تتطلب دفع ألف تالنت فوراً من الغرامة المفروضة . وفي هذه الظروف قررت الحكومة البونية أن ترجىء إلى أيام أكثر رخاء دفع الأجور والمكافآت للمرتزقة من الجنود ولكن الأوليغاركيين الذين كانوا على رأس الحكم يومذاك ارتكبوا مرة

أخرى بتصرفهم هذا خطيئة لاتغتفر لأن حرباً ضروساً سيشتد أوارها وستكتسح ممتلكات قرطاجة الأفريقية لمدة ثلاث سنوات وأربعة أشهر ممتدة مابين خريف عام ٢٤١ وحتى نهاية عام ٢٣٨ واضعة الدولة على حافة الهاوية .

وكان هاميلكار (حملقرت) ـ بعد أن تلقى الأمر بالتفاوض مع القنصل كاتولوس ووقع معاهدة هيئت بنودها في روما ـ لم يكن يرغب بضمان السياسة التي فرضها أصحاب المزارع الكبيرة لمدة أطول مما فعل فعاد إلى أفريقيا حيث بقي في معزل عن كل نشاط منهمكاً بتقوية علاقاته مع طائفة أولئك الذين كانوا كارهين لوجهات نظر حنّون الكبير . أما جيسكون قائد موقع ليليبي في صقلية فكان قد تلقى أمر تنفيذ مهمة ثقيلة هي القيام بعمليات تسريح الجيش ، فبموجب مانصت عليه المعاهدة كان الأمر يتعلق في الواقع بالإخلاء السريع للمواقع التي كان لايزال يشغلها العشرون ألفاً من الجنود الذين كانوا ينتظرون بفارغ صبر أن تسدد لهم متأخرات حساباتهم . وكان منهم من المرتزقة المتمهنين الذين وجدوا أنفسهم فجأة أمام حالة من عدم الاطمئنان للغد ولم تكن هذه الحالة تساهم في تهدئة النفوس . وكان يوجد بينهم إيبريون وغاليون وبعض الليغوريين والبالياريين وأولئك الذين أطلق عليهم بوليب ـ مصدرنا الأساسي في هذه الأحداث ـ اسم « أنصاف الإغريق » (I , 2 , 67) . على أن أكثرهم عدداً كانوا الليبيين رعايا قرطاجة الذين كان بينهم ـ إلى جانب الذين التحقوا طواعية ـ رجال جُندوا بالقرعة ولم يكونوا يُعدون إذن في ملاكات المرتزقة .

وقد اتخذ جيسكون التدابير اللازمة لنقل هذه القوات إلى أفريقيا مراعياً أن يكون هذا النقل على مراحل ليترك الوقت للحكومة كي تسوي أمر أجور الكتائب كلما وصلت ولتطرد فوراً الغرباء من أفرادها نحو بلادهم الأصلية. وكان يجب في الواقع تجنب أن تتمركز هذه الجيوش حول قرطاجة ولكن هذا ماحدث بالفعل . فتحتَ حجة الصعوبات المالية تُرك المرتزقة يتكتلون شيئاً فشيئاً على أمل أنه يمكن حسم الأمر دفعة واحدة مع الجيش المتجمع بكامله وجعله يتنازل بسهولة عن جزء من المبالغ المستحقة له . ولكن عندما لوحظ أن التذمرات يتفاقم أمرها

ليل نهار تلقى الضباطُ أوامرَ بقيادة كل رجالهم إلى سيكا (الكف على بعد مائتي كيلومتر من قرطاجة) في انتظار أن تجمع الأموال الضرورية لهم . والحقيقة أن هذا الحساب كان قصير النظر وتجنب الخطر الناجم عنه بصورة مؤقتة لم يكن حلاً فيه شيء من الحصافة .

وقد بدا ذلك جيداً عندما قدِم حنّون الكبير إلى سيكا وهو يتصرف كحاكم عسكري للمتلكات القرطاجية في أفريقيا ذاكراً الضائقة المالية التي تعاني منها الأمة وطالباً من هؤلاء الرجال أن يضحوا بقسط من استحقاقاتهم الواردة في العقود النظامية . وكانت البلبة والاضطراب كبيرين بمقدار ماكان معظم المرتزقة يجهلون اللغة البونية ويأخذون من بعض ضباطهم بدافع الخبث ترجمات خاطئة لخطاب القائد القرطاجي . والخلاصة أن مهمة هذا القائد أضافت إلى الطين بلة. وبعد أن يئس الجنود من هذه المناورات تركوا مقامهم في سيكا وقدموا ينصبون معسكرهم بالقرب من تونس فشعرت قرطاجة عندئذ بضخامة التمرد الذي أصبح يهددها بصورة مباشرة .

وسعى أعضاء مجلس الشيوخ القدماء إلى تهدئة المتمردين بالوعود ونُظمت أسواق لتموينهم على أن تكون الأسعار فيها مما يستطيعون دفعه في البضائع ولكن المتمردين ردوا على هذه التنازلات التي قدمت لهم بتقديم مطالب جديدة : فبعد الأجور المترتبة لهم طالبوا بغرامات على الخيول التي قُتلت أثناء العمليات في صقلية مع العلم بأن الفرسان عند انخراطهم في الجيش كانوا يتلقون خيولهم من الدولة ، ثم أن تدفع لهم جرايات من القمح حسبت أسعارها بأعلى ماوصلت إليه أسعار الحبوب خلال سنوات الحرب . وأتى جيسكون بنفسه ـ وكان يثق بجنوده القدماء ـ ليدفع لهم متأخرات أجورهم وحاول في هذه المناسبة أن يعيدهم إلى الرشد وأن يحضهم على الولاء لقرطاجة . أما الأكثر سخطاً ، وهم أولئك الذين لهم أسباب شخصية في متابعة التمرد ـ فقد أدركوا وجود خطر عليهم إذا ماتم الوصول إلى المصالحة . وقام رجل اسمه سبانديو ـ وهو عبد كمباني قديم آبق من الرومان ويخشى أن يطالب به سيده ويقدمه للعذاب والموت وفقاً للقانون الروماني

ـ فانضم إلى أفريقي اسمه ماتو كان مثيراً للفتن وغدا هذان الشخصان المثيرين الأساسيين لاستمرار الاضطراب ، أو هكذا على الأقل ماتقدمه المصادر التي نعتمد عليها. وصمم هذان الرجلان أن يمنعا الوصول إلى أية تهدئة وأخذا يقومان بأعمال سلب ونهب وقيدا جيسكون وأفراد بطانته وجعلوهم أسرى لديهما ، وبعد أن تبادلا الأيمان فيما بينهما وجدا نفسيهما في حالة حرب مفتوحة مع قرطاجة .

والحقيقة أن الأمر لم يكن مجرد « حرب مرتزقة » بدأت وإنما كان أيضاً «حرباً أفريقية » . فبعد أن أرسل ماتو ورفاقه مبعوثيهم إلى كل المدن الليبية قاموا يجتهدون ماوسعهم ذلك في الدعاية للعصيان ، وماكان لايزال فتنة نجمت عن مساومة أملت من ورائها السلطة الحكومية أن تخفف من ديونها بإنقاصها أجور جنودها القدماء إلى أدنى الحدود ستنقلب إلى ثورة اجتماعية واسعة النطاق .

وانتشرت حركة التمرد بكل سهولة في الأراضي التي كان السكان الوطنيون خضعوا فيها كما لاحظنا للاستغلال ولتدابير مالية جائرة منذ بدء الحرب في صقلية ولم تؤد عمليات « التهدئة » والفتح التي جرت على أثر نزول ريغولوس إلا إلى ازدياد السخط وساهمت كذلك في انفجار هذا النوع من « ثورة الفلاحين العامة» الأفريقيين . وقد كتب بوليب : « وقف كل السكان الأفريقيين تقريباً إلى جانب المرتزقة وانضموا إلى الثورة في وجه قرطاجة وسارعوا إلى مد الثورة بالمؤن والنجدات (...) أما النساء اللواتي لم ينقطعن خلال السنوات السابقة عن مشاهدة أعمال التوقيف التي كان ضحيتها أزواجهن أو آباؤهن الذين كان يُطلب منهم دفع ماعليهم من الضرائب وهن عاجزات عن أن يفعلن شيئاً فقد تحالفن فيما بينهن بالإيمان ، كل مدينة بنسائها، على ألا يتكتمن عن شيء مما كنّ يمتلكن ، وهكذا نزعن كل حليّهن دون تردد لتغذية صندوق الحرب » (I,2, 70et 72) ، وبذلك تمكن ماتو وسبنديو من دفع متأخرات الجنود كما كانا قد وعدا بذلك في سبيل جرّ زملائهما وتكفلا بكل النفقات الضرورية التي تتطلبها الثورة .

ويمكن أن يكون عدد الليبيين الذين انضموا إلى المتمردين سبعين ألفاً ـ وهو رقم لايمكن الجزم به بطبيعة الحال ـ مهددين بذلك قرطاجة وفارضين الحصار على أوتيكا . أما حنون الكبير الذي تم تعيينه من قبل الأوليغاركيين من حزبه فقد جمع جيشاً مؤلفاً من المرتزقة ومن المواطنين ويدعمه حوالي مائة من الأفيال وتمكن من إنقاذ أوتيكا ولكن نجاحه كان بدون نتيجة ، فهذا القائد الذي كان قد اعتاد على عمليات عسكرية سهلة ضد السكان المدنيين بدا قليل الكفاءة في قيادة حرب فوُضع في الاحتياط دون أن ينحى عن منصبه واستُدعي هاميلكار (حملقرت) برقة الذي بدا الضابط الوحيد القادر على دفع الأخطار .

توصل هاميلكار (حملقرت) بمناورة ماهرة عند مصب نهر المجردة من فك الحصار عن أوتيكا في بادىء الأمر ملحقاً الهزيمة بالليبيين والمرتزقة الذين تكبدوا خسائر فادحة ثم دخل في علاقة مع زعيم نوميدي اسمه نافارا له مكانة مرموقة بين أتباعه أمّن له دعماً مجدياً جداً مولفاً من ألفين من الفرسان فتحمل المتمردون عندئذ هزيمة جديدة حيث أُسر منهم أربعة آلاف وتركوا عشرة آلاف جثة في ساحة القتال . وتابع هاميلكار (حملقرت) سياسة المصالحة فاستقبل الأسرى الذين طلبوا أن يعودوا إلى خدمة الجيش بينما أطلق سراح الآخرين الذين وعدوا ألا يحملوا السلاح في وجه قرطاجة بعد الآن .

وفهم زعماء المتمردين بدون لأي أن هذا الكرم كان محسوباً حسابه لتقويض سلطتهم وأنه كان تهديداً لتماسك جيشهم . وعلى هذا التسامح السياسي قرروا إذن أن يردوا بتدبير جذري شديد يجعل من المستحيل بعد الآن قيام أية محاولة للمصالحة أو التسويه بينهم وبين القرطاجيين ـ وكان أوتاريتوس ـ وهو غاليٌ خدم مدة طويلة في جيوش قرطاجة ويعرف اللغةَ البونية ـ وراء هذا التصعيد الذي يجب الوصول إليه في هذه الحرب « غير القابلة للتهدئة » . كان شرساً قاسياً همجياً لايحترم أية اتفاقات مما يكون مقبولاً في العادة بين المتنازعين. وتقرر بناء على اقتراحه أن يعدم تحت العذاب كل من جيسكون ورفاقه وسبعمائة من الأسرى القرطاجيين « فاقتيدوا غير بعيد من هناك وقطعت

أيديهم في البدء مبتدئين بجيسكون الرجل الذي كان المرتزقة قد عدّوه قبل قليل من الوقت من بين كل القرطاجيين الآخرين محسناً إليهم واختاروه ليعرضوا عليه خلافاتهم مع قرطاجة . وبعد أن قطعوا أيدي الأسرى قطعوا أيضاً بقية أطرافهم، وعندما تم تشويههم على هذه الصورة . وبعد أن أحرقت سيقانهم ألقوا في حفرة جثثَ هؤلاء التعساء الذين كانوا لايزالون يتنفسون » (ibid I ,2,81) .

هذه القسوة الوحشية أثارت سكان قرطاجة إلى أبعد الحدود وطُلب من هاميلكار (حملقرت) وحنون الكبير توحيد جهودهم للانتقام للضحايا . وأمر هاميلكار (حملقرت) في البدء بإعدام كل الأسرى الذين كانوا يحتفظ بهم ، أما أولئك الذين يقعون في الأسر بعد اليوم فقرر أن يوضعوا تحت أقدام الفيلة لتدوسهم وتسحقهم . إلا أن محاولة التعاون بين القائدين المتنافسين مالبثت أن أدت إلى الفشل السريع لعظم ماكان بينهما من خلافات سياسية . وأفاد المتمردون من شلل القوات البونية الناجم عن هذا الوضع فرجحت كفتهم . وكان من الملحّ أن يتم تدخل مجدٍ وأن يتم إصلاح القيادة العسكرية من جديد ، فعُهِد إلى الجنود أنفسهم بأمر اختيار واحد من القائدين ليضطلع وحده بإدارة العمليات فكان هذا نوعاً من بدعة « ديمقراطية » أفاد منها هاميلكار (حملقرت) الذي تم انتخابه (وكان هذا في غير صالح مجلس القدماء ولافي مصلحة بعض ماكان يتمتع من امتيازات) .

وكان يتوجب على القائد البرقاوي * أن يواجه وضعاً متدهوراً إلى أبعد الحدود . فقد انتقلت كل من أوتيكا وهيبو أكرا (بيزرت) منذ فترة وجيزة إلى معسكر المتمردين ، والمراكب التي كانت قادمة من أيبوريا حاملة الأقوات إلى قرطاجة غرقت في البحر وأصبحت العاصمة مهددة بالمجاعة . واستغاث القرطاجيون مرة أخرى بهيرون ملك سراكوزا الذي سارع لتلبية طلبهم وكانت له مصلحة كبيرة لإصلاح شأن الدولة التي كانت تستطيع أن توازن قوة جيرانه

* نسبة إلى أسرة برقة Barcides التي ينتمي إليها هاميلكار - المترجم -

المقلقة . أما الرومان أنفسهم فإنهم لم يفيدوا من الصعوبات التي كان يتعرض لها أعداء الأمس . وكانت قد وصلت في الأيام الأولى من الثورة مراكب من إيطاليا تحمل الأقوات للمتمردين فأثار ذلك استنكاراً حاداً لدى الحكومة البونية . وكانت العائلة التي أخذت المبادرة في توقيع معاهدة عام ٢٤١ لاتزال تسيطر على الأوليغاركية التي تستلم السلطة في روما وتحرص على أن تبقى تلك المعاهدة مرعية الإجراء ، وهكذا حرصت روما منذ ذلك الوقت على أن تتصرف كصديقة للقرطاجيين فدُعِيَ التجار لأن يلبوا طلبات التموين التي توجه إليهم على خير مايستطيعون وصدرت في المقابل أوامر المنع عن القيام بمساعدة المتمردين . وأكثر من ذلك أن مجلس الشيوخ رفض عرض المرتزقة السردينيين في أن يسلموه الجزيرة كما رفض أيضاً عرضاً قدمته أوتيكا بأن تنتقل إلى سلطان روما . وكان الرومانيون يعلنون بأنهم معنيون باحترام بنود المعاهدة المعقودة في صقلية .

في خلال ذلك كان هاميلكار (حملقرت) يقوي ضغطه على خصومه باستمرار ويناوشهم رغم بعض النكسات . وأخيراً أصبح المرتزقة معزولين وتمت محاصرتهم في منطقة ضيقة حتى أزعجتهم فقتلوا الأسرى والعبيد وتغذوا بلحومهم البشرية . وبما أن الحالة غدت ميئوساً منها توجهت بعثة مؤلفة من عشرة أعضاء من بينهم سبانديو وأوتاريتوس إلى معسكر البونيين للتفاوض حيث تم الاتفاق على أن يحتفظ القرطاجيون بعشرة رجال يختارونهم من بين المتمردين بينما يستطيع الآخرون أن يمضوا في سبيلهم بعد أن يتركوا أعتدتهم وأسلحتهم. وأعلن هاميلكار (حملقرت) عندئذ أن اختياره وقع على الاحتفاظ بالمفاوضين العشرة وكان الفخ محكماً . والواقع أن المرتزقة الذين كانوا يجهلون لماذا تم توقيف مبعوثيهم ـ وكان عدد هؤلاء المرتزقة أكثر من أربعين ألفاً بحسب مايذكره بوليب (I ,2, 85) ـ هرعوا إلى أسلحتهم ولكنهم كانوا محاطين بالجيوش البونية وأفيالها فسحقوا تحت أقدامها . ويضيف المؤرخ : « إن المكان الذي جرت فيه هذه المجزرة يسمى المنشار تشبيهاً ، والواقع أن له الشبه بالآلة التي تحمل هذا الاسم » . وإذا لم يتم حتى الآن بصورة مؤكدة تحديد هذا المكان الذي أطلق عليه

فلوبير الاسم المعبّر « مجاز البلطة » فإن من الممكن مع ذلك أن يكون موقعه من منطقة ريساس الجبلية بين زغوان وغرومباليا .

كانت الحرب هناك في آخر انتفاضاتها التي لم تكن أقلها عنفاً . وكان السكان الأفريقيون في المدن والأرياف مأخوذين بالجيش المنتصر يقدمون له الخضوع . ومع ذلك بقيت تونس في يد ماتو . وقبل أن ينخرط هاميلكار (حملقرت) في عملية ضد القائد الليبي قام بصلب سبانديو والأسرى الآخرين أمام سور المدينة على مرأى رفاقهم في السلاح . ولكن الرد لم يتأخر فقد أفاد ماتو من الاهمال في معاقل الجيوش البونية فأنزل بها خسائر فادحة وأخذ في الأسر قائداً يسمى هانيبال كان قد انتخبه مجلس الشعب ليكون مساعداً لهاميلكار على رأس الجيش . «فاقتيد فوراً إلى قرب صليب سبانديو وأنزلت به أنواع من التعذيب الشديد ثم ستروه حياً على الصليب الذين انتزعوا منه جسد سبانديو . وأخيراً وبالقرب من جثة هذا الأخير ذبحوا ثلاثين قرطاجياً من أعلى الرتب » (ibid I ,2 ,86) . وبعد أن قام ماتو بهذا العمل الانتقامي الذي يذكرنا بمذبحة الثلاثة آلاف أسير الذين قدمهم القرطاجيون ضحايا تكفيرية على أثر استيلائهم على هيميرا عام ٤٠٩ وفي المكان الذي لاقى في هاميلكار (حملقرت) الماغوني الموت غادر ماتو تونس .

وكما حدث قبل عامين بعد مقتل جيسكون فإن الحكومة القرطاجية اعتبرت أن هاميلكار (حملقرت) بدا عاجزاً عن منع هذا العمل الوحشي وأنها لاتستطيع أن تترك له المسؤولية كاملة في متابعة العمليات . وكانت تلك فرصة أمام مجلس القدماء ليستعيد صلاحياته وأن يعيد في الوقت نفسه لحنّون الكبير الذي أزاحه الجنود ماكان له من وظائف . وقد نظمت لجنة مؤلفة من ثلاثين عضواً من المجلس مقابلة بين القائدين المتنافسين وتوصلت إلى مصالحتهما وقبلا أن يعملا على أساس من الاتفاق المشترك . وتتالت بعدذلك العمليات العسكرية في منطقة ليبتيس مينور (جنوبي السوس) وحشدت النجدات في هذا الجانب وذاك وتصادمت الجيوش في المعركة الفاصلة . وكان نصر القرطاجيين كاملاً : قُتل

معظم الليبيين واستسلم الباقون بعد قليل وأخذ ماتو حياً مع بعض رفاقه ووجب عليه أن يظهر في موكب نظمته في العاصمة الشبيبة القرطاجية . وفي يوم النصر هذا وأمام أعين جميع السكان أخمدت أنفاسه تحت التعذيب .

انتهت الحرب . « كانت مصحوبة ـ كما كتب بوليب ـ بفرط من القسوة تجاوز كل ماأمكن رؤيته حتى ذلك التاريخ » (I, 2, 88) . ولكن نصر قرطاجة كان مراً. وعلى طول هذه السنوات الثلاث لاحظت روما أن الأوليغاركيين من عصبة حنّون لم يكفوا عن خسارة نفوذهم لمصلحة أنصار القائد البرقاوي الذي أثبت أنه المنتصر الحقيقي في هذه الحرب الأفريقية .

هذا الانقلاب في السياسة الداخلية القرطاجية الذي فتح الطريق أمام مغامرات الإصلاحات الديمقراطية لم يمض بدون أن يقلق عصبة مجلس الشيوخ الروماني « الأمبريالية » . والواقع أن التأويلات التي أبداها الشيوخ كانت في محلها. فما كادت العمليات العسكرية في قبائل النوميديين تنتهي حتى استدعي حنون ـ الذي كان موضوعاً لكثير من الانتقادات ـ إلى قرطاجة وأضاع نهائياً منصبه القيادي . وفي مقابل ذلك ، ورغم الدعوى التي أقامها عليه خصومه بتهمة اختلاسات مزعومة في صقليا ، فإن هاميلكار (حملقرت) أفاد من دعم رجال سياسة متنفذين من أمثال هازدروبال (عزر بعل) صهره الجديد وأصبح القائد الأعلى لكل القوات البونية في أفريقيا وهو منصب حافظ عليه حتى عندما تقلد منصبه في إسبانيا .

كان في ذلك إشارات لالبس فيها عن السياسة التي سترجح في قرطاجة . ولم يكن مجلس الشيوخ الروماني يستطيع أن يأمن لسياسة الهيمنة البونية هذه على البحر المتوسط . ولم يكن الرومانيون ينسون أن صديقتهم « الجديدة » كانت أيضاً ـ وبوجه خاص ـ العدوة التي أوشكت أن تدمرهم خلال حرب صقلية الطويلة الأمد . ومن جهة أخرى فإنهم أعادوا النظر بسهولة في أوضاعهم تجاه البونيين سيما وأنهم هم الذين يدعون بأنهم يقيمون تحالفاتهم على فضيلة أساسية هي الثقة ـ الثقة المتبادلة واحترام الارتباطات ـ وجدوا أن هذه الثقة البونية

ليست إلا إشهاراً كاملاً للغدر و« النية السيئة » .

من أجل هذا عندما عرض المرتزقة المتمردون في سردينيا للمرة الثانية عام ٢٣٨ ـ في سعيهم لإيجاد ملجأ لهم في إيطاليا تحت ضغط القبائل المحلية ـ أن ينظموا حملة للاستيلاء على هذه المستعمرة القرطاجية أصغى مجلس الشيوخ الروماني عن طيب خاطر لهذا النداء الملائم جداً وقرر غزو الجزيرة الكبيرة كما لو أنه يغزو ممتلكات مهجورة ليس لها مالكون .

حقاً كان ذلك هو الخرق الوحيد لمعاهدة عام ٢٤١ ولم تجد الاعتراضات القرطاجية كلها في شيء . عند ذلك جهزت الحكومة البونية حملة لإعادة الأوضاع التي عرضها المتمردون للخطر إلى حالها . وتظاهر الرومان بأنهم يؤمنون بأن هذه الاستعدادات كانت موجهة ضدهم فاتخذوا منها حجة للتصويت على الحرب . وبما أن القرطاجيين كانوا منهمكين إلى أبعد الحدود بسبب الحربين المتتاليتين اللتين خرجوا منهما فإنهما لم يستطيعوا أن يقبلوا التحدي ووجدوا أنفسهم مجبرين على التخلي عن سردينيا ودفع غرامة إضافية مقدارها ألف ومئتا تالنت . وكلف الرومان القنصل تيبريوس سمبرونيوس جراكوس بالذهاب لامتلاك الجزيرة فقام باحتلال جزيرة كورسيكا في الوقت نفسه .

هذا الموقف الوقح الذي وقفه مجلس الشيوخ الروماني أدى في الواقع إلى نتيجة معكوسة لما كان يسعى إليه . كانت النتيجة أبعد من أن توجه ضربة إلى شعبية هاميلكار (حملقرت) ومن أن تحطم سيطرة عائلته على الحكومة القرطاجية بل انها على العكس من ذلك ساهمت في توطيدها أكثر فأكثر . وفي الوقت نفسه جعلت روما مشروعَ أسرة برقة الطموح ممكن التحقيق .

« حرب هانيبال (حن بعل) »

« لم تكن نفس هاميلكار (حملقرت) المتكبرة تتعزى ـ كما كتب تيت ليف ـ عن ضياع صقلية وسردينيا ، فيأس قصير الأمد جداً أدى إلى تسليم صقلية حسبما كان يقول ، بينما أفاد الرومان من الاضطرابات في أفريقيا لانتزاع

سردينيا غدراً ولأن يفرضوا عليها جزية جديدة » (XXI,1) . ونجد فكرة حرب « الانتقام » هذه موجودة عند بوليب . فعندما مضى حملقرت برقة لبناء إمبراطورية في إسبانيا ـ كما كتب المؤرخ الإغريقي ـ كان مدفوعاً في بادىء الأمر « بشعور شخصي » موجه ضد روما . كان يشارك مواطنيه السخط عليها على أثر مسألة سردينيا « فرمى نفسه إلى فتح إسبانيا معتمداً على أن هذه البلاد ستقدم له المصادر الضرورية لشن الحرب على الرومان » (III,1,10) .

ولكن طموحات القائد القرطاجي كانت بدون شك أرفع من ذلك . فعندما عاد إلى بلاد ترشيش هذه التي كانت قد ساهمت مساهمة كبيرة في رخاء صور كان ينوي من جهة أن يستثمر استثماراً منهجياً ثروات سييراموربنا المعدنية وأن يقيم من جهة أخرى قاعدة برية عريضة وعميقة وبعيدة بعداً كافياً عن « عُشّ الزنابير » الروماني تستطيع قرطاجة فيها أن تسترد أنفاسها وتستخدمها نقطة انطلاق تندفع منها لاستعادة هيمنتها على « بحر صور » وللقيام باكتشاف آفاق جديدة . ولانجد فيما ذكرنا مايدل على فكر انتقامي ولكنه طموح فاتح يريد أن يستأنف المغامرة في لحظة عطالة . فخطة عائلة برقة Les Barcides لم تكن إذن القيام برد انتقامي متأخرعلى ضربات القرصنة الرومانية وإنما أن يكونوا على مستوى أن يفرضوا عودة إلى « الحالة الراهنة السابقة » في البحر المتوسط وهو شرط أساسي للمحافظة على احتكار التجارة في الجزر فيما وراء أعمدة هرقل على سواحل الأطلسي .

وفي بضع سنين كانت العاصمة الأفريقية قد رمَّمت ميزانيتها بفضل شحنات المراكب الثمينة التي عادت إلى مرافئها . ويقي عليها أن تبلغ هدفها الثاني . وعندما وجد هانيبال (حن بعل) الذي خلف عزر بعل (كما مر معنا سابقاً) أن الظروف أصبحت مواتية ـ في الوقت الذي كان فيه فتح إسبانيا مازال جارياً ـ فإنه عرف كيف يفيد بمهارة من قضية ساغونتي ليضع الخصم أمام خيارين : فإما أن يقبل بالعمل الذي تم في هذه المرحلة الأولى التي كانت قد قادت الجيش البوني ـ الذي كان قوياً من حيث الظاهر بحقه ـ إلى احتلال المدينة

الايبيرية التي كانت قد تحالفت مع روما منذ فترة قريبة ـ وهو نجاح في إعادة الهيبة دشن يومذاك نهوض قرطاجة من جديد ـ واما أن تنزلق في الطريق نزاع مسلح جديد مليء بالأخطار .

لقد قاومت ساغونتي ثمانية أشهر بعد أن فرض عليها الحصار ومنعت عنها المساعدات واعتبرت روما أن هذه المدينة كانت موضوعة تحت حمايتها وأن مهاجمتها إنما هي عدوان على الجمهورية نفسها . ولكن هذا الموضوع لم يجد له مستنداً قانونياً . والواقع أن اتفاقاً عُقد في عام ٢٢٦ بين سفارة لمجلس الشيوخ وبين عزر بعل خليفة هملقرت تعهد بكل بساطة بعدم القيام باختراق مسلح لنهر الأيبر على أساس أن الأراضي الواقعة جنوبي هذا النهر اعتبرت تابعة للسطات البونية . ومنذ أن وجه الرومانيون أوائل مندوبيهم إلى حكومة قرطاجة وجدوا في حنّون الكبير ـ حسب رواية أخذت عن تيت ليف ـ محامياً دافع عن قضيتهم بكل حمية وحماسة طالباً أن يسلّم إلى رومة ابن خصمه القديم باعتباره «شرارة الحرب » وذلك « كفارة عن المعاهدة المنتهكة » ، ولكن مجلس القدماء الذي كانت فيه عصبة البرقاوين ذات رجحان كبير منذ أحداث عام ٢٣٨ أظهر تضامنه مع القائد الفتي الذي كان له يومذاك ثمانية وعشرون عاماً والذي رد ـ باعتباره « روح الحرب » ـ إلى الأمة المهانة كرامتها وعزّتها .

ونحن نعرف الطرفة المنقولة عن بوليب (III ,1,33) وعن تيت ليف (XXI,12) التي تروي خبر اللقاء الأخير بين بعثة رومانية وبين حكومة قرطاجة. ففي آذار مارس من عام ٢١٨ قدمت بعثة مؤلفة من خمسة أعضاء يحدوها الأمل ـ كما حدث قبل عشرين سنة ـ بأنه يكفي أن يلوحوا بالتهديد بالحرب حتى يصلوا بدون أية نفقات إلى إخضاع « حليفهم » المقدام ، وعلى هذا الأساس طالبوا بأن يسلّم إلى رومة حن بعل ومستشاروه . فلُفت نظر المفاوضين عندئذ بكل بساطة إلى أنه في معاهدة عام٢٤١ التي وصلت عرى الصداقة بين الدولتين لم يأت ذكر لساغونتي وأن قرطاجة ليست ملتزمة بأي بند له علاقة بهذه المدينة التي لم تكن في ذلك الوقت حليفة للرومان . وفي حركة مسرحية لف بها ثوبه الروماني الفضاض لفة كبيرة صرح ك. فابيوس أكبر أعضاء السفارة سناً : «إنني

أحمل إلى هنا السلم والحرب ، فاختاروا ! » . وأجاب القاضي القرطاجي الذي كان يترأس الجلسة : « اختاروا أنتم » . وهز رئيس الوفد الروماني ثوبه الفضفاض وأعلن أنه يختار الحرب . وصاح كل القرطاجيين : « ونحن قبلناها وسنعرف كيف نخوضها بعد أن قبلناها » . وأعلنت الحرب منذ تلك اللحظة بين الجمهوريتين ودامت سبعة عشر عاماً .

وما أن أعلنت القطيعة حتى اعتمد مجلس الشيوخ الروماني خطة جريئة يمكن أن تسمح منذ البداية بتحطيم هجمات البونيين . فكان على كل من القنصلين أن يكون على رأس جيش مؤلف من فيلقين تساندهما كتائب مساعدة ليضربا الخصم ويشلاً حركته في نقطتين حساستين . وكانت مهمة تيبريوس سمبرونيوس لونغوس أن يحشد جيوشاً في ليليبي بغية إنزالها في أفريقيا حيث يستهدف مباشرة عاصمة الإمبرطورية البونية . أما ب. كورنيليوس سكيبيون فإنه سيمضي من بيزا وهو يقود حملة إلى إسبانيا ليقاتل الدولة القرطاجية في هذه «الإمبرطورية البرقاوية * Barcide» التي كانت منها القسم الأهم . ولكن الخصم تصرف بسرعة لدرجة أنه لم يترك للرومان وقتاً يوصلون فيه مشاريعهم إلى غايتها وانهارت تشكيلاتهم للقيام بالهجوم المضاد دفعة واحدة .

وكان حنبعل قد أخذ التدابير اللازمة لتدعيم الأمن فوق الأراضي البونية كي يتجنب أية تمردات محتملة ، فأرسل مشاة وفرساناً من الإيبريين إلى أفريقيا كما أرسل إليها رماة مقاليع من الباليار بينما أرسل مثل عدد هؤلاء تقريباً ـ أي خمسة عشر ألفاً من الأفريقيين ـ إلى إسبانيا . وعندما وصله خبر إعلان الحرب إلى قرطاجنة ** أظهر حن بعل أنه لم يكن فقط رجل عمل وقائداً حربياً ممتازاً تم تشكيله في مدرسة حملقرت وعزر بعل بل هو كذلك زعيم سياسي . كان مجارياً تماماً للصعوبات التي يعانيها الرومان في دمج سكان غاليا ماوراء الألب الذين خضعوا حديثاً لسطانهم فحرص على الا يهمل هذه القوات الحية التي كان

---

* نسبة إلى أسرة برقة المتنفذة في قرطاجة ـ المترجم ـ

** قرطاجنة على ساحل إسبانيا الشرقي ـ المترجم ـ

بإمكانها أن تكون مفيدة له . وهكذا أرسل مبعوثين إلى هؤلاء الناس الكلتيين الذين كانوا في حالة غليان ليسأل قادتهم أن يشتركوا معه في قتاله ضد العدو المشترك . وسارع غالتيو ماوراء الألب أنفسهم بأن أرسلوا إلى قرطاجنة وجهاء منهم يحملون وعداً بالمساعدة العسكرية كما حملوا تعليمات دقيقة في موضوع اجتياز جبال الألب وكذلك حول مشاعر البغضاء التي كان يغذيها سكان سهل البو تجاه الرومان . وبعد أن أصبح حنبعل قوياً بهذا التحالف الذي كان لابد منه للقيام بالهجوم المخطط عهد إلى أخيه هازدرو بعل (عزر بعل) بحكم إسبانيا تاركاً له التعليمات عن الطرائق التي يجب أن يستعملها في مهمته والتدابير التي يجب أن يتخذها في حالة غزو روماني .

في شهر أيار مايو من عام ٢١٨ ترك حنبعل قرطاجنة برفقة جيشه ، وبعد أن اجتاز نهر ايبرو الذي كان على بعد مائة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال من ساغونتي ويمثل خط الحدود بين منطقتي النفوذ المعترف به في اتفاق ٢٢٦ باشر بفتح طريق له بإخضاع قبائل إيبرية مستقرة بين مجرى النهر وجبال البيرنه ولكنه لم يتمكن من إخضاعها إلا بعد معارك قاسية وخسائر فادحة . وبما أن هذه المنطقة بقيت منطقة صعوبات فقد عهد بمراقبتها إلى حنّون أحد مساعديه وترك له من أجل ذلك كتيبة من الجنود . وحسبما يقول بوليب (III ,1,33 et 2,35) الذي رجع في ذلك إلى نقش حفر بأمر من حنبعل نفسه فإن الجيش البوني عندما وصل إلى بلاد الغال كان يضم خمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان وقطيعاً من سبعة وثلاثين من الأفيال .

وعندما أبلغ ب . كورنيليوس سكيبيون بتقدم جيوش الأعداء حاول أن يعرقله بإنزال جيشه في مرسيليا ولكن حنبعل الذي شق طريقه بمهارة تارة بالقوة وتارة بتوزيع الأموال بلغ الرون بأقصى سرعة في أوائل شهر آب . وهذا الأمر ليس فيه شك . وبما أنه أثّن لنفسه لدى سكان شواطىء النهر عدداً كبيراً من القوارب وبنى عدداً منها فإنه لجأ إلى القيام بحركة تطويق لتشتيت القبائل الغالية المعادية التي كانت تحتفظ بالضفة اليسرى من النهر . وبفضل مراكبه العديدة توصل إلى نقل كامل جيشه بما فيه الخيول ـ سابحة وراء صنادل ألجمت

إليها ـ والفيلة التي وضعت فوق نوع من جسر متحرك مؤلف من أطواف مغطاة بالعشب . وربما كان اجتياز الرون قد حدث بالقرب من التقاء النهر برافده سيز (عند خط عرض أورانج) .

كان حنبعل قد تجنب ملاقاة فيالق سكيبيون فلم يحدث إذن أي التحام طوال هذه المرحلة باستثناء اشتباك عنيف بين مجموعة من الفرسان النوميديين الذين أرسلوا لكشف الطريق وبين سرية رومانية . وقدم زعماء غاليون من سهل البو لينصحوا القائد بمتابعة مسيرته بدون تأخير ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه ليكونوا أدلة له على الطريق . أما بوبليوس سكيبيون فبعد أن عهد بفيلقيه إلى أخيه كنايوس الذي بعث بهما إلى إسبانيا عاد إلى إيطاليا وتسلّم قيادة جيش في ماوراء الألب منتظراً وصول الغازي .

وعندما وصل حنبعل إلى سفوح الألب ـ بعد أن صعد مجرى الإيزارا (ربما كان الإيزير) حتى بلاد الألوبروج ـ كان الخريف قد حل وتبدى ما كان يكتنف الحملة من صعوبات . وليس هنا مكان الرجوع إلى الفرضيات المختلفة التي تكوّنت لتتبع آثار الطريق الذي تبعه البونيون (٩٦) . فيمكننا القبول بأنهم اجتازوا الألب في منطقة محددة بين خانق كلابيي Clapier وممر سان برنار الصغير بعد أن وصلوا عن طريق وادي مورييين أو وداي تارانتيز . وبما أننا لانملك عملياً أية معطيات دقيقة فنحن إذن في مجال التخمينات .

بعد خمسة عشر يوماً من المسير وصل الجيش إلى أسفل المنحدر الإيطالي . ويحسب الأرقام التي قدمها بوليب (III ,2,56) فإنه كان قد نزل ساعتئذ إلى اثني عشر ألف أفريقي وثمانية آلاف أيبري في قطاع المشاة ـ أما في قطاع الفرسان فنزل إلى ستة آلاف رجل على الأكثر . ويلاحظ المؤرخ أنه : « في أثناء كل هذه الرحلة التي قطعها تحمل حنبعل خسائر جسيمة ، خسائر في الرجال ناجمة عن هجومات الأعداء أو خلال اجتياز مجاري الماء ، وخسائر في الحيوانات أيضاً وبخاصة في الخيول والدواب بسبب المنحدرات الوعرة والعوائق الأخرى التي صادفها في جبال الألب » . ولكن هذه الخسائر المختلفة التي كانت مهمة بدون شك أثناء اجتياز الجبال لاتفسر كيف بدد المشاة منذ أن اجتازوا جبال البيرنة ثلاثة أخماس

ماكانوا يمتلكونه من رجال . على أنه يجب القبول بدون شك بأن حنبعل خلال هذا الطريق الطويل الذي اتبعه منذ وصوله إلى بلاد الغال حتى بلوغه الرون (حيث لم يكن الجيش الذي لم يخض أية معركة حقيقية يُعَدُّ أكثر من ثلاثين ألفاً من المشاة وثمانية آلاف من الفرسان) كان قد بعثر قسماً مهماً من قواته بخلق حاميات مكلفة بمراقبة النقاط الاستراتيجية لأنه كان يحرص في الواقع على الاحتفاظ باتصالات حرة بين إسبانيا وإيطاليا ويأمل في أن يتمكن من تجنيد جيوش من بلاد الغال الجنوبية .

وعندما وصل الجيش القرطاجي إلى بلاد التوريسك استولى فوراً على تورين وبدأ الفتح في سهل بادان . ووقع هذا الخبر في روما وقع الصاعقة حيث كان الاعتقاد سائداً بأن حنبعل لن يندفع بجرأته إلى حد أن يرمي نفسه في مغامرة اجتياز جبال الألب في هذا الوقت المتأخر من فصل الصيف (وصل حنبعل إلى بلاد التوريسك بدون شك في آخر إيلول « سبتمبر ») بينما كان مجلس الشيوخ لايزال يناقش التقارير المتعلقة بالاستيلاء على ساغونتي . واستدعيت الجيوش المتجمعة في ليليبي بغية النزول في أفريقيا فقادها سيمبرونيوس بسرعة بفضل الأسطول إلى أريمينوم (ريميني) .

وعندما تقدم ب . سكيبيون لملاقاة حنبعل الذي حان الوقت لإيقاف مسيرته إلى روما تحمل أول فشل في ضواحي تيستان عندما هزمت جيوشه وأصيب هو بجرح بليغ . وأمام هذا النجاح الذي أحرزه البونيون تمرد الغاليون الذين كانوا يخدمون في جيش سكيبيون وذبحوا الرومان ووضعوا أنفسهم في خدمة حنبعل الذي أحسن استقبالهم واستخدمهم في بادىء الأمر عناصر دعاية بين السكان الذين ينتمون إليهم في أصولهم ليطلبوا منهم أن يجعلوا مصالحهم ومصالحه قضية مشتركة . لقد كان النجاح كاملاً : تعزيزات في الرجال والمؤن تم تأمينها منذ ذلك الوقت . وفي أثناء ذلك استسلمت حامية كلاستيديوم ـ حيث كانت تخزن كميات كبيرة من القمح ـ إلى حنبعل على يد المسؤول عن المدينة وهو ضابط من أصل برنديزي ، وكان هذا العمل من أوضح الدلائل على التفكك الذي كان يهدد أرض الجمهورية . وأخيراً في أواخر أيام شهر كانون الأول (ديسمبر)

من عام ٢١٨ ، وفي فجر يكتنفه الضباب مشرقاً تحت سماء ثلجية قرر القنصل تيبريوس سمبرونيوس الذي كان يخيّم أمام معسكر البونيين على ضفاف نهر تريبي Trébie المستنقعية التي تغطيها الحراج القصيرة أن يخوض غمار المعركة رداً على مناوشة قام بها العدو . والواقع أن جيشي القنصلين وقعا في الفخ الذي أعد لهما . وبعد أن اجتاز الجنود النهر وكانوا لايزالون مشلولين بفعل الماء المتجمد فوجئوا بالانقضاض عليهم فوق أرض أعد فيها العدو الكثير من الكمائن فاخترقت الأفيال جناحهم الأيسر من الجبهة وَرُدّ الرومان على أعقابهم إلى النهر أو أُعمل في رقابهم السيف . أما الذين نجوا من الكارثة فتمكنوا من اللجوء بعد لأي إلى بليزانس بينما لم تقع الخسارة في الجيش البوني إلا بين الغاليين الذين كانت أعداد قتلاهم كبيرة للغاية . « كان كل الناس في ذهول » كما ذكر بوليب (III ,2,74) أما حنبعل فغدا منذ ذلك الوقت سيد غاليا سيسالبينا « وملأت هذه الهزيمة روما برعب جعلهم يعتقدون أنهم يرون العدو زاحفاً نحو المدينة ناشر الرايات » (تيت ليف XXI , 56) .

قرر البرقاوي تمضية فصل الشتاء في سهل البو ـ ربما في بولونيا ـ مؤكداً عمله الدعائي بتحرير الأسرى الذين لم يكونوا مواطنين رومانيين . وكان على الجيوش أن تعاني من مناخ المنطقة ، كما أن الفيلة عانت معاناة كبيرة من شدائد الشتاء حتى نفقت كلها باستثناء فيل واحد سيستخدمه القائد مطية له في المراحل المقبلة القاسية في وادي الأرنو . والواقع أن الغاليين كانوا يظهرون استياء مما كان يجري عندهم من أحداث وينتظرون بفارغ الصبر أن يعودوا إلى أرض العدو ليصيبوا فيها الغنائم فقرر حنبعل منذ الربيع أن يتغلغل في شبه الجزيرة الإيطالية . وبما أنه كان عالماً بالطرق المؤدية إلى إترووريا فقد اختار في النهاية أكثرها استقامة ـ أي طريق الأبينين ـ رغم النتائج الخطيرة التي يمثلها المرور عبر مناطق واسعة مغطاة بالفيضانات (ربما المنطقة الواقعة بين بيستويا وفلورنسا) . ومضت أربعة أيام كانت تجربة رهيبة للجيش ولم تكن الرواية التي تناولت هذه التجربة تنقطع فيها الطرائف عن التخييمات الصعبة وسط أراض موحلة حتى هلك قسم عظيم من دواب الركوب . ويبدو أن حنبعل إنما أصيب

بمرض الرمد في هذه الفترة بحيث انتهى به الأمر لأن يفقد إحدى عينيه.
وتابعت الجيوش البونية مسيرتها نحو الجنوب حتى وصلت إلى مستوى أريزّو حيث كان جيش القنصل ك . فلامينيوس قد أقام معسكره .

ورغبة من البرقاوي في إثارة خصمه قام بنهب الأرياف المجاورة وإحراقها وهو يستأنف الطريق فلم يكن من فلامينيوس إلا أن نفذ صبره فرمى بجيوشه في إثره ومالبث حنبعل أن اكتشف أرضاً مناسبة لمخططه فدلف إلى ممر ضيق يحاذي بحيرة ترازيمين وعسكر أثناء الليل عند مخرج المجاز بينما كان الرومان يعسكرون عند مدخله . ودفع فلامينيوس جيوشه في هذا المضيق جاهلاً أن كل المرتفعات كانت محروسة إضافة إلى المنفذ . وعندما تم دخوله فيه داهمه المشاة البونيون من كل صوب مستفيدين من ضباب شديد الكثافة بحيث كان الفخ محكماً كل الإحكام . وفي ثلاث ساعات ـ كما يروي تيت ليف ـ ذُبح خمسة عشر ألفاً من الرجال بما فيهم القنصل نفسه أو غرقوا في البحيرة التي حاولوا عن طريقها إنقاذ أنفسهم بينما أسر الآخرون أو لاذوا بالفرار . ولم يفقد حنبعل إلا خمسمائة من الجنود معظمهم من الغاليين مما جعل المصيبة أخف . وكان حنبعل مخلصاً لمنهجه ففرز الأسرى وأرسل إلى ديارهم أولئك الجنود التابعين للمدن المتحالفة مع روما مردداً على مسمعهم ماكان قد ذكره بعد معاركه الأولى من أنه لم يأت ليحارب الايطاليين بل ليحررهم بقتاله للرومان . وكان القنصل كينوس سرفيوس الذي علم بتقدم القوات البونية قد أرسل أربعة آلاف من الفرسان لدعم جيوش زميله ولكن هذه التجريدة اصطدمت في أومبريا بمحر بعل (صباح بعل) مساعد حنبعل وأفنيت هي الأخرى عن آخرها .

هذه المصائب المتكررة تسببت لروما بأزمة سياسية . ففي غياب القنصلين ـ عندما قُتل الأول وعسكر الثاني سيرفيليوس في ريميني غير قادر على الاتصال بالعاصمة ـ عُيّن ك . فابيوس ماكسيموس في منصب الحاكم الدكتاتور فوق العادة . ولما لم يتمكن حنبعل منذ ذلك التاريخ من حمل خصمه (الذي كان لابد له من أن يحمل لقب « المسوّف ») على منازلته أسلم نفسه إلى سلب ونهب واجتياح في شمالي أبوليا وسمنيوم وغربي كامبانيا .

وفي خلال تنقلاته هذه كلها كانت تراقبه دائماً جيوش فابيوس التي اقتصرت على ازعاج تموينه رافضة كل التحام بين الجيوش ولم تتدخل إلا في أعمال المناوشات والاشتباكات السريعة التي كانت مكلفة في بعض الأحيان للبونيين والتي كانت تجري مع فصائل منعزلة . وكان تكتيك الدكتاتور ـ الذي انتُقد يومئذ بشدة من أولئك الذين كانوا يعانون من اجتياحات العدو ـ يهدف في البداية إلى توفير مصادر الأمة البشرية على أفضل وجه بعد الخسائر الفادحة التي منيت بها منذ الشتاء السابق . أما حنبعل الذي لم يعد يستطيع قيادة الحرب على هواه فقد انتهى به الأمر أن استقر في أبوليا ، وبعد أن استولى على موقع جيرونيوم وسط سهل غني اعتصم به وقرر أن يتخذه معسكراً شتوياً له .

هذا الوضع الذي فُرض على القائد كان يثير فيه الحنق والغيظ . وكان مايزعج القرطاجيين أيضاً أن أحداث إسبانيا لم تكن تدور لمصلحتهم . والواقع أن كينوس كورنيليوس منذ أن وصل إلى شبه الجزيرة في عام ٢١٨ كان من المهارة بحيث هزم قوات حنّون وأسر القائد القرطاجي نفسه . وفي العام التالي بعد نجاحهم في عمليات بحرية ـ وبفضل مساعدة شركائهم الماساليين الذين كانوا يمتلكون سفناً سريعة والدعم الذي وصلهم على يد أسطول مؤلف من عشرين سفينة وثمانية آلاف جندي يقودهم بوبليوس سكيبيون ـ تقدم الرومان إلى جنوبي نهر الايبر ووصلوا إلى ضواحي ساغونتي حيث أنشؤوا قاعدة متينة وكسبوا السكان الايبريين إلى جانب قضيتهم .

ولكن أيميليوس بولّوس وتيرانتيوس فارون القنصلين اللذين انتُخبا للعام ٢١٦ سيتخليان عن تكتيك « المسوِّف » الحذر ويسمحان لحنبعل بأن يفوز بأكبر معركة في هذه الحرب بل وفي كل حروب العالم القديم كما اتفق على ذلك كل الخبراء في التاريخ العسكري . ففي مطلع الصيف عندما حان موعد الحصاد تركت الجيوش البونية معسكرها في جيرونيوم لتتمون من المحاصيل . ولأن حنبعل كان مصمماً على إرغام العدو على القتال استولى على قلعة كان Cannes على ضفاف الأوفيدوس (أوفانتو) . ولم يكن الأمر يتعلق باحتلال قاعدة استراتيجية مفيدة فحسب وإنما لأن الرومان كانوا قد خزنوا هناك كميات كبيرة من الأقوات

لجنودهم . وقرر القنصلان بتحريض خاص من فارون أن يخوضا المعركة بثمانية من الفيالق ـ وهي ملاكات لم يكن الجيش الروماني قد وصل إليها قبل ذلك قط ـ، وكان كل فيلق قد تلقى دعماً واسعاً من الجيوش الحليفة إضافة إلى الآلاف الخمسة من جنوده وبذلك كانت القوات الرومانية تضم حوالي ثمانين ألفاً من المشاة وستة آلاف من الفرسان بينما كان الجيش القرطاجي يعد مايزيد قليلاً عن خمسين ألفاً من الرجال من بينهم عشرة آلاف فارس .

ودارت المعركة الشهيرة في الثاني من آب أغسطس عام ٢١٦ على شاطىء الأوفيدوس في سهل واسع صالح لتحركات الفرسان . وكعادته وضع حنبعل فرسانه على الجناحين : الايبريون والغاليون في الميسرة والنوميديون في الميمنة . ووضع مشاته على جبهة في شكل قوس أو هلال بحيث يتقدم القسم المركزي المحدب نحو العدو ، وعلى هذه الجبهة كانت تتناوب وحدات مختلفة الأجناس وذات كفاءات حربية غير متعادلة : ففي الوسط مشاة غاليون وإيبريون . وعلى اليمين والشمال أفريقيون وكان مخطط البرقاوي أن يثير العدو ويدفعه إلى الارتماء على القسم الناتىء من هذه الجبهة الشاذة الغريبة حيث توجد على وجه الدقة العناصرُ الأقل مقاومة التي يمكن أن تتخلى عن مواقعها وتتراجع أمام حملات العدو . فالقسم المركزي الذي كان محدباً في البدء لابد من أن يتحول إلى جيب ينقض عليه الرومان كأنما هو يمتصهم وهم مقتنعون بأنهم بذلك يخرقون الخطوط البونية ويحوزون النصر . ولكن الكتائب الأفريقية المشكلة من نخبة الجيش القرطاجي ستهاجم عند ذلك المشاة من خاصرتيهم ـ لأن الجبهة الرومانية تكون قد اتخذت شكل زاوية ـ ضاغطة إياهم بين فكي الكماشة في الوقت الذي تقوم فيه كوكبات الجناحين من الفرسان بحركة انتشار سريعة مغلقةً الجيبَ على الرومان . وجرت المعركة تماماً وفق الخطة المرسومة وأبرزت هذه الاستراتيجية البالغة الجدة إبرازاً رائعاً ماكان يتمتع به القائد القرطاجي من عبقرية عسكرية . فقد أباد جيش العدو الضخم فارضاً عليه الحركات التي كان يبدو أنها ستجلب له النصر بينما هي في الواقع تقوده إلى الضياع . ولما أصبح مطوقاً من كل الجهات كان لابد للجيش الروماني من أن يستسلم للذبح . وكانت الخسائر مخيفة : فحتى لو وجدنا

رقم السبعين ألفاً من القتلى الذي قدمه بوليب (III,4,117) مبالغاً فيه فإننا سنتمسك على الأقل بأن تيت ليف (الذي رجع إلى مصادر أخرى) تحدث عن سبعة وأربعين ألفاً وسبعمائة من القتلى كان من بينهم القنصل أيميلوس بولوس وثمانون من أعضاء مجلس الشيوخ (XXII ,49) . أما جيوش حنبعل فاقتصرت خسارتها على خمسة آلاف وسبعمائة رجل من بينهم أربعة آلاف من الغاليين .

في اليوم التالي لمعركة (كان) طلب محربعل من حنبعل أن يمشي إلى روما ولكنه رفض فأبدى مساعده عند ذلك الملاحظة التالية : « إن الآلهة لم تعط كل شيء إلى إنسان بعينه . أنت تعرف الانتصار ياحنبعل ولكنك لاتعرف استغلال النصر» . والحقيقة أن البرقاوي برهن عن حكمته لأنه كان يعرف حدود مواهبه . فروما لم تكن مدينة يمكن أخذها بغتة وعلى غير استعداد . وفي حالة حصارها فإن سورها الذي يبلغ طوله أحد عشر كيلومتراً والذي دُعمت تحصيناته منذ قليل كان يجعل أية عملية عسكرية مرتجلة طويلة المدى في كل الأحوال . ولم يكن مثل هذا المشروع مما يلائم هذا النوع من الحرب الذي تميز به القائد : عمليات شاملة مضمونة تدور على مراحل متعددة مفهومة ومدروسة في أقل تفصيلاتها ـ وحيث يذهب النصر إلى جانب الأكثر مهارة وخيالاً كما لو كان الأمر يتعلق بلعبة كبيرة مليئة بالأفخاخ أمام الذين لايتخذون لأنفسهم أي احتياط ـ وتقاد بمهارة ودقة مدهشة تقلب حسابات الخصم . وكان حنبعل ـ الذي كان أيضاً رئيس دولة ذا رؤى سياسية شديدة الاتساع ـ يعرف أنه كان ثمة ماهو أفضل من المسير إلى روما .

والواقع أنه كان ليوم معركة كان Cannes رنين عظيم إذ انتقل عدد من الشعوب التي كانت حليفة للرومان إلى صفوف المنتصر ، وكانت تلك حالة مدن أبوليا وسمينوم ولومانيا وبروتيوم . وفي مقابل ذلك بقيت المدن الإغريقية محترسة لأنها كانت تخشى أن يسلمها حنبعل إلى القبائل الغالية والسمنيّة التي كانت دائماً مستعدة لأعمال السلب والانتهاب ، إضافة إلى أنها كانت تحت حكم عائلات أرستقراطية كانت تقاسم آباء مجلس الشيوخ الروماني وجهات نظرهم . ومع ذلك فإن حنبعل استقبل استقبال الظافرين في كابوا ثاني مدن الاتحاد الايطالي حيث

كان لحنبعل عصبة من الأنصار النشيطين . وكان من السهل أن تقتنع هذه المدينة بأنها في خيانتها للجمهورية يفتح أمامها أمل في أن تحل محل منافستها الكبيرة .

ومن أجل تحطيم الاتحاد الروماني المتزعزع ـ حيث كانت العاصمة لاتزال تعتمد في إيطاليا الوسطى على مساندة قوية من اللاتين والإتروسك والأومبريين والسابيليين ـ فقد وجب على البرقاوي أن يلتحم بكامل قواته وبأسرع مايمكن مع مناطق المقاومة . ومن أجل ذلك ، ولأنه لم يكن يستطيع أن يتلقى النجدات من إسبانيا عن طريق البحر ـ لأن الأخوين سكيبيون كانا قد استقرا على ساحل المتوسط إلى الشمال من ساغونتي ـ فقد توجه مباشرة إلى قرطاجة . وعلى الرغم من معارضة حنّون الكبير فإن مجلس القدماء الذي كان يعرف كيف يقوّم النجاحات التي أحرزها حنبعل قبل بإرسال إمدادات وابتدأ بجمعها . وتقرر أيضاً أن يُرسَل إلى إسبانيا فوراً جيش وأسطول بقيادة هيميلكون لدعم جيوش عزر بعل الذي يمكنه أن يلتحق عندئذ بإيطاليا . وهكذا يكون حنبعل على وشك أن يتلقى مساندة جيشين . وأخيراً ، ومن أجل إنهاك مقاومة الخصم بتوجيه قوات ضد قواته في كل مكان أعدت حملة للتوجه إلى سردينيا انضمت إلى القبائل الوطنية التي كانت متمردة بقيادة قائدين هما حنّون وهمسيكورا والتي كانت تهاجم جيوش البريتور الروماني .

وتعززت أوضاع حنبعل أكثر وأكثر في عام ٢١٥ . فمن جهة عقدت معاهدة ذاع صيتها بين قرطاجة وفيليب المكدوني ـ كنا قد أشرنا إليها ، وكان هذا الملك يعد أسطولاً للعبور إلى إيلّيريا واجتياح سواحلها والنزول في إيطاليا ـ وتعهد الحليفان الجديدان بأن يساند أحدهما الآخر وألا يعقدوا صلحاً منفرداً مع أعدائهم المشتركين . ومن جهة أخرى فإنه بعد موت هييرون في صقلية وحكم هييرونيمو القصير ـ الذي قلب سياسة أبيه وتعامل مع قرطاجة بغية أخذ الجزيرة كلها تحت سلطانه ـ قامت سيراكوزا تصلح جمهوريتها ودخلت الحرب ضد روما . وهكذا وجدت العاصمة الرومانية وقد حرمت دفعة واحدة من المصدرين الرئيسيين اللذين كانا يمونانها بالقمح .

بقي على حنبعل أن يؤمن لنفسه مرفأ يسمح له بإقامة صلات سهلة مع قرطاجة . ونحن نعرف أن المدن الإغريقية كانت مترددة في الانتقال إلى معسكر البونيين إضافة إلى أنه لم يكن بالإمكان انتزاع نابولي وريجيون من روما . وإذا كانت لوكريس وكروتون قد احتلتا منذ عام ٢١٥ - بسبب قيام منازعات حادة بين الشعب والأرستقراطية الحاكمة - فقد وجب الانتظار حتى نهاية عام ٢١٣ لاستسلام تارنت أكبر هذه المدن الساحلية على أثر مؤامرة (ولكن القلعة لم تستسلم حيث صمدت فيها حامية رومانية مؤلفة من خمسة آلاف رجل سدت المرفأ أمام البونيين) . وفي ربيع ٢١٢ دخل حنبعل إلى هيراكليس وميتابونتي وثوري أوي Thurioï . ولكن قوة البرقاوي - على الرغم من النجاحات التي فككت عرى الاتحاد الإيطالي - بقيت هشّة . وقبل أن تبلغ ذروتها كان الجزر قد بدأ بالانحسار .

لم يتمكن حنبعل الذي كان ينتظر المدد من جيشين إلا أن يتلقى قوة مؤلفة من أربعة آلاف نوميدي وأربعين من الأفيال . والواقع أن الحالة في إسبانيا في عام ٢١٥ أجبرت قرطاجة على تعديل مشاريعها كلها . فعندما التقى عزر بعل برقة بالسكيبيونيين إلى الجنوب من نهر الإيبر هُزم جيشه ولم يعد بإمكانه اللحاق بأخيه . ومن جهة أخرى فإنه كُلف بأن يتدخل ضد النوميدي سيفاكس ملك المسايسيل الذي كان قد هاجم ممتلكات قرطاجية في أفريقيا . ومن أجل مواجهة الحالة الحرجة في مسرح العمليات هذا فإن المساعدات الهامة المتجمعة في قرطاجة والتي كانت مؤلفة من أثني عشر ألفاً من المشاة وخمسمائة من الفرسان وعشرين فيلاً وستين مركباً حربياً وكانت مخصصة في بادىء الأمر لإرسالها إلى إيطاليا عُهد بأمرها إلى ماغون الأخ الثالث لحملقرت برقة وكلف بالتوجه مباشرة إلى إسبانيا . على أن هذه الجيوش - التي دُعمت أيضاً بلواء وضع تحت قيادة عزر بعل بن جيسكون - سمحت على الأقل بعد ثلاث سنوات أي في عام ٢١١ بتقويم الأوضاع بشكل قوي . والواقع أنه في ذلك الوقت سُحقت جيوش السكيبيونيين وذُبح قوادها بعد أن تخلى العازبون من المرتزقة وفوجئت كلٌ على انفراد . وفي مقابل ذلك فإن الجيوش القرطاجية التي كانت قد أرسلت عام ٢١٥ إلى سردينيا

وصلت متأخرة إلى الجزيرة لأن القافلة رمتها العواصف في بادىء الأمر إلى جزر الباليار فسُحقت عند أول صدام .

وعلى الرغم من ترميم الأوضاع في إسبانيا فإن عام ٢١١ كان أكثر الأعوام خيبة أمل بالنسبة للبرقاويين . فروما التي كانت قد أنشأت واحداً من أقوى الجيوش في تاريخها - أي خمسة وعشرين فيلقاً تعد مع الكتائب الحليفة نحو مائتي ألف من الرجال - قررت أن توفر احتياطياتها البشرية وفقاً للتكتيك الحذر الذي كان يتبعه « المسوّف ». وفي حرب الاستنزاف هذه كانت الجيوش القرطاجية هي الخاسرة لأنها لم تكن تتلقى أية إمدادات . والشعوب والمدن التي كانت قد تركت روما بعد النجاحات البونية في « الحرب الخاطفة » بدأت تأسف أنها ورطت نفسها وراء حنبعل في مشروع تحول أمره إلى مغامرة واضحة . وكان الرومان منذ عام ٢١٤ قد استعادوا كاسيلينوم (كابوا الحالية) ، وفي عام ٢١٣ استرجعوا أربي ثم جاء دور بقية المواقع في كمبانيا . وقد قاومت كابوا ثلاثة أعوام ولكنها حوصرت في عام ٢١١ على يد ستة فيالق واجتاحتها المجاعة فاستدعت حنبعل من جديد : وبما أنه لم يتمكن من فك الحصار فإنه حاول لفت الأنظار بقيامه بهجوم مضلل فاتجه بسرعة نحو روما دون أن يكون في نيته مهاجمة المدينة قطعاً وإنما من أجل أن يثير القلق في مجلس الشيوخ بسبب هذا التهديد المفاجىء وأن يجذب إليه القوات التي كانت تحاصر المدينة الكامبانية . ولكن الحصار لم يُرفع مع ذلك ووجب على كابوا أن تستسلم بعد فترة وجيزة . ومن أجل تجنب أعمال الانتقام قتل بعض حكام المدينة أنفسهم بينما أُخذ الباقون كلهم أسرى فحُكموا بالجلد ثم قطعت رؤوسهم بالبلطات وانقلبت شريكة روما القديمة المزدهرة إلى مجرد قرية للفلاحين بعد أن نفي قسم من سكانها وأضحت كل أراضيها ملكاً للدولة الرومانية .

على أن حنبعل كان لايزال بإمكانه أن يحرز بعض النجاحات . ففي عام ٢٠٩ وتحت أسوار هردونيا في أبوليا ، وبفضل مناورة بارعة ، تمكنت جيوشه من تحطيم جيش كنيوس فلفيوس وسقط الحاكم نفسه في المعركة مع أحد عشر من التريبيونات العسكريين . ومع ذلك ، وحتى في إيطاليا الجنوبية حيث بقي السيد

المسيطر فإن الوضع أضحى يزداد صعوبة باستمرار ، وفي عام ٢٠٩ فقد تارنت ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعسكر في حرزه الجبلي في كالابريا .

أما المساعدات التي كان ينتظرها من فيليب فإنها لم تتمكن من الوصول لأن ملك مكدونيا كان عليه أن يواجه تحالفاً مؤلفاً من الايتوليين ومملكة برغام يسنده منذ عام ٢١٠ أسطول روماني كان يقوم في بحر ايجه بعمليات تهديد وتخريب عنيفة حتى اضطر فيليب تحت ضغط هذه الظروف إلى أن يعقد مع روما في عام ٢٠٥ صلح فوانيكي . وكان قد فهم منذ زمن طويل أنه ماكان ينبغي له أن يعتمد على مساعدة الأسطول البوني الذي كان لابد من تدخله كي يتمكن من أن يشترك اشتراكاً مباشراً في الحرب الدائرة في إيطاليا .

والواقع أن البحرية القرطاجية لم تلعب إلا دوراً هزيلاً في هذه الحرب . فأساطيلها كان يقودها في أغلب الأحيان أمراء بحر أدنى مستوى من المهمة التي أوكلت إليهم ، وكانوا جبناء رعاديد يخشون على أنفسهم عقابيل الفشل ويقتربون بدون شك من تفكيرهم من الأوليغاركيين الشديدي المحافظة أكثر من اقترابهم من التفكير الذي كان يستثير عقول القادة البرقاويين . ولنا خير مثال على ذلك في حالة العمليات التي جرت في صقلية .

فما أن قطعت سيراكوزا علاقتها بروما حتى شرع القنصل م . كلوديوس مارسيلوس ـ الذي لم يكن يستطيع اختراق الاستحكامات المحمية بآلات أرخميدس الشهيرة * ـ بأن فرض الحصار على المدينة . وبما أن قرطاجة كان لها كل المصلحة في أن تأتي لمساعدة حليفتها فقد قررت نجدتها في البر والبحر . وكان ثمة قائد قرطاجي يسمى هيميلكون يحتفظ بأسطوله منذ مدة طويلة عند رأس باشيلوس في أقصى الجنوب من صقلية فعهد إليه قيادة جيش قوي مؤلف من خمسة وعشرين ألفاً من المشاة وثلاثة آلاف فارس واثني عشر من الأفيال وتمكن في

---

* يقال إن أرخميدس شارك في الدفاع عن المدينة باختراع آلات لم تكن معروفة من قبل من بينها مرايا تكثف الحرارة وترسلها على الأعداء حتى أنه كان بإمكانها أن تحرق السفن ـ المترجم ـ

عام ٢١٣ أن يحتل هرقلة وأغريجنتي ولكنه لم يتمكن من فك الحصار عن سيراكوزا . وفشلت محاولة جديدة في السنة التالية لأن الجيش القرطاجي الذي كان قد أنشأ معسكره في أراض مستنقعية أفناه وباء شديد . وكان هذا أول فشل لقرطاجة . وفي خلال هذه الفترة نفسها تمكن أمير البحر بوملقرت ـ الذي تلقى أمراً بالتدخل عن طريق البحر ـ من أن ينفذ إلى المرفأ على رأس أسطول مؤلف من خمسين سفينة ، ولكنه خشي من أن يصطدم بأسطول روماني متفوق عليه بالعدد فانسحب فوراً إلى البحر عائداً إلى قرطاجة ليطلب منها دعمه بمعونات أقوى وأوسع . وكان عليه أن يعود بعد ذلك مرتين ، ففي المرة الأولى عاد بمائة سفينة ثم بمائة وثلاثين ، ومع ذلك ، ومع أنه يتمتع بتفوق على الخصم لاشبهة فيه فإنه رفض المعركة . « وعندما رأى المراكب الرومانية متجهة إليه ـ كما كتب تيت ليف ـ خاف فجأة دون أن يعرف السبب ونشر الشراع إلى عرض البحر» (XXV,28 ,12) حتى وصل إلى تارنت . وكان لهذا التهرب المتوالي من المعركة نتائج خطيرة . فبعد ذلك بقليل ، أي في خريف عام ٢١٢ ، اضطرت سيراكوزا التي حرمت من أية نجدة أن تستسلم للرومان على يد موريكوس قائد المرتزقة الإسباني . وأخيراً في عام ٢١٠ وبعد أن سقطت أغريجنتي بعد مقاومة طويلة نتيجة لخيانة موتينيس قائد الفرسان النوميدي الذي كان قد عزله حنّون حاكم الموقع بدون وجه حق ضاعت صقلية نهائياً من يد قرطاجة .

وفي نهاية تلك السنة بالذات ـ أي عام ٢١٠ ـ أبحر إلى إسبانيا بوبليوس كورنيليوس سكيبيون الذي كان أبوه وعمه قد قُتلا في كارثة عام ٢١١ . ومنذ ذلك الوقت وعلى الرغم من إرسال الحاكم ك . كلوديوس نيرو فإن الوضع العسكري كان من السوء لدرجة أن جمعيات الناخبين الرومان تجاوزت تعليمات الدستور وعهدت بسلطة الولاية الخارقة للعادة إلى هذا النبيل ذي الخمسة وعشرين ربيعاً والذي لم يتسنم قبل ذلك أكثر من منصب القضاء . على أن سكيبيون الشاب لم يكن غراً في مهنة الحرب لأنه كان في الواقع قد شارك في معارك تيستان وتريبيا وكان Cannes وكان يعرف كيف كان حنبعل ينتزع الانتصارات . وهكذا وجدت روما رجل العناية الذي سيقلب القدر فسافر على

رأس فيلقين التحقا بالجيوش التي كانت توجد قبل ذلك في شبه الجزيرة .

وقد أفاد سكيبيون من تبعثر الجيوش البونية الثلاثة ـ حيث كان اثنان منهما كما نعلم تحت قيادة عزر بعل برقة وماغون أخوي حنبعل الثالث بقيادة عزر بعل آخر هو ابن جيكسون ـ فقرر أن يضرب فوراً قلب القوة التي أقامتها أسرة برقة ولذلك فإنه ترك منذ ربيع عام ٢٠٩ تاراغون حيث كان قد أقام معسكرات الشتاء واجتاز نهر الإيبر ومثُل بعد ذلك بقليل أمام أسوار قرطاجنة . وعلى المقاومة غير المنتظرة التي كادت أن تُفشل مخطط القائد الشاب فإن عاصمة إسبانيا البونية سقطت في النهاية على أثر هجوم جديد ، فذبح قسم من سكانها ووضعت المدينة أمام الجيوش مباحة للانتهاب . وباحتلال قرطاجنة وضع سكيبيون يده على ثروة العائلة البرقاوية واستولى على غنائم كبيرة. وأخيراً فإن اليد العاملة التي كانت تعمل في المشاغل ودور الصناعة في المدينة دخلت في خدمة الأسياد الجدد .

أمضى سكيبيون صيف ٢٠٩ في استغلال نجاحه مستخدماً الطريقة التي كان حنبعل قد استعملها مع قبائل غاليا سيسالبينا في أن يعمل بمهارة على كسب ثقة سكان المنطقة من الأيبريين وبخاصة الوجهاء ، وكانت حملته النفسية هذه تتمة لمخطط حملته العسكرية .

وفي الربيع من العام التالي تقدمت الجيوش الرومانية داخل البلاد متجهة نحو أعالي وادي بايتيس (الوادي الكبير) للاستيلاء على مناجم الفضة التي اشتهرت بها ترشيش القديمة والتي كانت قد ساهمت إلى حد كبير في ثراء قرطاجة . وكان سكيبيون قد وصل إلى بايكولا ـ (بيلين على بعد حوالي مائة كيلومتر إلى الشرق من قرطبة) عندما اصطدم بجيش عزر بعل برقة . ولكن النصر كان من نصيب الفيالق الرومانية بفضل مناورة ماهرة قام بها سكيبيون وإن لم يكن نصراً حاسماً لأنه لم يمنع عزر بعل ـ الذي كان هدفه الأساسي أن يحمل دعم جيشه إلى أخيه حنبعل من شق طريق له والإفلات مع القسم الأكبر من قواته باتجاه نهر تاجه وجبال البيرنه .

هذا المشروع الذي تمكن القائد البرقاوي أخيراً من تحقيقه أقلق الرومان إلى

أبعد الحدود . وزاد هذا القلق حدة عندما تعرض القنصلان المنتخبان لعام ٢٠٨ ـ وهما م . كلوديوس مارسيلّوس وت. كنكتيوس كريسبينوس ـ كلاهما للوقوع في الفخ بينما كانا يستعدان لمهاجمة معسكر حنبعل . كانت البلاد في خراب ، والسكان قد ملّوا الحرب ، وأظهرت اثنتا عشرة مستعمرة لاتينية استياءها جهاراً من الأعباء العسكرية و المالية التي كانت مفروضة عليهم من قبل مجلس الشيوخ ومن ابتعاد جنودهم الذين أرسلوا إلى صقلية . وكانت حالة الانهاك قد وصلت حداً لدرجة أن عزر بعل لو تمكن من جمع جيوشه إلى جيوش أخيه وأحرز بعد ذلك نصراً فإن البونيين سيتمكون قطعاً من عقد معاهدات في إيطاليا الوسطى وسترتد روما إلى أسوأ أيامها في تلك الحرب . لذلك كان لابد من أن تبذل كل المحاولات اللازمة من أجل إفشال هذا المشروع .

أما القائد القرطاجي الذي كان قد أمضى شتاء ٢٠٨ ـ٢٠٧ في جنوبي بلاد الغال فإنه اجتاز الألب ونفذ إلى وادي البو حيث أضاع وقتاً ثميناً في حصار بليزانس . وكان قد وصل إلى ريميني في مطلع صيف ٢٠٧ عندها وجد طريقه مسدوداً بالقوات الرومانية القوية المتفوقة على قواته بالعدد ويقودهما القنصلان . فمن أجل منع جيش عزر بعل من تحطيم مقاومة الفيالق الستة التي يقودها م . ليفيوس ساليناتور قدم ك. كلوديوس نيرو للانضمام إلى زميله مع مجموعة مؤلفة من خيرة جيوشه . وكان لابد من المخطط الجريء الذي أفرغ جزئياً جبهة إيطاليا الجنوبية من أن ينجح نجاحاً كاملاً . والواقع أن حنبعل لم يكن قد أُعلم بوصول أخيه لأن الرسائل التي كان يرسلها عزر بعل كان يحتجزها الرومان فلم يحاول إذن أن يقوم بأية حركة لملاقاته . وقد بذل عزر بعل جهده لتجنب الفيالق الرومانية ، ولكنه عندما وصل إلى ضفاف الميتور كان مجبراً على أن يقاتل في أرض لايعرفها . وكانت المعركة حامية الوطيس وانتهت بفضل موهبة نيرو المناورة بتحطيم الجيش البوني . وعندما رأى عزر بعل تلاشي أمله الكبير في أن يقدم لجيش قرطاجة مايحتاجه من مساعدات ضرورية لإحراز النصر في الحرب التي تباشرها عائلة برقة أبدى في هذه المناسبة الأخيرة بسالته المعتادة « وبشكل يـليق بـأبيه حملقرت وبأخيه حنبعل سقط والسلاح في يده » (تيت ليف XVII

,49,4) . (وانظر كذلك التقريظ الذي كتب بوليب XI,2 ,3) . وقد حمل القنصل نيرو رأس عزر بعل ـ كما تقول الرواية ـ إلى معسكره ورماه أمام مواقع الأعداء مرسلاً كذلك إلى حنبعل اثنين من الأسرى الافريقيين المحرّرين بالمصيبتين ـ العامة والخاصة ـ اللتين أصابتاه في آن واحد .

أما بالنسبة لسكيبيون فإن إفلات عزر بعل لم يكن إلا حادثاً طارئاً لم يغير شيئاً من مخططه وهو أن يدمر قبل كل شيء « الإمبراطورية » التي أنشأها حملقرت برقة في إسبانيا تدميراً منظماً قبل أن يحمل ضربة الرحمة المباشرة إلى قرطاجة . وقد شهد عام ٢٠٦ إنجاز القسم الأول من هذا البرنامج . والواقع أن آخر جيش بوني كبير ـ مؤلف على الأقل من خمسين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف وخمسمائة من الفرسان حسبما ذكره تيت ليف (XXVIII 12,13,14) ويقوده القائدان القرطاجيان الباقيان في شبه الجزيرة ـ قد هُزم بالقرب من إيليبا (ربما يوجد موقعها على الوادي الكبير إلى الشمال قليلاً من إشبيلية) ثم أبيد في الانحدار الذي تلا ذلك إبادة كاملة . وقد طبقت الشرازم الثلاثون التي كان يتألف منها كل فيلق روماني في هذه المعركة تكتيكاً كان لايزال مجهولاً لدى العسكريين الرومان فغدت وحدات مستقلة تتحرك بسرعة كبيرة وتعدّل من انتشارها بدون انقطاع ، وبرهن سكيبيون على أنه عرف كيف يفيد من انتصارات حنبعل على أتم وجه .

بعد هذه الكارثة أبدى ماغون من الاستبسال مثلما كان أخواه قد ضربا فيه العديد من الأمثال . وكان قد لجأ إلى قادس في بادىء الأمر مقتفياً طريق زميله عزر بعل . وقد حاول أن يتابع المعركة بتجميع جيوش جديدة من بين الإيبريين كما طالب قرطاجة ببضع كتائب من الأفريقيين . وكان القائد البرقاوي يعرف بأن حركة تمرد كانت تنتشر في بعض الوحدات الرومانية وأن سكيبيون اضطر لإعدام المحرضين . ومن جهة أخرى فإن عدداً من الزعماء الإيبريين ـ من أمثال أنديبيليس وماندونيوس اللذين كانا على رأس الإيليرجيت في منطقة سرقسطة ـ كانوا يعتبرون أن الوقت قد حان بالنسبة لشعوبهم كي تستعيد استقلالها ولايرضون أبداً بأن يروا التبعية الرومانية تحل محل الاحتلال البوني .

فكان يمكن لهذه العوامل أن تكون محل استغلال من قبل القرطاجيين . وعندما أطلق ماغون العنان لعمليات مناوشات فإنه كان يرغب بدون شك في أن يبقى جيش سكيبيون بعيداً عن إيطاليا أطول مدة ممكنة . ولكن هذا المخطط فشل بسرعة . وبما أنه كان يتصرف بأسطول صغير فقد حاول أن يهاجم قرطاجنة على غير طائل . ولما حاول العودة إلى قادس رأى نفسه ممنوعاً من دخول هذه المستعمرة الصورية القديمة . والواقع أنه كان قبل ذلك ـ من أجل مواجهة مصروفات الحرب ـ قد أفرغ خزائن هذه المدينة ونهب معابدها وأجبر خاصتها على أن يسلموا له كل ثرواتهم . والآن بعد أن قام بصلب قضاة هذه الحليفة المتمردة التي خضعت بعد زمن قصير لنير روما ـ كما فعلت أوتيكا نفسها عشية خراب قرطاجة ـ فإن ماغون لجأ إلى جزر الباليار وقضى شتاء ٢٠٦ ـ ٢٠٥ في مينورقة حيث جيّش جيوشاً جديدة .

وفي الربيع توجه القائد القرطاجي على رأس أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة كانت تحمل حوالي خمسة عشر ألفاً من الرجال إلى ساحل ليغوريا حيث ألقى مراسيه واستولى بسهولة على جنوة وسافونا مثيراً بوصوله اضطراباً كبيراً في روما . وقد استقر في المنطقة حيث وجد مساندين عديدين بين السكان الليغوريين والغاليين بل وتلقى من قرطاجة قافلة من خمسة وعشرين مركباً حملت له ستة آلاف من المشاة وثمانمائة من الفرسان وسبعة أفيال وأرصدة لتجنيد المرتزقة . ومع ذلك فإنه لم يكن ثمة مايسمح بالاعتقاد بأنه أراد متابعة مشروع أخيه عزر بعل ، وقد طلبت منه حكومته على مايبدو أن يقترب من روما . وعلى كل حال فإنه خفف ضغط الفيالق الرومانية على جيش حنبعل بخلقه نوعاً من القلق وعدم الاستقرار لأن هذا الوجود بإجباره الرومانيين على الاهتمام بحراسة قطاعين كان يقوّي أيضاً من الأخطار التي يمكن أن تنشأ عن القيام بحملة إلى أفريقيا تجرد الجبهات الإيطالية من حامياتها. وقد بقي ماغون على هذه الحالة أكثر من عامين . وفي نهاية عام ٢٠١ ، وبعد أن جُرح جرحاً خطيراً في إحدى المعارك في غاليا ماوراء الألب وصلته الأوامر بأن يعود إلى قرطاجة مع جيوشه . وهكذا أبحرَ تاركاً وراءه على مايبدو رجلاً اسمه حملقرت تابع عمليات الغزو

والإغارة وإثارة الاضطراب بمساعدة سكان إيطاليا الشمالية . على أن شقيق حنبعل لم يكتب له أن يرى قرطاجة مرة أخرى لأنه توفي من جراحه أثناء عبوره إلى أفريقيا .

أما في إسبانيا فإن النصر الذي أحرزه الرومانيون في إيليبا حمل معه الانهيار الحاسم للإمبراطورية البونية هناك ، تلك الإمبراطورية التجارية الغنية التي كان قد دشنها ملاحون قدموا من صور قبل ذلك بتسعة قرون . وتحطم حلم كبير . أما سكيبيون الذي انتزع لروما ذلك المشروع الذي كانت عائلة هملقرت توسعه وتنميه منذ عام ٢٣٧ فقد أصبحت كل الآمال مسموحة له بعد الآن . وبقي عليه أن يتبع طريق عائلة البرقاويين بشكل معكوس حتى يصل في النهاية إلى النقطة التي انطلقوا منها لتحقيق مخططهم الطموح : إلى قرطاجة .

ومع ذلك فإنه من أجل ألا تقود هذه المرحلة الأخيرة إلى مغامرات مفجعة كما حدث لأغاثوكليس وريغولوس كان لابد لروما أولاً من أن يكون لها في أفريقيا حلفاء موثوقون يمكن أن يساعدوها لتحقيق مخططها . وقد تصرف سكيبيون في ذلك أيضاً كما تصرف حنبعل الذي لم يترك قرطاجنة إلى إيطاليا إلا بعد أن تلقى ضمانات قوية بالمساندة من الغاليين في سيسالبينا .

وكانت قد تشكلت أثناء القرن الثالث قبل الميلاد « مملكتان » للنوميديين تعتمدان على اتحادين قبليين هامين إحداهما في بلاد البربر الغربية هي مملكة المسايسيل الذين كانت عاصمتهم سيغا Siga في وادي تافينا الأدنى والثانية في بلاد البربر الشرقية هي مملكة الماسيل الذين كان مركزهم السياسي في سيرتا Cyrta (قسطنطينة) . وكان غايا ملك الماسيل حليفاً لقرطاجة فأرسل ابنه ماسينيستا ليقاتل في الجيش البوني في إسبانيا . ولما مات هذا « الأغيليد » (أي هذا الزعيم البربري أو الملك الذي يتقلد سلطة دينية وراثية) في مطلع عام ٢٠٦ قامت أزمة في أسرة الماسيل المالكة . وقد اعتبر ماسينيسا أن القواعد التقليدية لم تحترم وأن حقه في خلافة العرش قد هضم فقرر العودة إلى أفريقيا . وكانت معركة إيليبا قد وضعت نهاية للوجود البوني في إسبانيا ، ومع ذلك فإن ماسينيسا قبل عودته كان له لقاء مع البروبريتور م . جونيوس سيلانوس ولقاء

آخر مع سكيبيون نفسه الذي لم يتردد في أن يقوم بسفر طويل ليتمكن من ملاقاته في منطقة قادس .

ومما لاشك فيه أن تلك المناسبة كانت فرصة عبّر فيها الأمير النوميدي عن شكره للقائد الذي أطلق سراح ابن أخيه الشاب ماسيتيفا من الأسر بكل مظاهر التكريم ، وكان الفتى قد وقع أسيراً مع غيره من الجنود الأفريقيين . على أن مهارة سكيبيون السياسية كان يقابلها تقديرات ماسينيسا السياسية من الطرف الآخر . فهذا الأمير الذي شهد سقوط القوة البونية في إسبانيا وجد من الضروري بعد الآن أن يقوم بقلبٍ للتحالف لاسيما وأنه كان بحاجة لمساندة روما كي يستعيد سلطانه على شعبه . وأقسم الرجلان على الوفاء بما تعاهدا عليه ، وكان سكيبيون راضياً عن هذا الاتفاق لأنه كان يعرف أن ماسينيسا كان أفضل رجل بين فرسان قرطاجة كلهم (تيت ليف XXVII 35,12) في الوقت الذي كان فيه القائد سيحتاج إلى الفرسان النوميديين عما قريب .

ولم يكن سكيبيون يريد ترك إسبانيا قبل أن يعقد كذلك علاقات مع سيفاكس ملك المسايسيل . فعبرت إلى أفريقيا بعثة برئاسة كايوس لايليوس وقدمت نفسها في البلاط الملكي ولكن النوميدي أعلمها أنه لايستطيع التعامل إلا مع القائد الأعلى . وكانت المجازفة من الأهمية بحيث أن سكيبيون قرر أن يقوم بالرحلة بنفسه واتخذت سفينتان من ذوات الخمسة صفوف من المجاذيف طريقهما في البحر . وعندما وصل الرومان إلى مرفأ سيغا لاحظوا أن أسطولاً قرطاجياً صغيراً من سبعة مراكب من ذوات الثلاثة صفوف من المجاذيف قد سبقتهم إليه . والواقع أن عزر بعل بن جيسكون بعد أن ترك قادس التي انسحب إليها بعد هزيمة إيليبا وجد هو الآخر أن من الضروري القيام في طريقه بزيارة لرئيس الاتحاد النوميدي الخطير . وهكذا التقى الخصمان القرطاجي والروماني على ساحل بلاد البربر وهما يتنافسان على الاستعجال بالتماس المساعدة من الأفريقي القوي .

هذا « المؤتمر المتوسطي » الذي جرى في صيف عام ٢٠٦ يشكل أحد الفصول الأكثر غنى بالمعلومات عن التدابير السياسية التي تنوعت وتكاثرت طول

أيام النزاع العسكري . « كان سيفاكس سنداً قوياً من جميع النواحي بالنسبة لمن له مشروعات في أفريقيا ، فهو الملك الأكثر ثروة على تلك الأرض ، وكان قد عرف تجربة الحرب ضد القرطاجيين أنفسهم كما أن مملكته كان لها موقع مناسب جداً بالنسبة لإسبانيا » . ويتابع تيت ليف بالروح الوطنية التي تميزه راوياً استقبال « الأغيلّيد» لضيوفه : « لقد وجد سيفاكس جميلاً جداً - وكان الأمر كذلك بالفعل - أن يرى قادة كلا الشعبين الأشد قوة في عصره يقدمون عليه في اليوم نفسه طالبين منه الصداقة وحسن الوفادة . وقد قدم ضيافته لكليهما على السواء وسعى أن يقودهما إلى لقاء لإنهاء مابينهما من عداء طالما أن المصادفة - كما قال - أرادت جمعهما تحت سقف واحد عند أرباب منزل واحد . ولكن سكيبيون رد بأنه ليس بينه وبين القرطاجيين كراهية شخصية ليضع نهاية لها بمثل هذا اللقاء ، أما مايتعلق بالدولة فإنه لايستطيع مناقشة أية نقطة مع العدو بدون أمر من مجلس الشيوخ . وفي مقابل ذلك لم يبد أي اعتراض على رغبة الملك الحارة في ألا يبعد عن مائدته أي واحد من ضيفيه فقرر المجيء إلى المائدة نفسها التي كان يجلس إليها عزر بعل . وهكذا جمعهما الغذاء عند الملك . ومن أجل أن يرضياه جلسا جنباً إلى جنب . وكانت دماثة سكيبيون وبراعته الطبيعية في كل مقام من القوة بحيث أنه بمتعة حديثه لم يفتن سيفاكس وحده وهو البربري الذي لم يكن معتاداً على حسن التصرفات الرومانية وإنما فتن عدوه الأكثر ضراوة أيضاً . وقد أعلن عزر بعل أن الرجل بدا له أكثر إبهاراً في هذا اللقاء وجهاً لوجه منه في مآثره الحربية ، ولم يعد يشك بأن سيفاكس ومملكته قد وقعا تحت سلطة الرومان طالما أن سكيبيون كان يمتلك فن اكتساب العقول . وهكذا غدا على القرطاجيين ألا يبحثوا في كيفية ضياع إسبانيا بمقدار ماكان عليهم أن يتساءلوا عن كيفية احتفاظهم بأفريقيا» (XXVIII,17,10, et18,1- 9) .

ولكن الحقيقة أن سكيبيون كان هو الخاسر في هذه المنافسة على اكتساب مساعدة البربري لأن تحالفاً تم التوقيع عليه بين قرطاجة والملك النوميدي . وبحسب عادة كانت دارجة في العصور القديمة كانت الروابط العامة تقوى بالروابط الخاصة فإن هذا التحالف السياسي تقوى بزواج سيفاكس من سوفونيست

(صفون بعل) ابنة عزر بعل ذاتها .

في خريف عام ٢٠٦ عاد سكيبيون إلى إسبانيا وانتخب قنصلاً للعام التالي . وبما أنه كان قوياً بدعم الشعب - وعلى الرغم من معارضة عائلة فابيوس المحافظة التي كانت تخشى مايمكن أن يجره هذا الفتى الطموح على الأمة من مغامرات - فإنه نال من مجلس الشيوخ أن أسند إليه ولاية صقلية حيث كان يستطيع التهيؤ لحمل الحرب إلى أرض قرطاجة نفسها . وكان سيفاكس في خلال عام ٢٠٥ (أو في الربيع التالي) قد وجه إنذاراً إلى ضيفه القديم في سيغا أنه في حالة قدوم سكيبيون للقيام بهجوم مباشر على ذلك الذي أصبح حليفه منذ الآن « فسيكون مضطراً هو الآخر لأن يقاتل سواء من أجل أرض أفريقيا التي ولد فوقها كما ولد القرطاجيون أو من أجل وطنه وامرأته، ومن أجل أبيه ومن أجل أفراد بيته » . (تيت ليف XXIX ,23 ,10) . إذن لم يعد ينبغي لسكيبيون أن يعتمد على الوعود الماضية . يضاف إلى ذلك حدوث مصادفة لم تكن قطعاً مفاجئة : فبتحريض من عزر بعل أفاد « الأغيلّيد » القوي من المنازعات على وراثة العرش بين الماسيل فاستولى على مملكتهم جاعلاً من سيرتا عاصمته الثانية ودافعاً حدوده الشرقية حتى الأراضي البونية .

وكتب على ماسينيسا أن يعيش حياة المنفى هو وبعض من أنصاره. وعلى الرغم من الولاء الذي كان يكنه له شعب الماسيل الخاضعين لسلطة سيفاكس الحازمة فإن ابن غايا - بحسب مايرويه تيت ليف الذي لاينبغي أن نتلقف روايته إلا بكل حذر - حاول أن يستعيد ملك أجداده دون أن يظفر بطائل . ولم يكن يستطيع أن يؤمن له استعادة حقوقه سوى تدخل روماني في أفريقيا ، ففي حالته لم يكن الأمير النوميدي الذي بدا أن مصيره مرتبط بمصير روما يستطيع إلا أن يضع كل إمكاناته وبكل تصميم من أجل إنجاح المشروع الذي يقرره سكيبيون وكان هذا الأخير يعتمد على ذلك كل الاعتماد .

وبينما كان سكيبيون يتابع الإعداد لحملته الأفريقية بكل نشاط قرر القيام بعملية عسكرية ضد لوكريس - الذي لم يكن أمره مع ذلك متعلقاً بدائرة اختصاصه وقد أفاد من تواطؤات مع السكان واعتمد على مساندة الأسطول حتى

نجحت الجيوش الرومانية بدون عناء باحتلال المدينة التي اضطرت الحامية البونية فيها إلى الانسحاب عندما لم تتمكن من تلقي نجدات حنبعل في الوقت المناسب . ووضع الموقع عند ذلك تحت قيادة المفوض بليمينيوس الذي سلمه إلى العسكريين غير النظاميين الذين ارتكبوا من التعسفات والتجاوزات ماجعل وفداً من اللوكرانيين يحمل خبرها إلى مجلس الشيوخ حتى قام فابيوس كونكتاتور وعائلته يطالبون بإقالة سكيبيون وإحالته إلى العدالة . وقد توجهت اللجنة المدنية المكلفة بالقيام بتحقيق مبدئي إلى لوكريس ثم إلى سيراكوزا حيث استقبلت بحفاوة ودعيت إلى حضور مناورات كبيرة نظمت في وقتها المناسب . وقد أثر مشهد عرض هذه القوات العسكرية تأثيراً كبيراً في المحققين الموفدين من العاصمة فلم يلحوا في تحقيقهم وطوي الأمر .

وفي خلال عام ٢٠٥ أيضاً توجهت إلى ساحل أفريقيا من منطقة هيبون حملة للاستكشاف والنهب بقيادة ك . لايليوس صديق سكيبيون الحميم . وجرت بهذه المناسبة اتصالات مع ماسينيستا الذي كان يلتجيء إلى جبال خروميري في ذلك الوقت . وقد تذمر النوميدي من تباطؤ سكيبيون في إرسال جيش إلى أفريقيا وألح على تنفيذ هذا الأمر بسرعة بينما يكون سيفاكس مشغولاً بنزاعاته مع السكان المحليين .

في عام ٢٠٤ كانت الحرب في عامها السادس عشر . وبما أن سكيبيون قد حصل على تمديد فترة قيادته فإنه قرر أن يضع خطته موضع التنفيذ وأعاد تجميع جيوشه في ليليبي . ويختلف عدد القوات بحسب الرواة . فبعضهم تحدثوا عن خمسة وثلاثين ألفاً من المشاة والفرسان مجتمعين . وجرى الإبحار أمام حشد كبير من الجماهير قدموا من كل أنحاء صقلية لحضور هذا المشهد الكبير الذي أعد له إعداداً حسناً ليرفع ـ إذا أمكن ذلك ـ من أمجاد القائد أكثر من ذي قبل.

ويبدو أن المراكب تأخرت في عبورها البحر بسبب الضباب الكثيف ثم ألقت مراسيها بالقرب من رأس فارينا إلى الشمال من أوتيكا. وقد أعلم ماسينيستا بسرعة بهذا الوصول مثلما أعلم به القرطاجيون أنفسهم فسارع بالقدوم مع رهط من أنصاره . ويروي تيت ليف : «كان العمل الأكثر إسعاداً للرومانيين في بدء

حملتهم هو وصول ماسينيسا الذي يقول إنه وصل على رأس مائتين من الفرسان على الأكثر بينما تذهب الغالبية إلى أنه كان على رأس جيش قوي من الفرسان يبلغ تعداده الألفين من الرجال » (XXIX ,29,4) . واتخذت قرطاجة فوراً تدابير الدفاع فجندت الجيوش وأخطرت سيفاكس الذي اتخذ سبيله للانضمام بجيشه إلى جيش حميّه عزر بعل بن جيسكون .

وبما أن العمليات العسكرية الأولى ـ احتلال قرى في المنطقة ، سلب ونهب ، اشتباكات مع فصائل للعدو ـ أعطت الرومان ثقة كاملة بقوتهم فإنهم اتجهوا إلى أوتيكا . وكان فصل الشتاء يقترب بينما قرر سكيبيون احتلال هذه المدينة الهامة ليقيم فيها معسكراته الشتوية . ولكن فشله كان مثيراً للشفقة . فبعد اربعين يوماً من حصار بري وبحري وبعد هجمات عديدة شعر بأنه مهدد بجيوش أعدائه ـ التي بلغ مجموعها بحسب المصادر الرومانية حوالي ثلاثة وتسعين ألفاً من الرجال ثلثاهم على وجه التقريب كان يقودهم سيفاكس (صفاقس) ـ فاضطر إلى الانسحاب . وقد أُجبر على أن يتحصن فوق شعف صخري أطلق عليه فيما بعد اسم «كاستراكورنيليا » (حيث توجد اليوم قرية قلعة الأندلس على بعد ثلاثة كيلومترات من أوتيكا) بينما جثمت الجيوش البونية والنوميدية على بعد اثني عشر كيلومتراً من ذلك المكان .

وكان سيفاكس يأمل أن يتمكن ـ كما فعل في سيغا ـ من تقديم خدماته الخيرة فتقدم بعروضه لقيام مفاوضات سلام على أساس انسحاب الرومان من أفريقيا بينما يخلي القرطاجيون إيطاليا على أن يبقى الطرفان محتفظين بالأراضي التي كانا يحتلانها في ذلك التاريخ . وبدا أن أسس النقاش كانت مثيرة لاهتمام الطرفين ولم يرفضها سكيبيون . ولكن القائد في الحقيقة لم يكن يأمل كثيراً في التوصل إلى اتفاق على إنهاء القتال بمقدار ماكان يأمل بكسب «الأغيلّيد» إلى صفه . وكان يعتقد أنه يعرفه حق المعرفة « ذلك لأنه كان يعلم ـ وكما كتب بوليب ـ أن من طباع النوميديين أن ينفروا سريعاً من ارتباطهم وأنهم لم يحافظوا قط على يمين أقسموه أمام الآلهة أو الناس » . (XIV,1, 2) .

ولما رأى سكيبيون أنه كان مخدوعاً قطعاً باعتماده على تقلّب الأفريقي لجأ

إلى مخطط آخر مستفيداً من المساومات التي عرضها سيفاكس فأرسل الجواسيس إلى معسكرات الأعداء حيث كان مفاوضوه يُستقبَلون . وكان هؤلاء مصحوبين بوصفاء يرتدون ملابس الخدم الوضيعين بينما هم في الواقع ضباط مكلفون بملاحظة كافة المعسكرات بينما تجري أعمال المفاوضات . ولما اجتمعت كل المعلومات الضرورية في الربيع قام سكيبيون فجاة بإبلاغ مفاوضيه بأن المحادثات اصطدمت باعتراض أركان حربه وأنه كان مجبراً من أجل ذلك على وضع نهاية لها . وبعد أن تظاهر بالقيام بهجوم على أوتيكا بقصد الإلهاء أرسل الرجال في ظلمة الليل ليضعوا النار في معسكرات الجيشين . وانتشر الحريق بسرعة لأن القوارب والأكواخ التي كان يجاور بعضها الآخر كانت مصنوعة من القصب والأخشاب . وعم الاضطراب على أثر هذه الكارثة وهلك الجنود في اللهيب أو ذُبحوا وهم يحاولون النجاة . وفني القسم الأكبر من الجيوش بحيث أن تيت ليف تحدث عن أربعين ألفاً من الأموات وخمسة آلاف من الأسرى ولكن هذه الأرقام التي كانت تختلف عما رواه رواة آخرون كانت لاشك غير صحيحة . وتمكن سيفاكس وعزر بعل مع بعض عناصر الفرسان على الأقل من الفرار وأصبح الرومان يتمتعون بعد هذه المأثرة بحرية كبيرة في المناورة والتحرك .

على أن عام ٢٠٣ هذا سيقدم لسكيبيون أيضاً فرصة أخرى للتدليل على إمكاناته كقائد حربي . ففي قرطاجة ـ بعد البلبلة الناجمة عن الكارثة ـ كلف مجلس القدماء عزر بعل بأن يباشر بتجييش الجيوش كما جُمعت كذلك فرقة من الكلتيين ـ الإيبريين ربما قدموا من سواحل إسبانيا الغربية . وبما أن سيفاكس اختار العودة إلى مملكته فقد أسرع إليه موفودون يطلبون منه ألا يتخلى عن المعركة التي كان الجميع قد باشروها جنباً إلى جنب .

وعندما تم الاتصال بين الجيوش القرطاجية والنوميدية ـ التي بلغ مجموعها ثلاثين ألفاً حسبما ذكره بوليب ـ ترك سكيبيون أوتيكا التي كانت دائماً محاصرة بالأسطول والقوات البرية حيث أخذ معه كل مشاة الفيالق وكوكبات من الفرسان الإيطاليين ورافقه فرسان ماسينيستا الذين سيلعبون دوراً حاسماً في بقية العمليات العسكرية .

وحدث اللقاء في حوالي منتصف نيسان (أبريل) في وادي المجردة الأوسط حيث تمتد « السهول الكبيرة » ـ وهي ترجمة لكلمة campi magni التي ذكرها تيت ليف ـ بين مركزي بيجا وسوق الخميس الحاليين أو حول بولاريجيا بالقرب من سوق الأربعاء . وبما أن جيوش عزر بعل وسيفاكس كان ينقصها التدريب فقد لحقتها الهزيمة فوراً، وفي خلال هذه المعركة ـ كما يقول أبيان ـ تمكن ماسينيستا من أسر خصمه الأفريقي . وبينما كان سكيبيون يمضي إلى احتلال تونس كان قسم من قواته مؤلف من الفرسان النوميديين وفصيل بقيادة ك . لايليوس يتابعون تقدمهم عبر نوميديا حيث قام السكان الماسيل يستقبلون بحفاوة عودة أميرهم المنتصر . وفي الشهر التالي في ٢٤ حزيران يونيه بموجب التقويم الروماني هُزم سيفاكس من جديد غير بعيد عن سيرتا حسب رواية ليفيوس . وبعد أن وقع هذا الأمير في الأسر اقتيد في النهاية إلى روما حيث كان عليه أن يمثل في ركاب المنتصر مع جموع الأسرى ، أما ماسينيستا فإنه بعد أن أقصي خصمه المسايسيلي عاد إلى المدينة التي ستصبح عاصمته .

ونحن نعرف أن تاريخ الحوليات الروماني يولي اهتماماً كبيراً في هذه المناسبة لما نال سوفونيسب (صفون بعل) من شقاء . فزوجة سيفاكس هذه التي كانت صبية ذات جمال نادر وتتمتع بثقافة أدبية وموسيقية عالية خشيت أن تقع في قبضة أولئك « الغرباء في ولادتهم عن البلاد الأفريقية » فتوسلت إلى ماسينيستا منذ وصوله إلى سيرتا كي يتزوجها . ويضيفون أن الزواج قد تم بدون تأخير . ولكن سكيبيون عندما علم بهذا الأمر ـ وربما كان يخشى أن تحوّل ابنةُ عزر بعل زوجَها عن تحالفه ـ قرر أن تكون مثل غيرها من بقية الأسرى مِلكاً للشعب الروماني . على أن الملكة القرطاجية التي فضلت الموت عندئذ على الذل الذي لم يكن بإمكانها أن تتخلص منه أخذت كأس السم الذي حمله إليها ماسينيسا وشربته برباطة جأش مصممة على أن تموت امرأة حرة لتدفع عن نفسها هوان الأسر .

ليس مهماً على أي حال بالنسبة للتاريخ أن نتقصى جانب الحقيقة التي تدخل في هذا المشهد الرومانسي . ولكن القصة تدل على مدى « التقدير » الذي

يكنه فضلاء الرومان لشركائهم أوخصومهم الأفريقيين : ليس فقط لأنهم لايترددون في الوفاء لتعهداتهم ولكن لأنهم « يتمتعون بحس مرهف ـ أكثر من غيرهم من بقية البرابرة ـ تجاه إغراءات فينوس » (تيت ليف ;XXIV ,23 ,4 XXX,12 ,18) . ومهما كانت عواطف سكيبيون السرية تجاه النوميديين فقد كان راضياً عن تصرف حليفه ، ولأول مرة أطلق عليه لقب ملك الذي كان لقبه من الناحية الواقعية وقدّم إليه تاجاً مكافأة على سجاياه العسكرية وعلى الخدمات التي قدمها للجمهورية كما أعطاه هدايا كثيرة . وهكذا يكون القائد قد جعل اعتراف روما رسمياً بماسينيسا ملكاً على نوميديا الكبرى (٩٧) (أي أن روما لم تنصبه هي ملكاً على نوميديا كما يرد أحياناً في بعض الكتابات) .

وبعد هزيمة « السهول الكبرى » وانهيار حليفهم المخلص القوي سيفاكس تردد القرطاجيون بين موقفين . فهم لم يعرفوا الإفادة من الظروف التي كانت مواتية لهم أثناء الشتاء السابق بينما هم يمتلكون أسطولاً أقوى بكثير من أسطول خصمهم كما يمتلكون جيشين فكان في استطاعتهم أن يضعوا حداً لمغامرة سكيبيون . وقد وجدوا أنفسهم مرة أخرى غارقين في الحيرة والتردد . وقامت عصبة مؤلفة من خصوم عائلة برقة التقليديين تطالب بأن تبدأ فوراً مفاوضات مع الرومان . كما كان هؤلاء يرددون أن من الملحّ إيقاف حرب بلغت مرحلة الخطورة لأنه على الرغم من محاولات الأسطول البوني فإن الحصار عل أوتيكا لم يُكسر ولأن العدو المرابط في تونس كان يهدد العاصمة بشكل مباشر حارماً إياها من الاتصال ببقية أنحاء أراضيها ومضايقاً تموينها . وكان من رأي العصبة المعارضة أن تستدعي الجيوش من إيطاليا على عجل لأن حنبعل بقي الأمل الكبير . وأخيراً تبنوا المشروعين في آن واحد ، وهذه الحالة القلقة التي تعبر عن التوترات القائمة في داخل الأوليغاركية المستولية على السلطة تحملنا على الاعتقاد ـ نتيجة لبعض التفسيرات التي قدمها المؤرخون الرومان من أمثال تيت ليف (XXX,17, 14 et 23 ,6-7) ـ بأن إجراءين قد نُسّقَ بينهما بفطنة وحنكة . فقد تظاهرت الحكومة القرطاجية « بالمكر البوني» المعروف بأنها ستشرع بمفاوضات سلام بغية كسب الوقت في انتظار عودة حنبعل وماغون . والحقيقة أن اتخاذ مثل هذا القرار بدا

اعتباطياً تماماً لأنه يدل على تناسي أن عائلة حنون الكبير « الداعية للسلام » كانت لاتزال تحتفظ بأنصار وأنهم كانوا مسموعي الكلمة طالما كان الخطر جاثماً على أبواب المدينة .

وأرسلت بعثة من ثلاثين عضواً من مجلس القدماء إلى تونس لمعرفة شروط الصلح . أما سكيبيون الذي لم يكن قد توصل إلى احتلال أوتيكا ولايجهل أن حصاراً يلقى على قرطاجة سيكون احتمال نجاحه مشكوكاً فيه فلم يتمنع طويلاً أمام طلب الصلح . وكانت مطالبه هي التالية : أن يسلّم له القرطاجيون الأسرى والفارين من الجيش والآبقين من العبيد وأن يخلوا إيطاليا وغاليا ماوراء الألب ويتخلوا عن إسبانيا وكل الجزر الواقعة بين إيطاليا وأفريقيا وأن يسلموا كل سلاحهم البحري باستثناء عشرين مركباً ، وأخيراً أن يدفعوا غرامة مقدارها خمسة آلاف تالنت وأن يزودوا الجيش الروماني بالمؤن من القمح والشعير حتى يعقد الصلح .

وقبلت قرطاجة بهذه الشروط ـ حتى العائلة التي لم تكن تخضع للهزيمة تظاهرت بالقبول ـ وسارعت سفارة إلى روما بغية توقيع المعاهدة الحاسمة ـ ولكن المفاوضات التي بدأت منذ خريف عام ٢٠٣ بدت طويلة جدا لأن مجلس الشيوخ كان يلجأ إلى التشاور مع سكيبيون في موضوع شروط الصلح ولم توقع المجالس على المعاهدة إلا في الربيع من عام ٢٠٢ .

وفي خلال ذلك ، وطبقاً للالتزامات التي أخذتها قرطاجة على نفسها لإخلاء إيطاليا وماوراء الألب ، وبما أن الرومان لم يكونوا يتعاملون مع أعداء تعسكر جيوشهم فوق أراضيهم فإن القرطاجيين استدعوا قائديهم البرقاويين . ومن المعروف أن ماغون توفي أثناء رحلة العودة تلك ، أما حنبعل فإنه كان بحاجة إلى أسطول ليحمل جيوشه . ولم يكن قد رضي بإخلاء إيطاليا بطلب من حكومته بدون أسف وحقد، هذه البلاد التي مكث فيها خمسة عشر عاماً يقاتل أو يُهزم مع جيش لم يكن رجاله في الواقع ذوي أعداد كافية بينما كانت عدوته أقوى دولة في العالم . « ولم يكن المنتصر على حنبعل هو الشعب الروماني الذي طالما هُزم ولاذ بالفرار ، ولكنه مجلس الشيوخ في قرطاجة المغتاب الحسود » . (تيت

ليف XXX,20,3) . وقبل رحيله نقش باللغتين الإغريقية والبونية على عمود في معبد جونون في رأس لاسينيون نقشاً يروي أخبار حملاته منذ مغادرته إسبانيا .

في بداية الخريف من عام ٢٠٣ وصل حنبعل إلى أفريقيا التي كان قد غادرها في سن التاسعة ليلتحق بأبيه في إسبانيا ولم يعد إليها منذ ذلك الوقت أي منذ خمسة وعشرين عاماً . وبعد أن ألقى مراسيه في ليبتيس مينور (ليمتا ، غير بعيد من موكنين) اتخذ معسكراته الشتوية بالقرب من هادروميت (سوسه) . ولم تكن المنطقة اختيرت مصادفة لأن عسكرة الجيش البوني على بعد مائة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب من تونس يجعله يتخلص من مراقبة سكيبيون ، وبما أنه كان قد دعم بالجيوش التي كانت تحت قيادة ماغون فإنه كان يحتفظ لنفسه بحرية المناورة . وكان القائد العام يرفض كل تدخل في نشاطاته من جانب أعضاء الحكومة الذين لم يكن يعتمد من بينهم إلا على الأصدقاء . ويبدو أخيراً أن عائلة البرقاويين كانت قد اقتطعت لها منذ زمن طويل إقطاعاً في هذه المنطقة الساحلية هو بيزاسين . وكان حنبعل نفسه يملك هناك بناء محصناً « تورّيس » (تيت ليف XXXIII ,48 ,1) يقع بين تابسوس (رأس ديماس) وأشولا (رأس بوتريا) وربما كان ذلك في سوليكتوم (رأس سالاكتا) ، وهكذا استقر إذن في أرض تستطيع فيها عائلته أن تعتمد على أنصار مخلصين .

هذه الاحتياطات لم تكن فائضة عن الحاجة أو غير مجدية . فالواقع أن أحداثاً خطيرة توالت بعد ذلك بزمن قصير لأن البغضاء عادت فذرت قرنها حتى أن السفراء القرطاجيين الذين أوفدوا إلى روما لعقد الصلح لم يكن أمامهم سوى العودة إلى ديارهم .

من ذلك أن قافلة كبيرة محملة بالقمح كانت قادمة من صقلية ومخصصة لجيوش سكيبيون تعرضت لعاصفة في عرض البحر أمام السواحل الأفريقية وتشتتت بعض سفنها وجنحت على جزيرة زيمبر الصغيرة أمام خليج تونس وعلى الشط الغربي من رأس بون . فاجتمع المجلس الكبير تحت ضغط سكان العاصمة الذين لم يكن تموينهم مؤمناً بطريقة حسنة وناقش أعضاؤه التدابير التي ينبغي اتخاذها وقرروا أن السفن الرومانية المهجورة من طواقمها يمكن أن يتم الاستيلاء

عليها ، وهكذا جُرَّت حتى مرفأ قرطاجة . فأرسل سكيبيون على الفور مبعوثين للاعتراض على انتهاب القافلة وطلب التعويضات ولكن خطاباتهم المتغطرسة لم تلق أذناً صاغية ووجب على السفارة أن تعود بخفي حنين. وأكثر من ذلك أن السفينة ذات الخمسة صفوف من المجاذيف التي كانت تحمل المبعوثين عندما غادرت قرطاجة وبينما كانت بدون حراسة هاجمتها ثلاث سفن بونية وحاولت هدمها بمقدمات حيازيمها . وأخيراً ، وبعد أن أصيبت بخسائر كبيرة في جنودها البحريين تمكن الرومان من سحبها إلى أمام معسكرهم حيث جنحت على الساحل .

هذا الهجوم المتعمد والمهيأ من قبل الحكومة البونية بتحريض من العصبة التي كانت ترفض القبول بالهزيمة بدون شك كان أشبه بإعلان حرب . عند ذلك ارتد سكيبيون فوراً إلى الريف ينهب التجمعات السكانية ويخضع السكان للعبودية. ولما كان اهتمامه الأول منصرفاً إلى إعادة العلاقات مع ماسينيسا فإنه لم يكف ـ كما كتب بوليب ـ عن إرسال الرسائل إليه « ليدعوه إلى حشد جيش كبير بقدر مايستطيع والمجيء للانضمام إليه بأقصى سرعته » (XV,1,4) .

أما القرطاجيون فقد وجهوا النداءات إلى حنبعل كي يستعجل بحسم الأمر في ميدان النزال وهو موضوع لم يكن القائد ـ كما كتب ذلك بنفسه ـ يحتاج إلى نصائح حكومته وأنه كان يعرف كيف يختار فيه اللحظة المناسبة . ويبدو مع ذلك أنه لم يكن يملك يومذاك وقتاً كافياً لتنظيم استعداداته النهائية لأنه بعد بضعة أيام من طلب التدخل هذا ترك هادروميت ليعسكر بالقرب من زاما . وهذه المدينة التي تقع على مسيرة خمسة أيام (حوالي مائة كيلو متر) من قرطاجة « إلى الغرب منها تقريباً» لم يمكن تحديد موقعها بكل دقة . فقد كان ينبغي ان تكون واقعة في منطقة جبل مسترج ويبدو أنه يمكن قرنها بتجمع جاما السكاني الحالي غير بعيد عن سيليانا . (٩٨)

ومن زاما قد يكون حنبعل أرسل رسولاً إلى القائد الروماني يعرض عليه اللقاء . ولكن سكيبيون الذي كان قد تقدم هو الآخر نحو الغرب باتجاه نوميديا كان ينتظر أولاً وصول ماسينيسا . وقد قاد هذا الملك الشاب الذي كان مخلصاً

لكلمته مثلما كان سيفاكس في تحالفه مع البونيين عشرة آلاف من الرجال منهم أربعة آلاف من الفرسان . واستقر الرومان مع من وصل إليهم من النجدات في موقع حسن مزود بالماء عندما أعلم سكيبيون خصمه أنه كان مستعداً للقاء المطلوب . ويروي المؤرخون الذين كانوا في خدمة روما الأحاديث التي تبادلها هذان القائدان اللذان كانا أشهر قادة ذلك العصر . ومرة أخرى كانت هذه الرواية من الدقة بحيث أننا لو قبلنا بصحة المشهد الذي وصفوه لوجب علينا أن نأخذ التفصيلات الأدبية التي يحتمل أنهم أضافوها إليه بعين الاعتبار . فقد يكون حنبعل قد طالب من أجل عقد الاتفاق بأن تحتفظ قرطاجة بأسطول حربي ، وهذه الرغبة في أن يحافظ وطنه على مكانته كدولة بحرية عظمى كانت تنطبق جيداً على ماكانت عليه سياسة أسرة البرقاويين الدائمة . ولاشك أن اللقاء قد سمح للرجلين بأن يقدّر كل منهما الآخر خير تقدير ولكنه لم يسفر عن شيء .

وتقابل في المعركة التي تلت ـ والتي يمكن أن يقع تاريخها في مطلع الخريف من عام ٢٠٢ ـ جيشان لانعرف عن أحوالهما إلا القليل . فبموجب مايذكره المؤرخ أبيان قد يرتفع عدد القوات البونية إلى حوالي خمسين ألفاً من الرجال من بينهم المحاربون القدماء في إيطاليا ـ من إسبانيين وأفريقيين ـ ومن بينهم قرطاجيون واثنا عشر ألفاً من المرتزقة الليغوريين والغاليين والبالياريين والمور جّندوا بلاشك على يد ماغون أثناء حملاته . وكان تفوق الرومان يعتمد على سلاح الفرسان بوجه خاص وكان قد اشتد أزره كثيراً بالنوميديين ، وليس من المستحيل أن يكون مشاتهم مساوين في الأهمية لمشاة العدو .

أما قصة مراحل المعركة فقد تناولها بوليب بكثير من التفصيل (XV,1 9-14) فبما أن المؤرخ كان على معرفة شخصية بـ (ك . لايليوس) ـ الذي قاد في هذه المناسبة أحد أجنحة الفرسان ـ فإنه لابد قد استقى معلوماته من مصدر حسن الاطلاع ولاشك أن روايته ترتبط بتقرير شامل عن العمليات من وجهة النظر الرومانية . ومن هذه الرواية نعلم أن تكتيك سكيبيون الأصلي يقوم على تهيئة ممرات عريضة متعامدة مع الجبهة بين وحدات المشاة مصفوفة على ثلاثة خطوط ومفصولة بعضها عن بعض بفواصل ، ويفضل مثل هذا التدبير تصبح

مهمات الفيلة غير مجدية . وينبغي أن نشير على الأخص مرة أخرى ـ وكما فعل تيت ليف نفسه (XXX,35,1) ـ إلى الدور الحاسم الذي لعبه الفرسان الذين تمكنوا بمناوراتهم من « تحطيم العدو » . والواقع أن كوكبات ماسينيسا التي وضعها سكيبيون على جناحه الأيمن اقتحمت أولاً الجناح الأيسر للجيوش البونية . والذي كان مشكلاً من النوميديين تحت قيادة فيرمينا بن سيفاكس . واندفع فرسان « الأغيلّيد» ماسيّل أيضاً مع فرسان لايليوس في ملاحقة الهاربين ، وبعد أن قاموا بحركة التفاف مفاجئة انقضوا على مؤخرة الكتيبة القرطاجية التي وقعت بين طرفي الكماشة . ولم يشأ مرتزقة الرتل الأول أن يضحوا بأنفسهم لحماية الآخرين فلاذوا بالفرار إلى الخلف يهاجمون محاربي إيطاليا القدماء والقرطاجيين الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على تسليم أنفسهم للذبح في أماكنهم وكانت الفاجعة مما لايمكن أن تعوض فيها الخسائر .

حاول حنبعل أن يفعل كل شيء ولكن بدون طائل . عند ذلك أطلق لفرسه العنان مصحوباً ببعض فرسانه في الطريق الذي قاده إلى هادروميت في يومين وليلتين وأجبرت قرطاجة على التفاوض .

أما شروط المعاهدة السابقة فقد أضيفت إليها شروط جديدة أكثر خطورة منها فوُضعت الدولة عملياً تحت رحمة جارتها النوميدية القوية وهذا التدبير كان يتضمن بذرة النزاع الذي سيدمر قرطاجة . فقد تقرر أن « على القرطاجيين أن يعيدوا لماسينيسا كل ماكان يخصه أو يخص أجداده من بيوت وأراض ومدن وغيرها داخل الحدود التي لم يجر تحديدها بعد ذلك » . (XV,1 ,18) .

حاول حنبعل عندئذ أن يعتمد على غضب الشعب المهان ليفرض طريقاً جديدة أمام قرطاجة . وعندما انتخب قاضياً Suffète للعام ١٩٦ كان يتطلع إلى برنامج عريض للاصلاحات والتطهير . فاجتهد في بادىء الأمر في إصلاح الأجهزة السياسية والادارية حيث كان الفساد قديماً جداً ومنتشراً إلى أوسع الحدود . وهكذا طلب القاضي حسابات الحاكم الذي كان يسوس شؤون مالية الدولة . ولما رفض هذا أحيل أمام مجلس الشعب الذي عزله من منصبه . وأوضح

التحقيق التدابير والتجاوزات التي كان يلجأ إليها الأوليغاركيون للمحافظة على امتيازاتهم الاقتصادية وتضخيم ثرواتهم . كانوا يجدون عقرباً تحت كل حجر يُرفع. وأخيراً أراد حنبعل أن يقوم بإصلاح مجلس الأربعمائة البالغ السطوة الذي كان أعضاؤه يعينون لمدى الحياة فقرر أن يتم انتخابهم بعد الآن لمدة عام واحد ولايجوز أن يكرر هذا الانتخاب . أما بشأن تأمين الغرامة التي طالبت بها روما فقد ذهب إلى أن من العبث اللجوء إلى ضرائب جديدة لمواجهتها لأن تنظيم الوضع المالي قمين بتأمين الأموال الضرورية لذلك . وكان ذلك أكثر من أن يطاق . لذلك أبلغ الواشون روما بالمكائد المقلقة التي يدبرها « الثوريّ » حتى اضطر البرقاوي الذي كان يحاول مرة أخرى انقاذ وطنه بإصلاح مؤسساته إلى نفي نفسه من البلاد .

في عام ١٩٥ لجأ حنبعل إلى الشرق إلى أنطيوخوس السلوقي في بادئ الأمر، ثم بعد صلح أفاميا إلى بروسياس ملك بيثينيا حيث كان يحاول في كل مرة تواتيه الفرصة فيها أن ينشيء حلفاً ضد العدو المشترك الذي كان يفرض نفسه على البحر المتوسط ولكنه لم يكن يحرز في ذلك كبير نجاح . وفي عام ١٨٣ في أغلب الظن عندما غدر به مضيفه الذي كان عليه أن يسلمه إلى أعدائه فضّل أن يتجرع السم لأن ذلك كان أجدر به من أن يقع بين يدي الرومان الظافرين . وفي لوحة مؤثرة نقلها لنا بوليب عن ابن حملقرت برقة الذي قاد حربه في إيطاليا كتب المؤرخ يقول : « من بين كل هذه الأحداث التي أثّرت في هؤلاء وأولئك ، والرومان كما في القرطاجيين ، رجل واحد وفكرة واحدة كانتا هما السبب : أسميه حنبعل (...) أي أمر عظيم ، أي أمر عجب أن يكون المرء موهوباً بالولادة بذكاء على قياس أية مبادرة إنسانية ! » . (IX, 7,22) .

قرطاجة يجب أن تدمَّر

إن تاريخ العاصمة البونية المجيدة يتوقف عند زاما . ولاشك أن المدينة الخائرة القوى ستحاول خلال نصف قرن أن تتلاءم مع الظروف الجديدة المفروضة عليها من قبل مجلس الشيوخ الروماني ولكنها لم تكن في ذلك أكثر من محكوم يستفيد من آخر تأجيل لتنفيذ الحكم فيه . وقد استحالت قرطاجة إلى مجرد ولاية أفريقية متواضعة بعد أن فقدت إمبراطوريتها ووجب عليها تسليم خمسمائة مركب حربي من جميع القياسات اقتيدت كلها إلى عرض البحر وأحرقت أمام أعين السكان ، ورزحت تحت عبء غرامة من عشرة آلاف تالنت تدرج تسديدها على خمسين عاماً ، ولم يكن يسمح لها بمباشرة أي عمليات عسكرية خارج ليبيا وحتى في تلك البلاد لم تكن تستطيع اللجوء إلى السلاح إلا بموافقة من روما . ونحن نعلم أن هذه الدولة كان لابد لها أن تتعرض لتعديلات مستمرة في يد ماسينيسا . ولولا هذه الإلحاقات التي كانت تدمر شيئاً فشيئاً آخر معقل لقوتها القديمة ، ولولا الحقد المتصلب الذي كان يكنه بعض الرومان ممن لم ينسوا موقعة كان Cannes فإن معجزة قرطاجية ثالثة كانت مع ذلك ممكنة الحدوث ولكنها كانت ستؤدي إلى حرب ثالثة .

يروي بلوتارك طرفة ـ ربما اخترعت في روما بقصد التسويغ ـ في موضوع الحملة الداعية إلى الحرب والتي كان بطلها ماركوس بورسيوس كاتون . كان هذا الشخص يفاخر بما يحمله من كراهية شديدة للدولة البونية وهو يخفي مكراً عميقاً باتخاذه هيئة الروماني التقليدي الفاضل المناصر « للعودة إلى الأرض » . وقد حمل ثمرة تين لاتزال طازجة وبادر الملأ بقوله : « اعلموا أن هذه الثمرة قطفت من قرطاجة منذ ثلاثة أيام ، هكذا العدو قريب من أسواركم » . ومنذ ذلك الوقت لم يكن هذا المراقب العام القديم ذو الثمانين عاماً يكف عن تدخلاته بإلحاح لايمل : « والآن أكرر عليكم أن قرطاجة يجب أن ينالها الدمار » .

قرطاجة يجب أن ينالها الدمار . لقد قام العديد من الفرضيات لتفسير

هذا النزاع الأخير فهل كانت الجمهورية الرومانية تخشى من أن تمتد إليها «الثورة » الديمقراطية التي كانت تضطرم في العاصمة الأفريقية حيث « أصبح صوت الشعب راجحاً في المداولات » ؟. هل كانت تخشى من حليفها ياسينيستا أن يتوصل بحجة استعادة إرث أجداده إلى الاستقرار في قرطاجة موسساً بذلك إمبراطورية يمكن أن تمتد من ساحل سرت حتى المولوخا (وادي الملوية في مراكش الشرقية) فيصبح خطراً نوميدياً ماحقاً في أعقاب الخطر القرطاجي ؟. هل كانت تخشى من الضياع الريفية البونية التي كانت تتمتع يومذاك بأفضل التقنيات وبأوسع رخاء أن تصبح عما قريب منافسة للزراعة الإيطالية التي بقيت في مرحلة بدائية سيما وأن المنافسة زاد خطرها بدءاً من عام ١٥١ الذي سجل آخر دفعة من غرامة الحرب وترك قرطاجة حرة منذ ذلك التاريخ في أن تستثمر مداخيلها في اقتصادها الزراعي ؟ من المؤكد أن كل هذه الاعتبارات كان يمكنها أن تتدخل قليلاً أو كثيراً في اتخاذ القرار ولكن يبدو أن السبب العميق كان شيئاً آخر . فأصحاب السفن والتجار الإيطاليون كانوا يريدون أن يؤكدوا بشكل حاسم ولمصلحتهم حصراً سيطرتهم التجارية على البحر المتوسط الغربي في الوقت الذي لم تكن معاهدة ٢٠١ قد منعت المهزومين من التصرف بأسطول تجاري، ولم يكن أحد يجهل أن البحارة القرطاجيين كانوا يتمتعون في هذا الميدان بخبرة فريدة . ذلك كان السبب الحقيقي للحرب . كان من المهم أن تدمّر قرطاجة لأن مرافئها بقيت مركزاً لنشاط موذ لمصالح الأوساط المالية التي كانت تشرف على طاقات روما البحرية .

وقُدّمت الحجة المسوغة للحرب في حينها : بما أن قرطاجة كانت من الوقاحة في ربيع١٥٠ أن تجرأت بقوة السلاح على التصدي لمشروعات ماسينيستا التوسعية فإن مجلس الشيوخ الروماني يتهمها بأنها انتهكت معاهدة الصلح ويعلن عليها الحرب . ونحن نجهل المسرحية التي لابد أنها قادت المدينة على مراحل وبطريقة منهجية إلى الخضوع بكل طاعة وانقياد لإدانتها بل وتسهيل الحكم على نفسها بالإعدام طالما لم يعد لديها القوة على أن تثور في وجه القدر المشؤوم الذي تم فرضه شيئاً فشيئاً عليها .

وقدم مفوضنون بونيون مطلقو الصلاحية ليضعوا مصير مدينتهم بين يدي روما . وتتالت المطالب واحداً بعد آخر طالما تمت تلبيتها والقبول لها. فوجب على القرطاجيين أولاً أن يسلموا ثلاثمائة من الرهائن يتم انتقاؤهم من أبناء أعضاء المجلس الكبير ومن عصبة المائة مما أدى إلى مشاهد مؤلمة وبخاصة من جانب الأمهات اللواتي كن يشاهدن رحيل أبنائهن . ثم علم مواطنو العاصمة بعد ذلك والدهشة تعلوهم أن عليهم أن يتخلوا عن كل أعتدتهم العسكرية التي كانت بالغة الأهمية . وبما أنهم اعتقدوا أن هذا التدبير يمكن أن يكون آخر المطالب فقد خضعوا له بدون مقاومة . ولكن حدث خلال ذلك ، في عام ١٤٩ ، أن القنصلين أبحرا مع جيش إلى أوتيكا التي كانت موضوعة تحت الحماية الرومانية . وبعد أن اعتقدوا أن الساعة قد أزفت للصيحة الكبرى أصدرا إنذارهما الجازم : « أخلوا قرطاجة ، انقلوا سكانها إلى أي مكان تريدون على شرط أن يكون على بعد ثمانين ستاداً (حوالي خمسة عشر كيلومتراً) من البحر لأننا عازمون على تدمير مدينتكم» (Appien, Libyca ,8) . وأمام ذهول المفوضين البونيين ويأسهم قدّم أكبر القنصلين سناً بعض التفسيرات لإيضاح أسباب هذا الحكم : إن منظر البحر لايمكن إلا أن يذكّر قرطاجة بعصر عظمتها ويجرها إلى الأخطاء القديمة التي ارتكبتها في غزوها لصقلية وسردينيا وإسبانيا وإلى أنواع جديدة من المآسي . والحياة الزراعية تقدم طمأنينة أكبر مما تقدمه القوة البحرية ، وبما أن التفوق البحري أصبح مقتصراً بعد الآن على روما فإن من الأفضل للقرطاجيين أن يكرسوا أنفسهم بهدوء لأعمال الحقول داخل أرضهم الأفريقية .

ولكن قرطاجة لم تكن أنشئت لتصبح مركزاً لولاية ريفية . لقد وُلدت من البحر فغدت مرفأ بالدرجة الأولى ولم تكن تستطيع أن تتنفس إلا أمام البحر . ثم كيف يمكنها أن تترك موتاها ومحرقتها Tophet الشاهدة على كل أضاحيها ومعابد آلهتها ؟ . وهكذا قرر القرطاجيون أخيراً أن يدافعوا حتى الموت ، وكان الموت ماينبغي في الواقع أن يُطلَب .

بدأت العمليات « للحل النهائي » عام ١٤٩، وأثبتت قرطاجة مرة أخرى أنها كانت تستحق الانتماء إلى ثباتها القدماء : لقد استغرق الاسكندر سبعة

أشهر للتغلب على صور التي حوصرت في جزيرتها بينما لزم لفيالق روما وأسطولها ثلاث سنوات من المعارك والحصار أما مدينة «إيليستا » * قبل أن يتمكن سيبيون إميليان (وهو مثقف مرهف بالثقافة الهلينية ومكلف بتنفيذ الأعمال الكبرى) من توجيه ضربة الرحمة إليها وهو يتمثّل بأشعار هومير .

في الربيع من عام ١٤٦ ماتت قرطاجة . ووصف مؤرخون قدماء ـ أمثال بوليب الذي شهد الأحداث والذي أخذ عنه أبيان بعد ذلك ـ وصفوا بكل دقة ، وكأنهم يقدمون تقريراً ، تلك المشاهد الوحشية التي توالت أثناء الأيام العشرة الأخيرة ، ويذكرنا هول حرب الإفناء هذه مباشرة بتلك المجازر العملاقة التي كانت تختفي فيها فيما مضى مدن بكاملها . لقد جرت معارك مخيفة في الشوارع التي كانت تكتنفها من جانبيها أبنية من ذوات الطوابق الستة التي كان سكانها يدافعون عن أنفسهم خطوة خطوة من الأقبية حتى الأسطح العالية . وبعد أن انهارت المدينة ببطء كانت قد ابتلعت الأحياء والأموات . وكانت زمر من الجنود الرومان مسلحين بالمعاول والرفوش يجوبون بين الأنقاض يسحبون الجثث لرميها في الحفر ، وكان يُرى بين كتل الأنقاض جرحى لايزالون يتحركون لبعض الوقت في انتفاضات فجائية . وفي اليوم السابع هجر خمسون ألفاً من الأشخاص بين رجال ونساء وأطفال قلعة بيرسا التي كانوا يلتجئون إليها بعد أن ذاقوا آلام الجوع وسلموا أنفسهم لرحمة العدو فبيعوا بعد ذلك في أسواق النخاسة مثل كل الذين بقوا على قيد الحياة . أما عزر بعل الذي كان قد قاد مصير قرطاجة منذ بداية هذه الحرب فقد نسي كلماته الفخورة التي تمنى فيها « ألا يأتي اليوم الذي يرى فيه في الوقت نفسه نور الشمس ومدينته تلتهمها النيران وأن أفضل احتفال يسير فيه في جنازة الرجال الذين يحبهم قلبه حريقٌ يهلك فيه الوطن » (بوليب XXXVII 2, 8) . على أن القائد اختار مثل هذه اللحظة بالذات لكي يذهب مثل متضرع يتوسل الرحمة من المنتصر . ولجأ آخر المقاومين إلى معبد إشمون الذي كان يسيطر على الأكروبول وأشعلوا النار في أنفسهم مختارين

---

* هي الأميرة الصورية التي أنشأتها ـ المترجم ـ

كان يسيطر على الأكروبول وأشعلوا النار في أنفسهم مختارين بذلك ميتتهم . أما زوجة عزر بعل فقد تزينت بأحسن زينتها كأنها في يوم عيد واصطحبت ولديها وظهرت على سطح المعبد ، وبعد أن لعنت زوجها على ماأبداه من جبن فكرت في أن توجه الشكر لسكيبيون الذي كان قد وعدها بحفظ حياتها عليها ، ثم بعد أن ابتهلت إلى الآلهة دفعت ولديها إلى النيران ، وكما فعلت إيليستا من قبل رمت بنفسها فيها هي الأخرى .

كتب أبيان (Libyca 132) : « عندما رأى سكيبيون مدينة قرطاجة وقد دمرت من رأسها إلى أخمص قدميها يقال إنه زرف الدموع وإنهم رأوه يبكي مصير العدو . وبعد أن تاه طويلا في تأملاته مفكراً في أن المدن والأمم والإمبراطوريات إنما هي كلها كبني الإنسان منذورة للزوال على يد الآلهة (...) أخذ يردد بوعي منه أو غير وعي الأشعار التالية :

سيأتي يوم تهلك فيه إيليون المقدسة

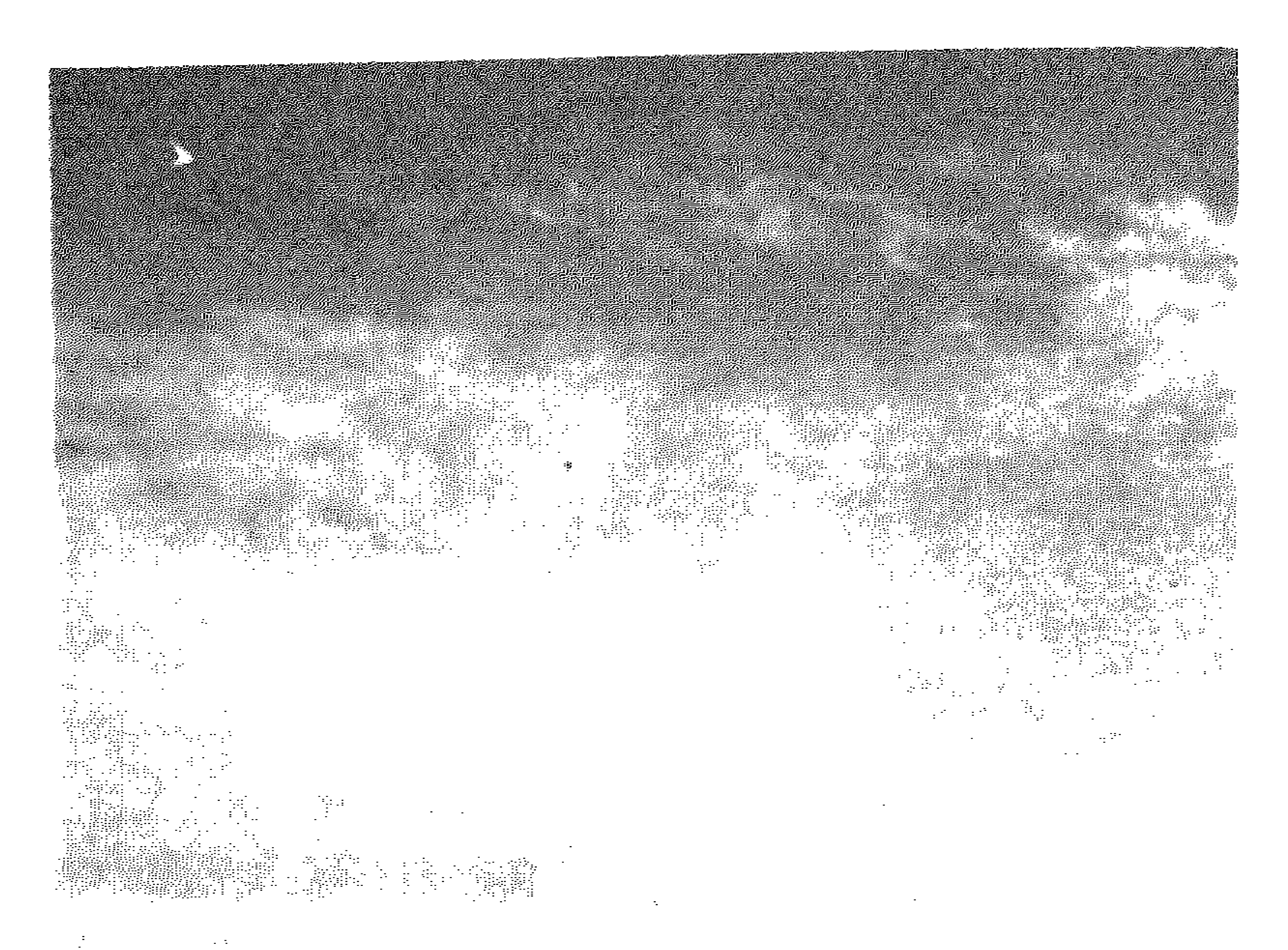
ومعها بريام وشعب بريام بردوس الحراب

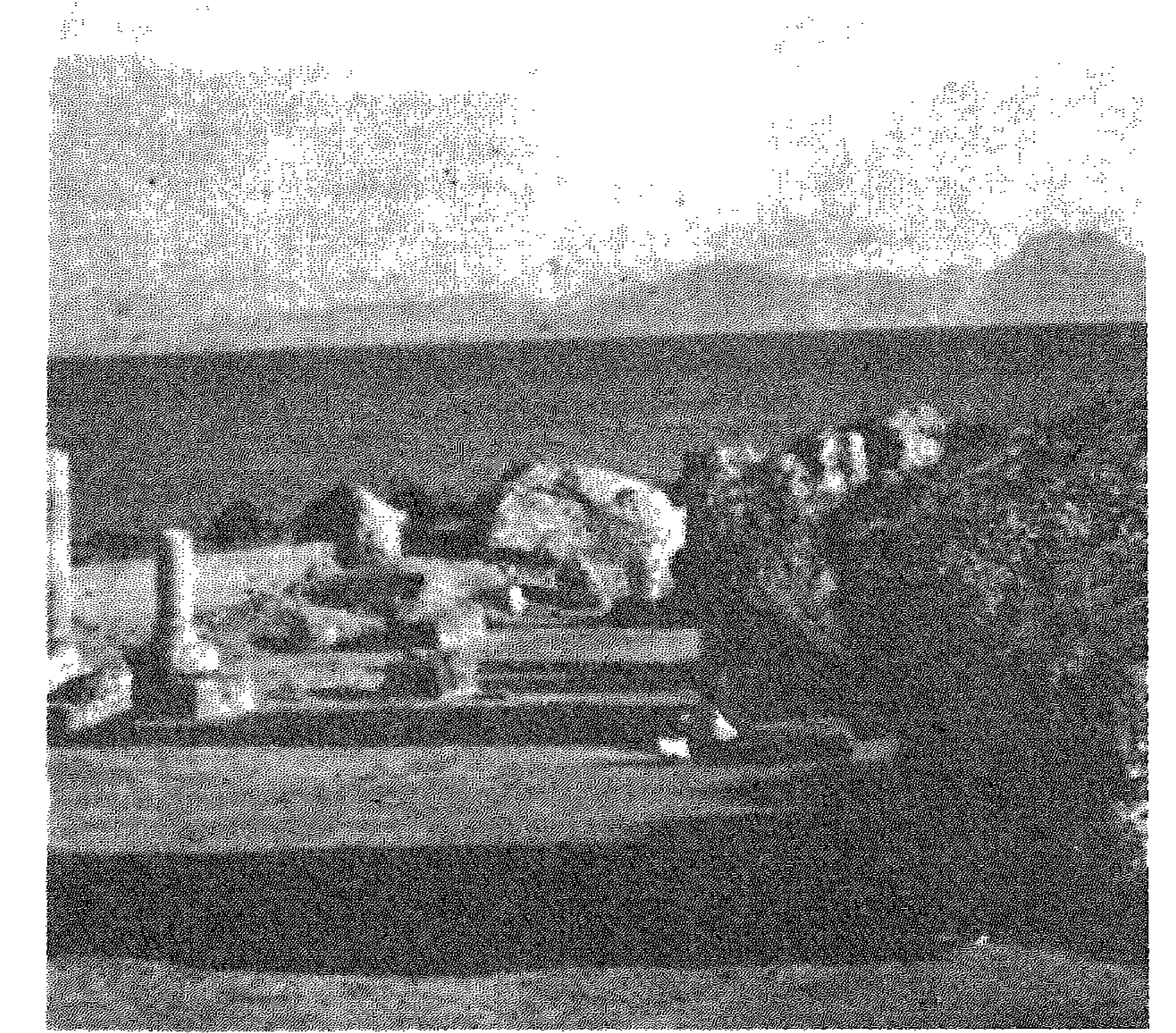
واستمرت النيران تأكل قرطاجة عشرة أيام . وعندما علمت روما بهذه الخاتمة السعيدة نظمت احتفالات كبرى وسارع مجلس الشيوخ بإرسال لجنة لتحيل الأراضي البونية في أفريقيا إلى ولاية رومانية وتصب اللعنة على خرائب المدينة الميتة . وأمر سكيبيون بهدم كل مابقي قائماً من جدرانها وأعلن اللعنات التي تحظر على الناس هذه الأرض المكرسة منذ الآن وإلى الأبد لآلهة الجحيم وعليها ينتشر الملح . ولكن هذه الأبدية كان عليها أن تكون قصيرة المدى ، فبعد ثلاث وعشرين سنة من هذا الطقس الاحتفالي لم يخش كايوس غراكاس من أن يبني مستوطنة اقتطعت من هذه الأرض الملعونة .

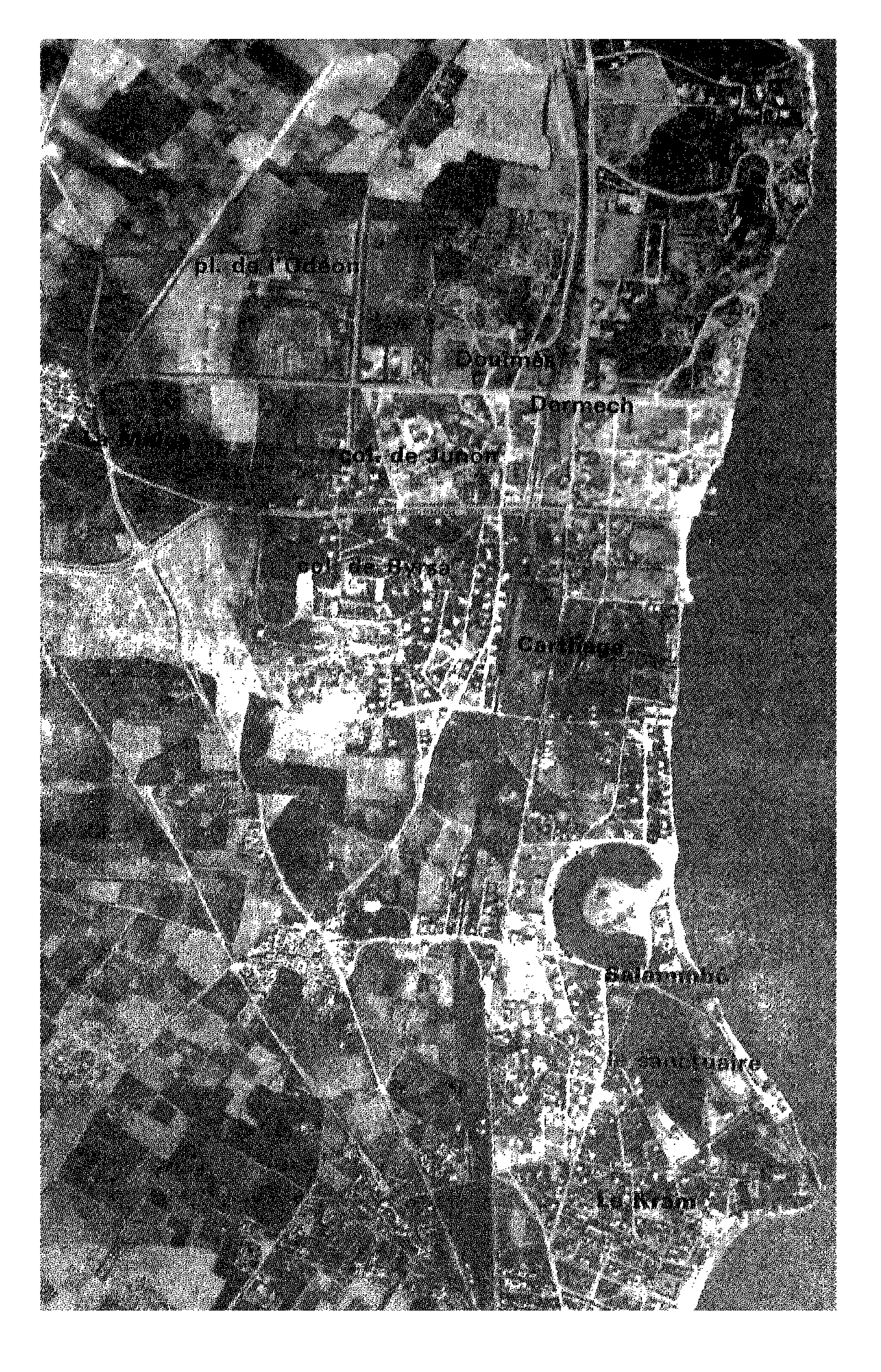
والحقيقة أن خراب المدينة الكبيرة وتصفية سكانها لم يكونا يعنيان نهاية العالم البوني . فنحن نعرف جيداً أن القرطاجيين لايقتصرون على مواطني العاصمة الأفريقية وحدهم وأن قرطاجة ـ بكلمة واحدة ـ لم تكن كلها في قرطاجة . فالعاصمة كانت قد دمغت بخاتمها لاأرضها ومستوطناتها الأفريقية فقط ـ

حيث انتشرت حضارة خليطة أصيلة إلى أبعد الحدود - بل وصقلية أيضاً وسردينيا وإسبانيا الجنوبية . فعلى كل هذه السواحل وخلال قرون أمكن التحدث عن بقاء طويل « للروح القرطاجية » . وحتى اليوم هل زال هذا الطابع تماماً من تلك الأصقاع ؟. يبقى مع ذلك أن قرطاجة اختفت من التاريخ ولم يعد ثمة دولة بونية منظمة تنظيماً سياسياً في البحر المتوسط . لقد كانت « قرت حدشت » (المدينة الجديدة) مثل مركب قيادة لايعوّض فغرق المركب وغرقت الإمبراطورية معه .

إننا لانستطيع أن نمنع أنفسنا من التفكير بقدر هذ الشعب الغريب من التجار الجسورين الطامحين إلى الربح الذي لم يظهر ميلاً لمهنة الحرب واستخدم جيشاً من المرتزقة ، هذا الشعب الذي أعطى مع ذلك في نهاية تاريخه مثلاً عالياً في عزة النفس والإباء بتمرده - حتى ولو أتت هذه الانتفاضة متأخرة - على أوامر روما البربرية . ففي هذه الأيام لم يكن القرطاجيون يقاتلون في الواقع في سبيل منافع تجارية بل من أجل فكرة هي الحرية ونوع من وفاء بالغ السمو ، وهذا العناد اليائس للمحافظة على مايمكن أن يسمى مثلاً أعلى لايمكن إلا أن يكون عظيماً . ولاشك أنه يحسن في حق هذا الشعب كله أن نتمثّل هنا الحكم الذي أطلقه تيت ليف (XXVIII,12) على واحد من ألمع ممثليه ، حنبعل : « ولا أدري ما إذا كان أروع في بأسائه منه في نعمائه » .

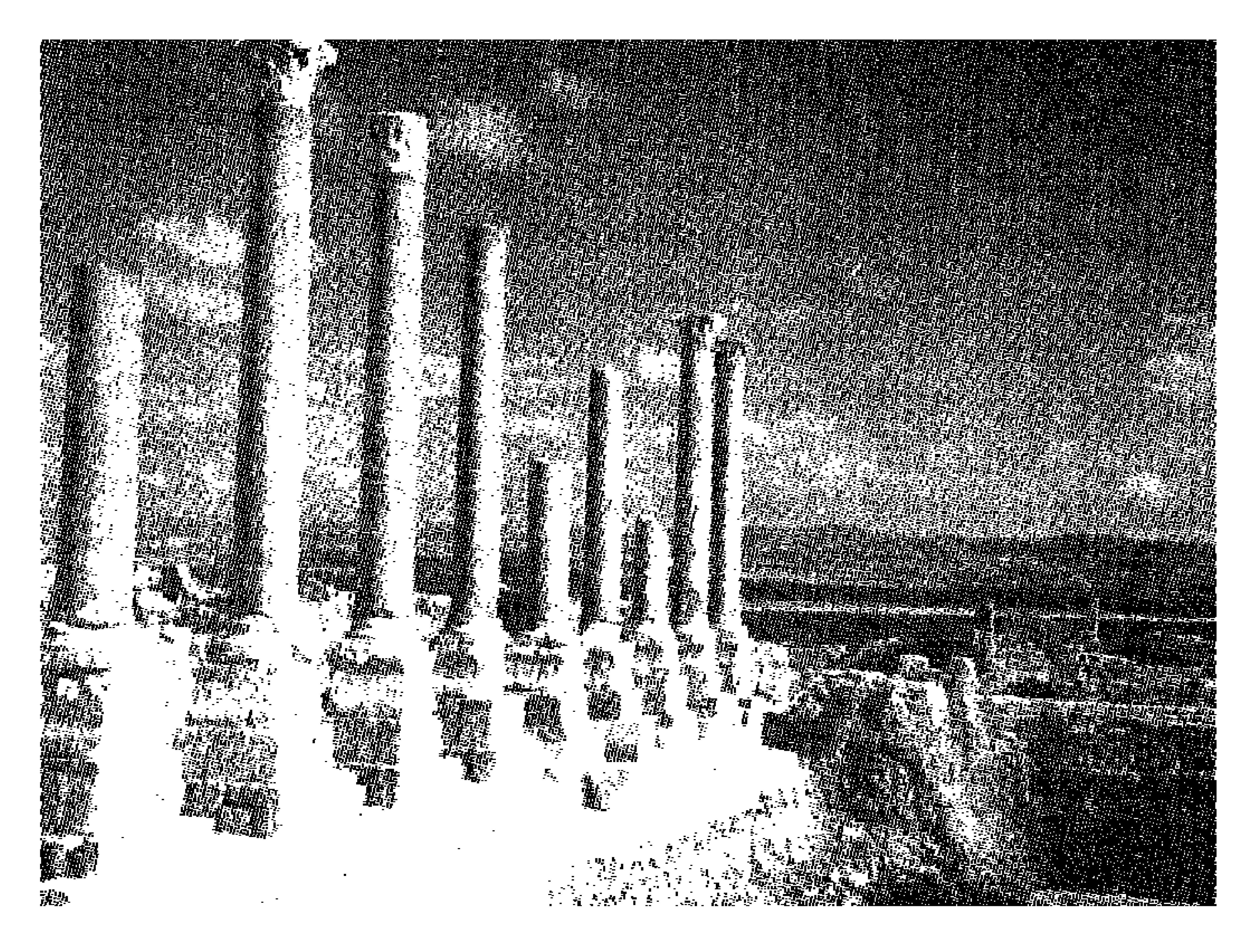




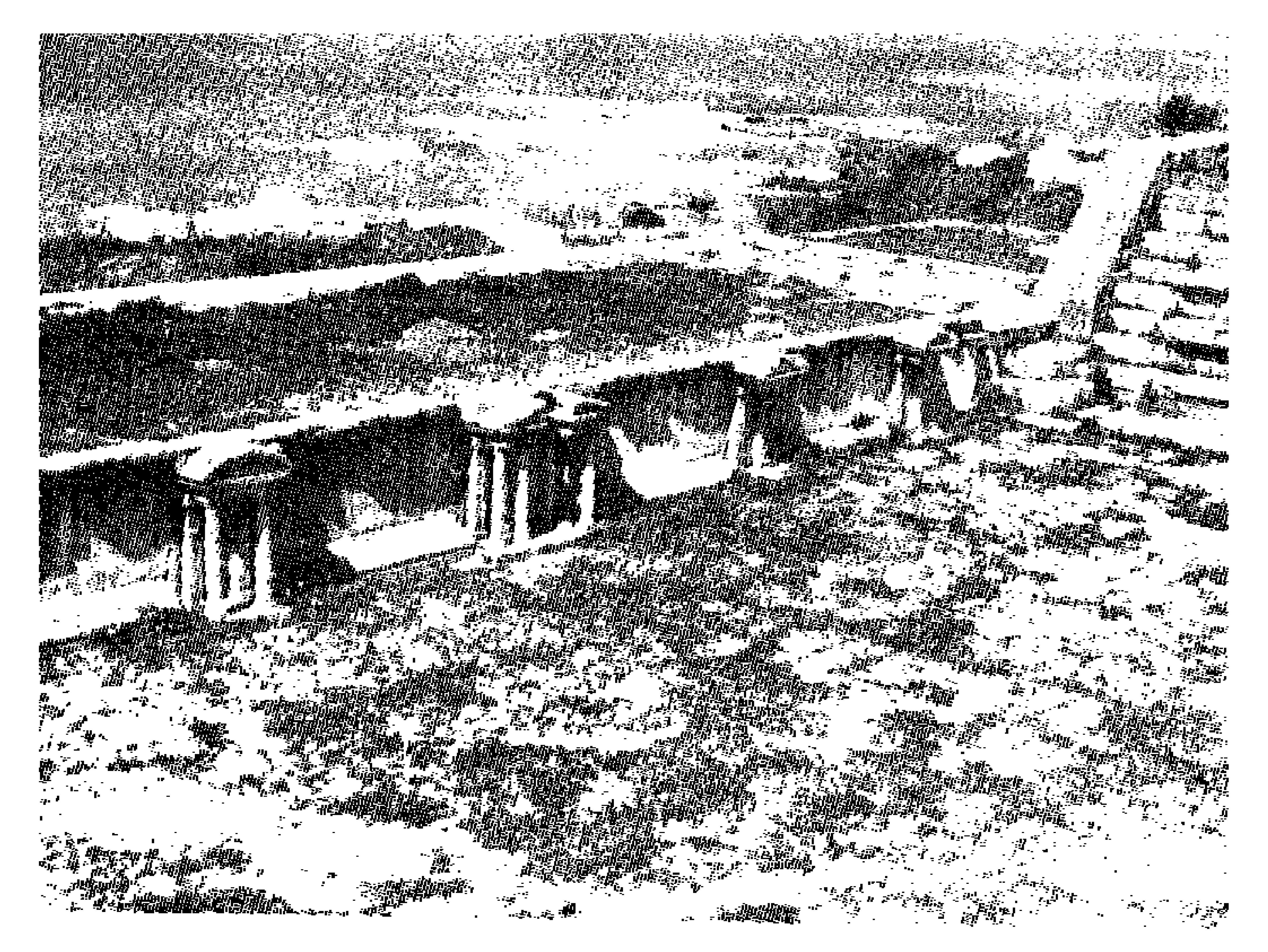

pl. de l'Odéon
Douimès
Dermech
col. de Junon
col. de Byrsa
Carthage
Salammbô
le sanctuaire
Le Kram



جبيل ، الإله ـ رشف من البرونز (بين القرنين ١٩ ـ ١٨ ق . م)



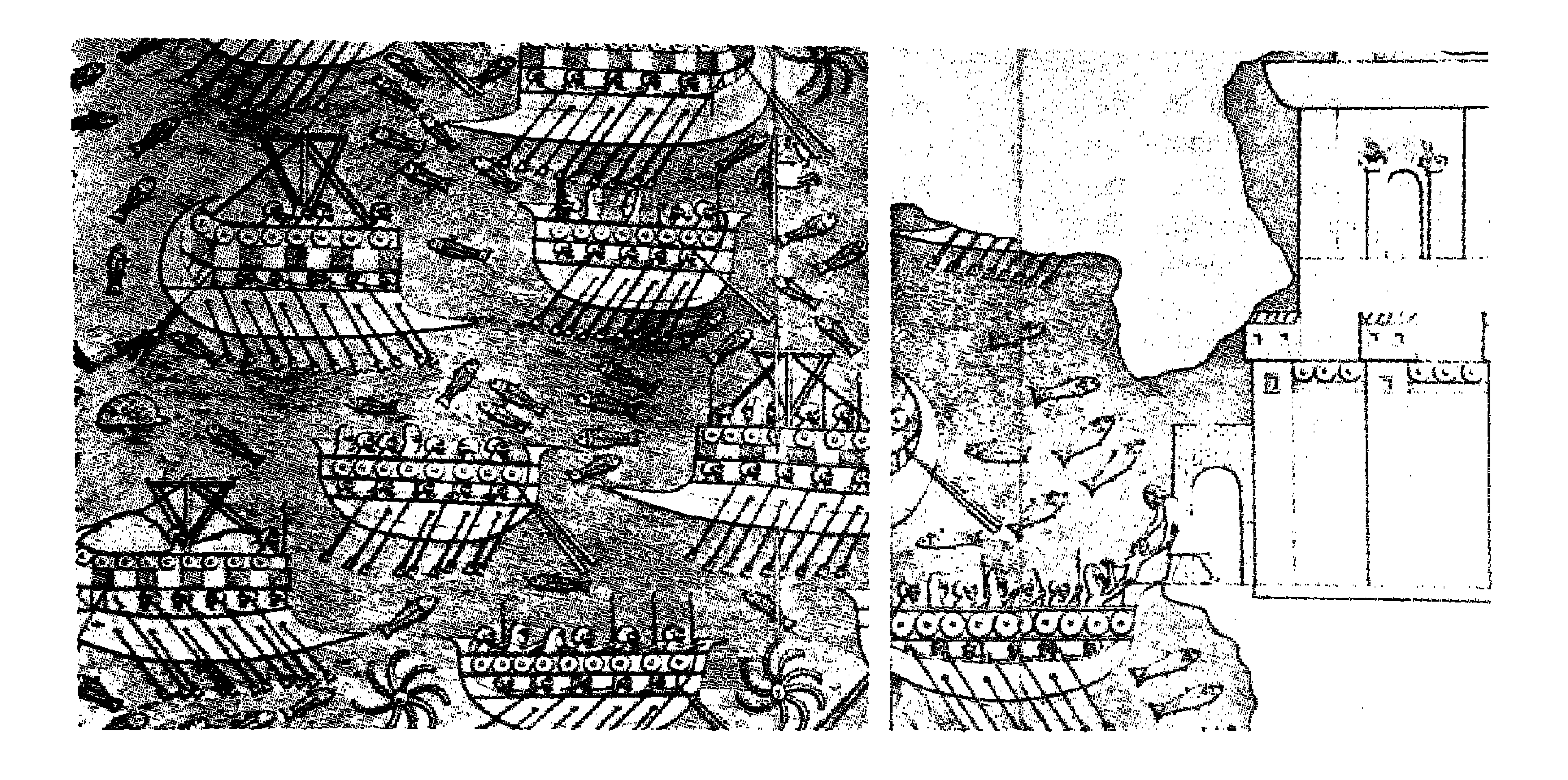
موقع المدينة القديمة



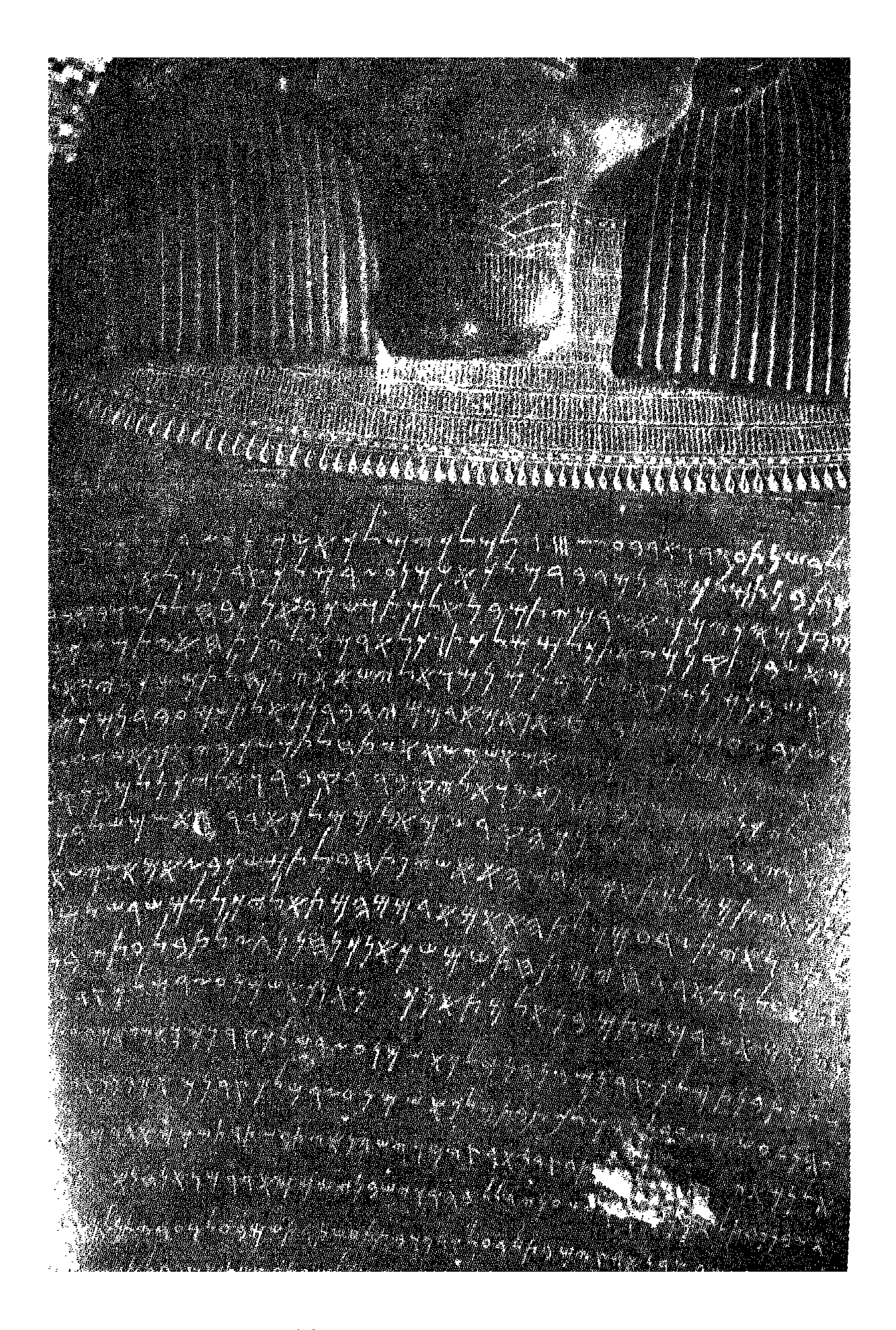
خرائب جبيل (منظر جزئي)



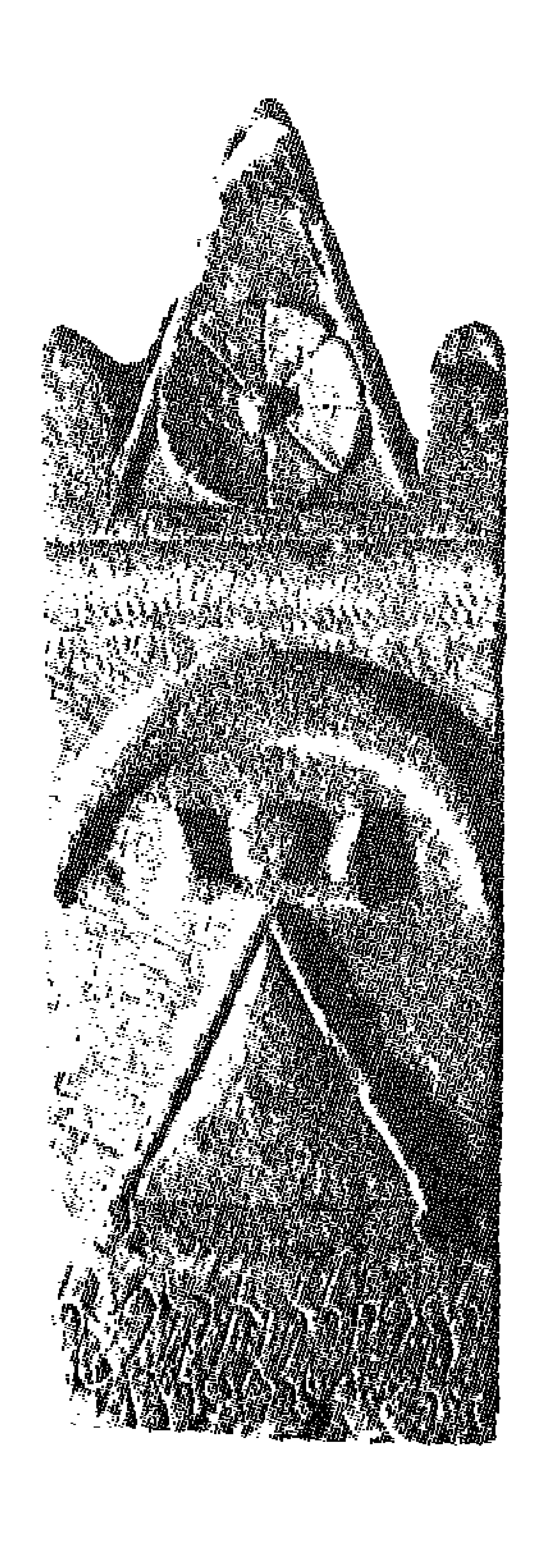
خورساباد : قصر صارغون الثاني : نقل الخشب



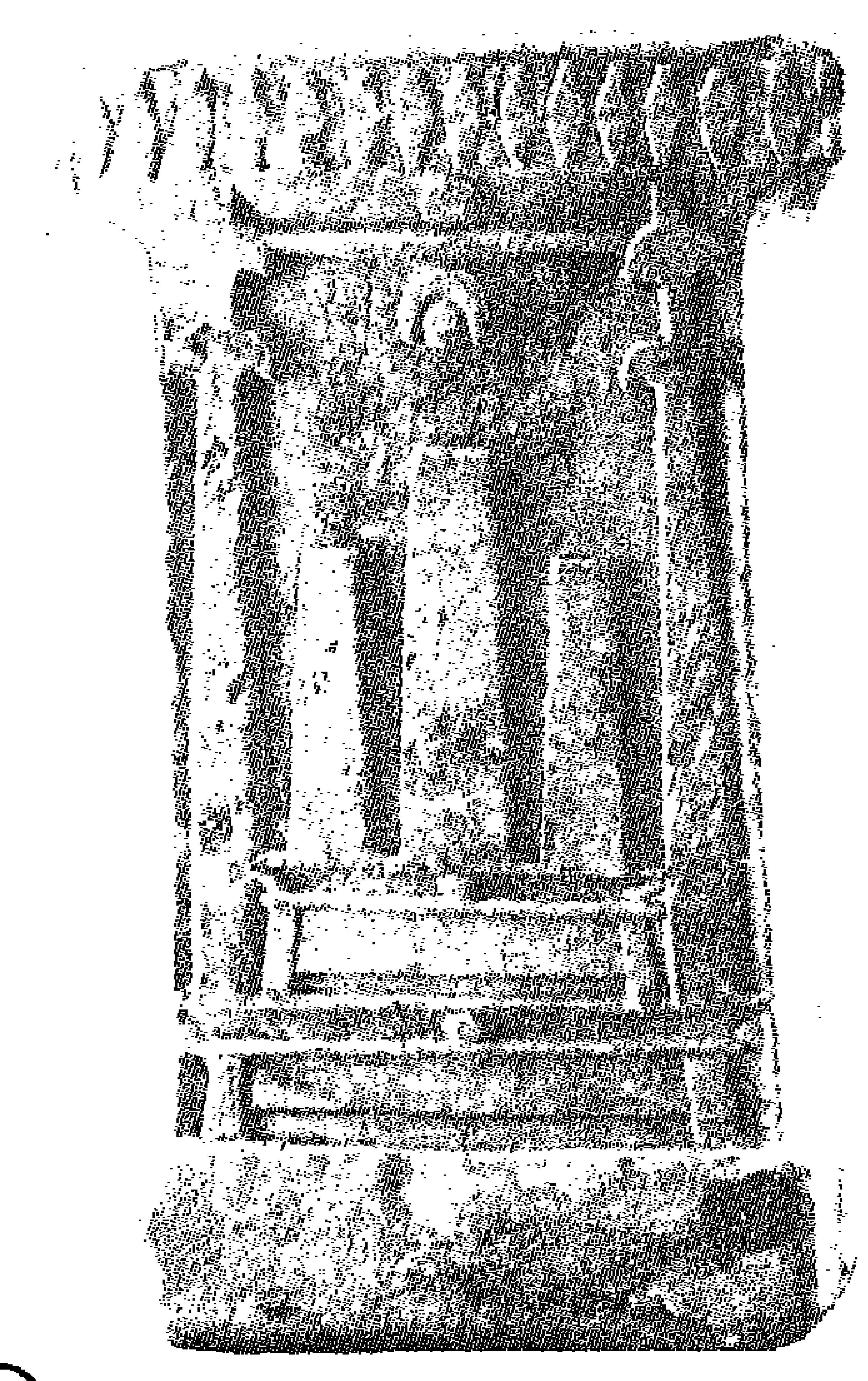
نينوى . قصر سنحاريب : لولي ملك صور وصيدا وهو يهرب إلى قبرص



اشمون عزر صيدا . ناووس الملك



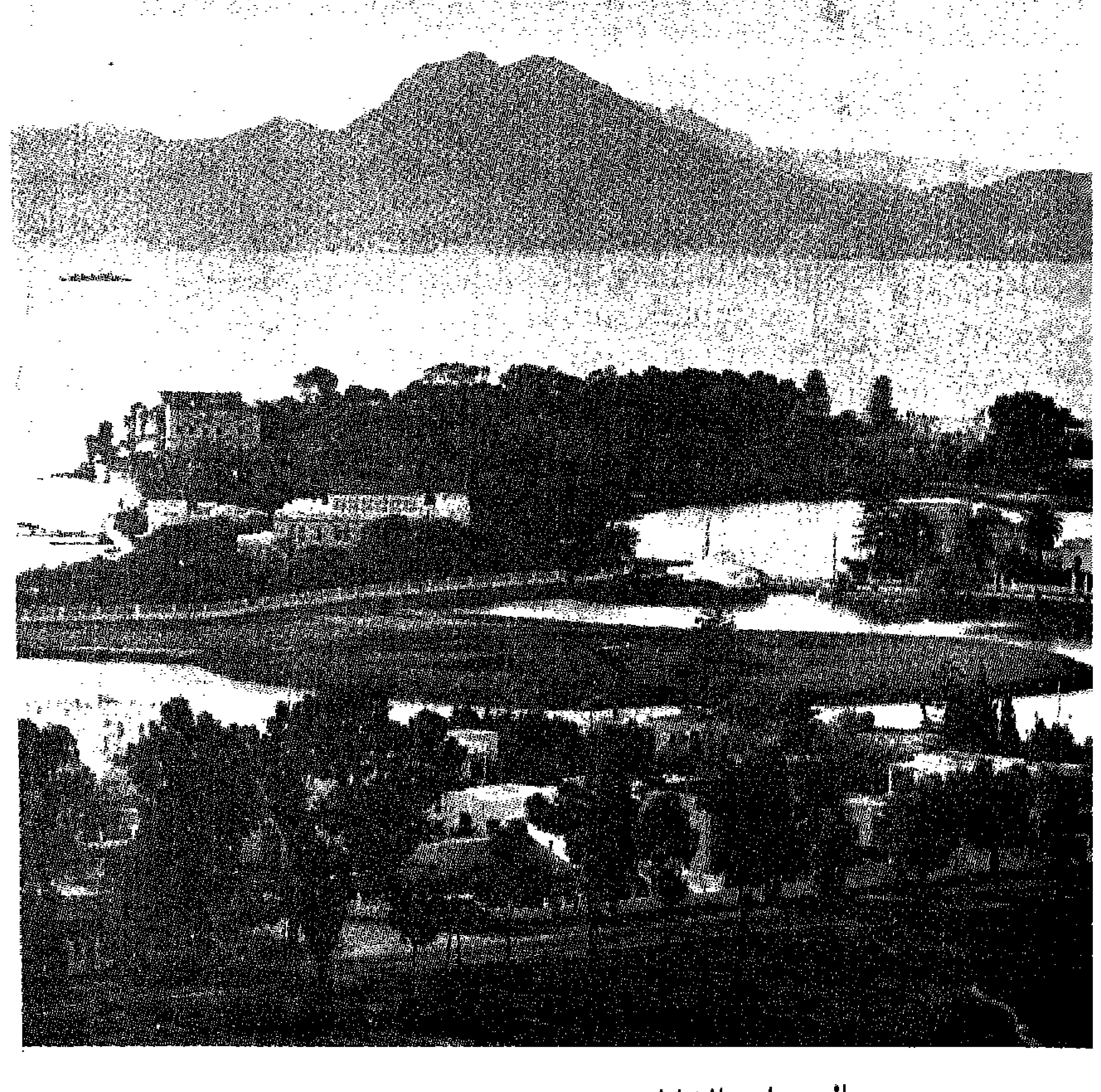
(٢)



(١)

(١) شاهدة قبر نذرية من مقبرة دير ميخ ثلاثة أعمدة ـ أوثان (بيتيل) فوق مذبح . (القرن الرابع ق . م)

(٢) مسلة وفاة من سالامبو تمثل رمز تانيت يعلوه هلال مقلوب وعلى الواجهة العليا المثلثة وردة (القرن الرابع ق . م)



البحيرات الشاطئية فوق موقع مرافىء قرطاجة البونية



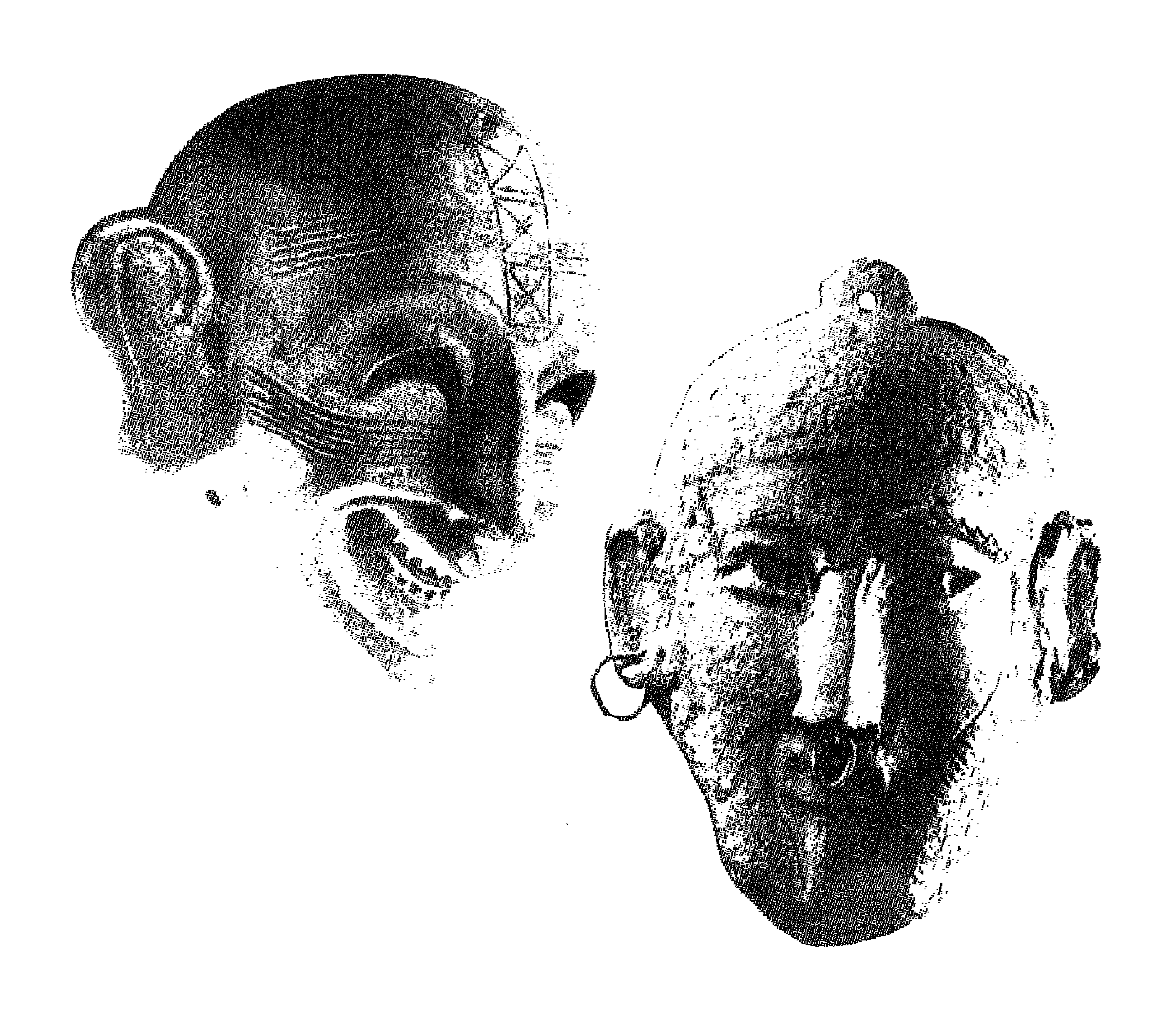
غطاءات لناووسين من المرمر المنحوت ربما كانا يمثلان كاهناً وكاهنة
(القرنان الرابع ـ الثالث ق . م)



« تعرفة الأضاحي » الكبرى المعروفة بالمرسيلية
(القرن الثالث ق . م)



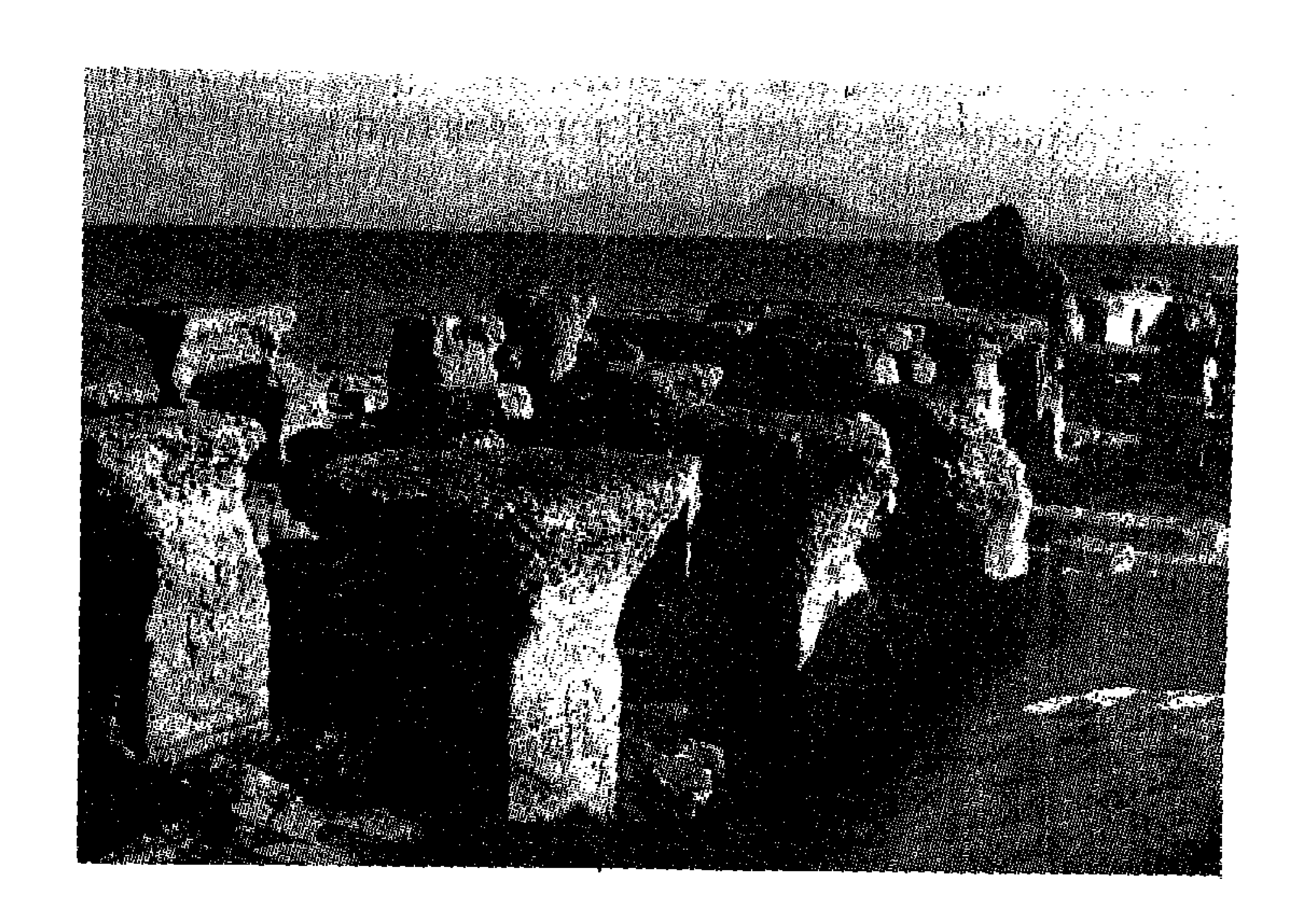
نقد ذهبي من قرطاجة



قرطاجة (مقابر بومنيجل ودويميس) قناعان للرجال أحدهما من القرن الرابع
والثاني مابين القرنين السابع والسادس ق . م



قرطاجة (مقبرة دير ميخ) قناعان نسائيان
(من القرنين ٦ ـ ٧ ق . م)



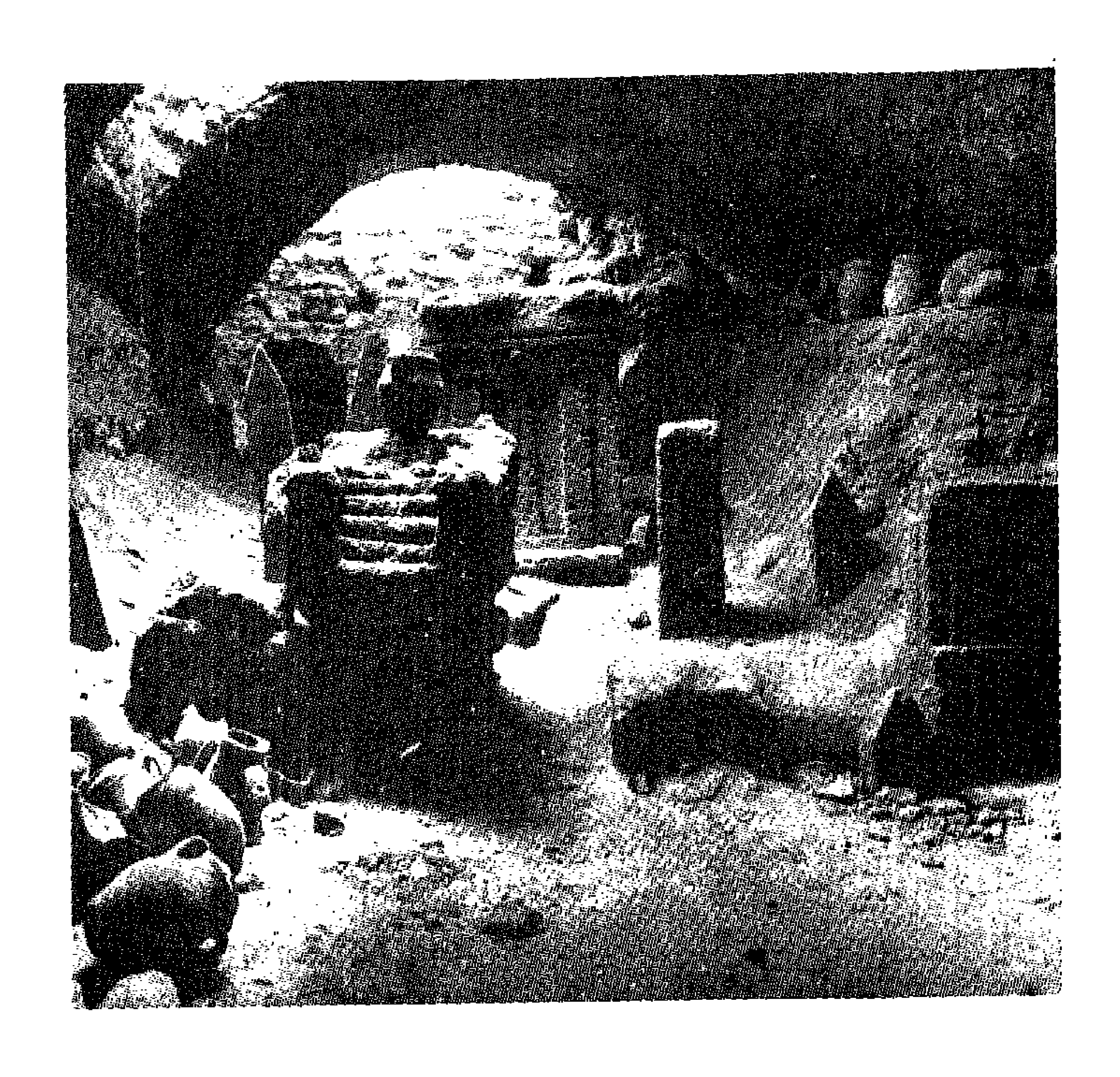
قرطاجة ملتقى طرق الحضارات المتوسطية



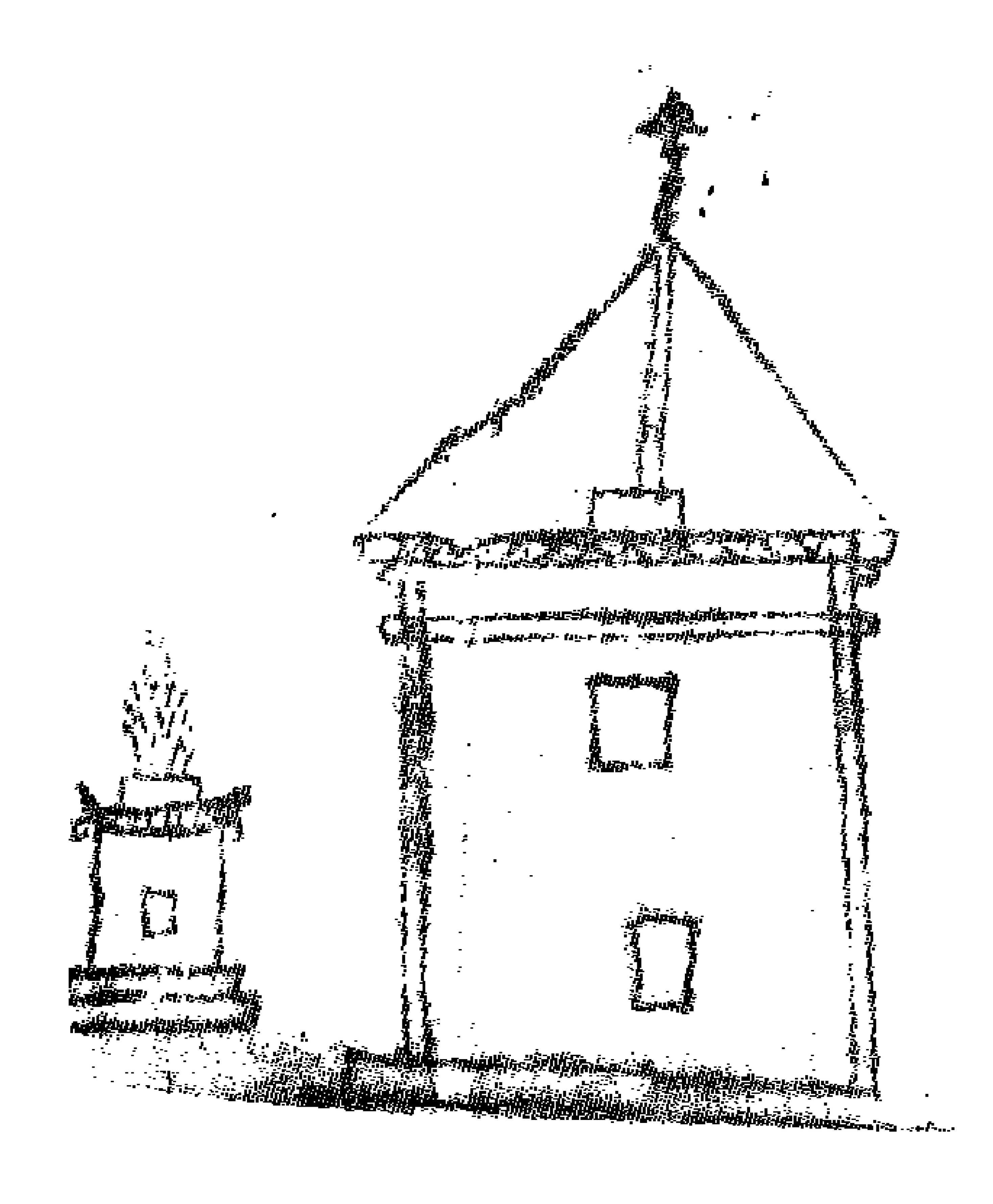
بطل سوسة ، صورة مأخوذة من المذبح (القرن الرابع ق . م)

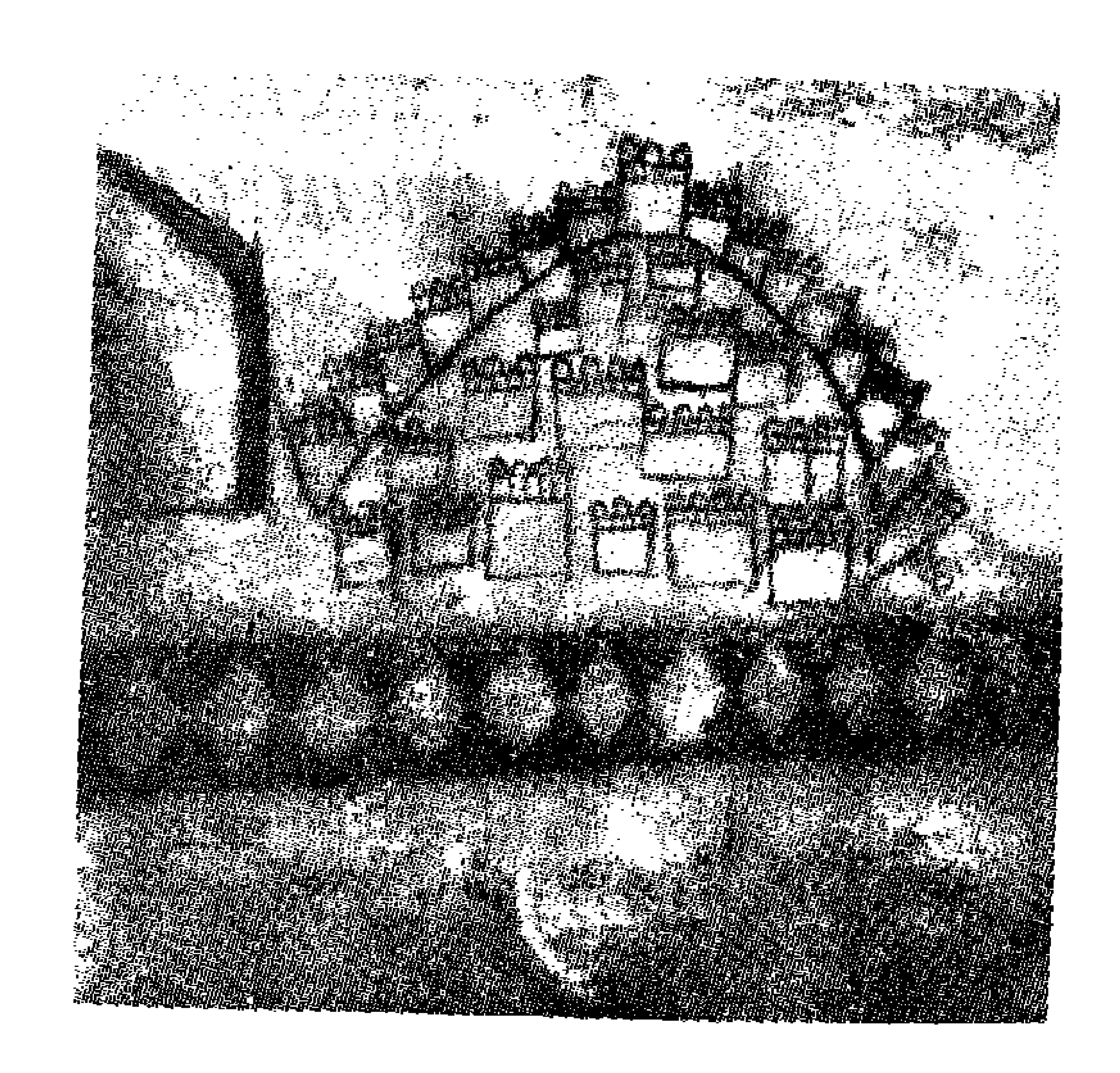


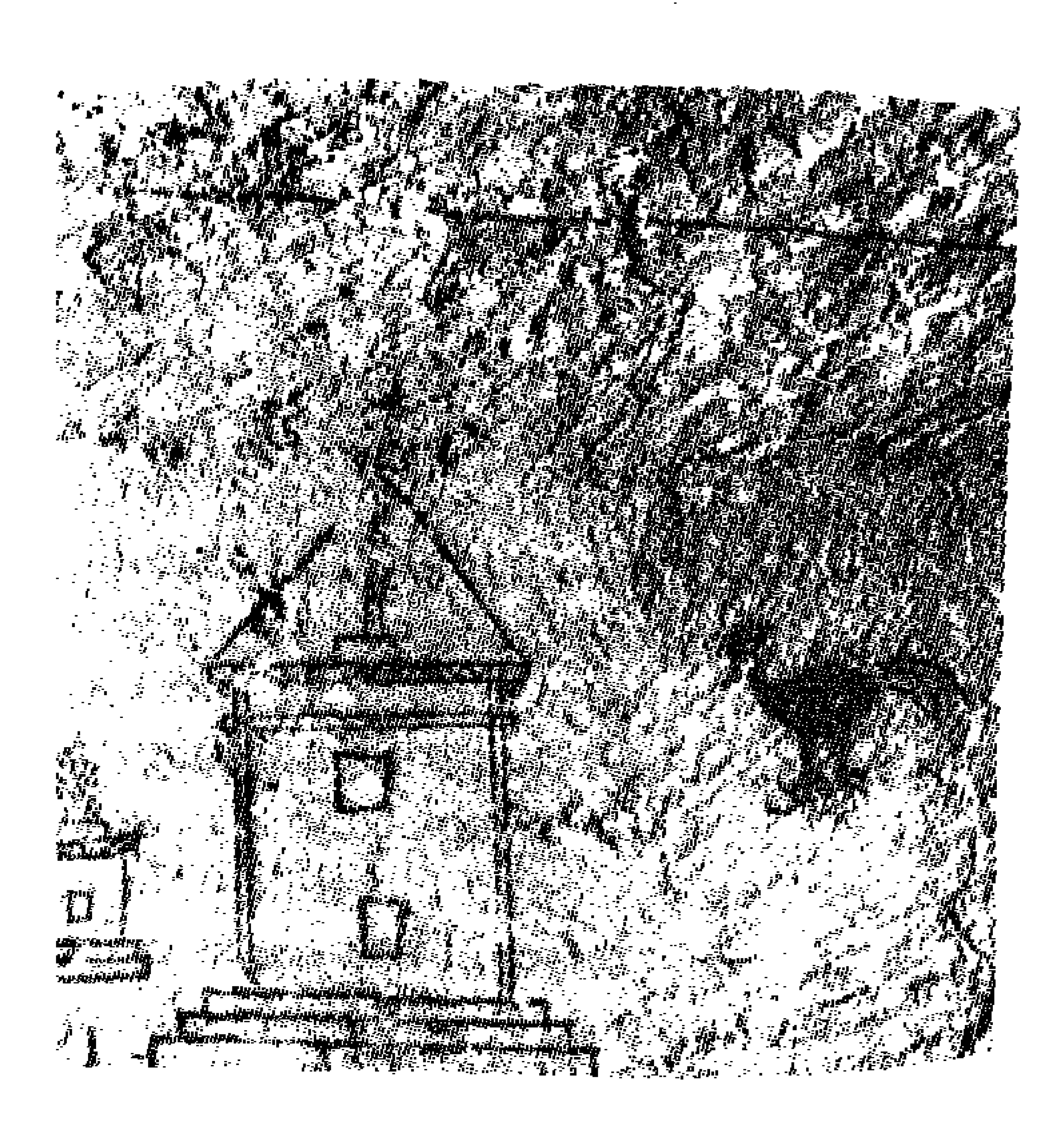
قرطاجة : نصب جندي مقبرة من سالامبو (المحرقة) يمثل كاهنا يحمل بين ذراعيه طفلاً منذوراً أضحية لمولك (القرن الخامس أو الرابع ق . م)



قرطاجة : نُصبٌ وجرار لرماد الموتى في مقبرة (توفيت) سالامبو







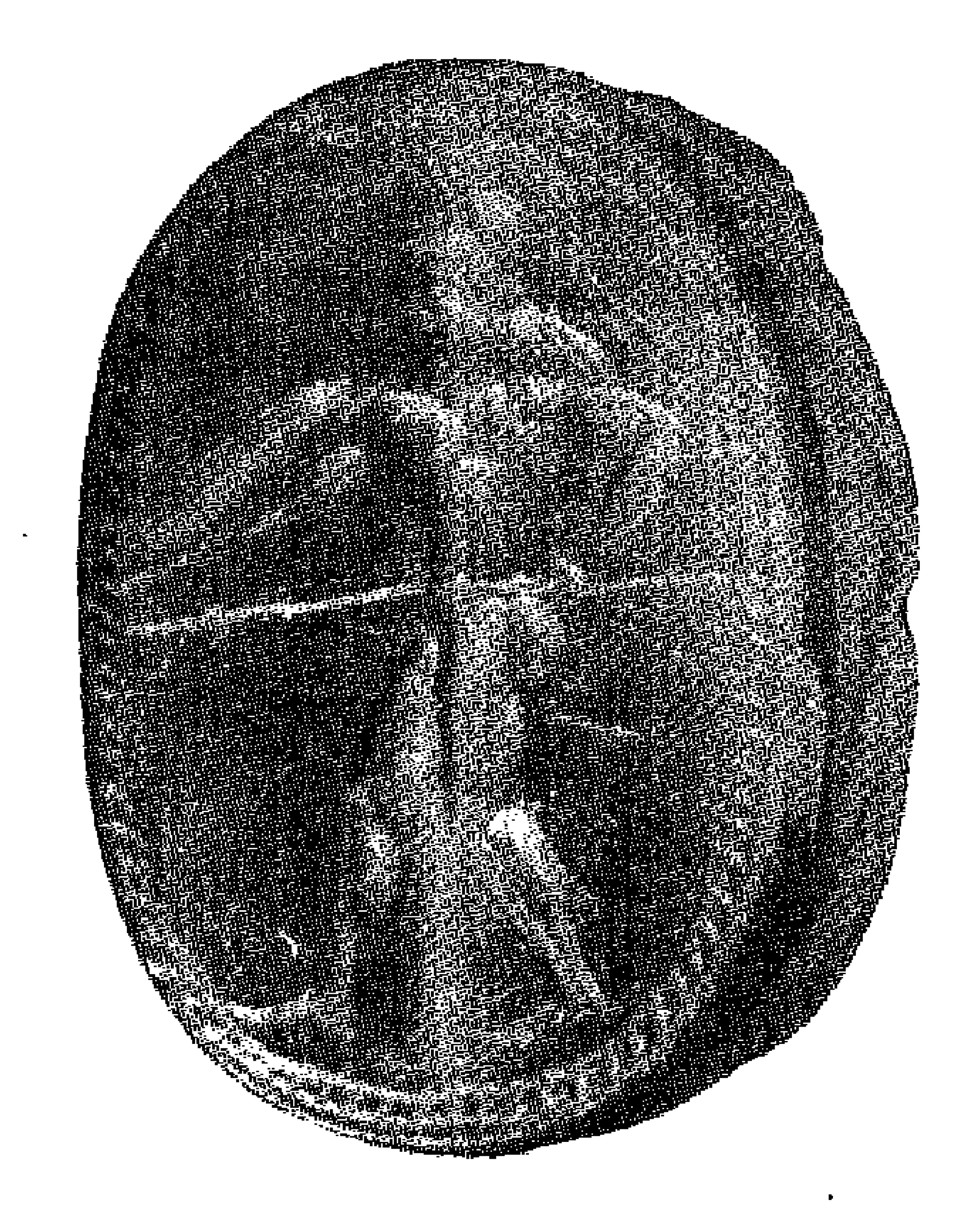
جبـل مليـزا (رأس بـون) :
رسوم جدارية مـن القبـر رقـم ٨
على الطرفين الأيمن والأيسر من
المدخل وعلى الجدار الداخلي



نقد فضي بوني يمثل
رأسا يقال إن لتانيت
(القرن الرابع ق . م)



نقود فضية بونية تمثل حصانا ونخلة (من القرن الرابع ق . م)



قـرطـاجـة : جعـران مـن الكـريسـتـال الصخـري يمثـل محارباً مسلحاً ذا خوذة

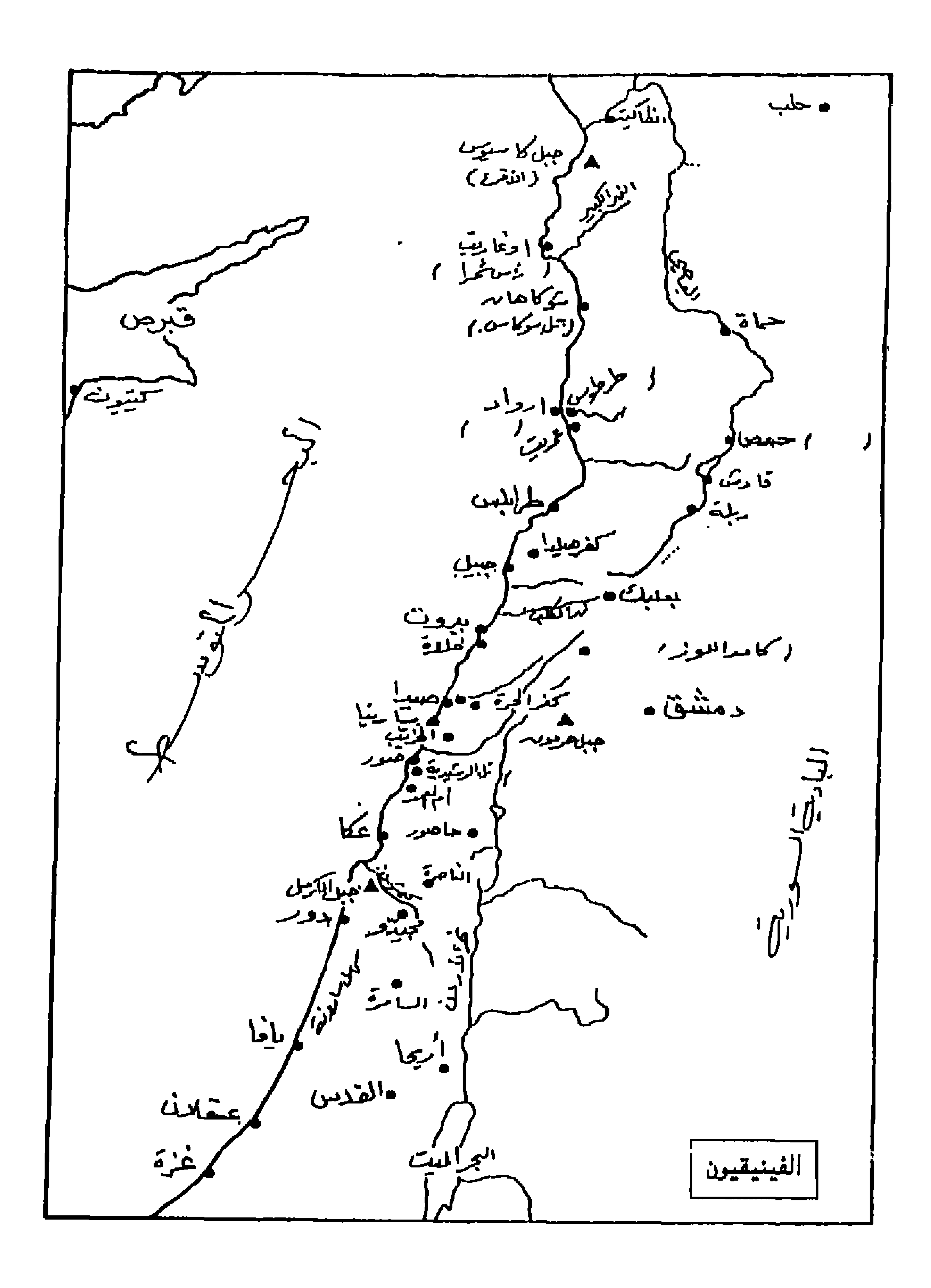


أوتيقيا جعـران مـن الحجـر الأشهـب المـائـل إلى الـزرقـة مرصع بالذهب يمثل محارباً مسلحاً ركبتـه على الأرض . وربمـا كـان ذلـك بمنـاسبـة قيامه بعمل ديني .

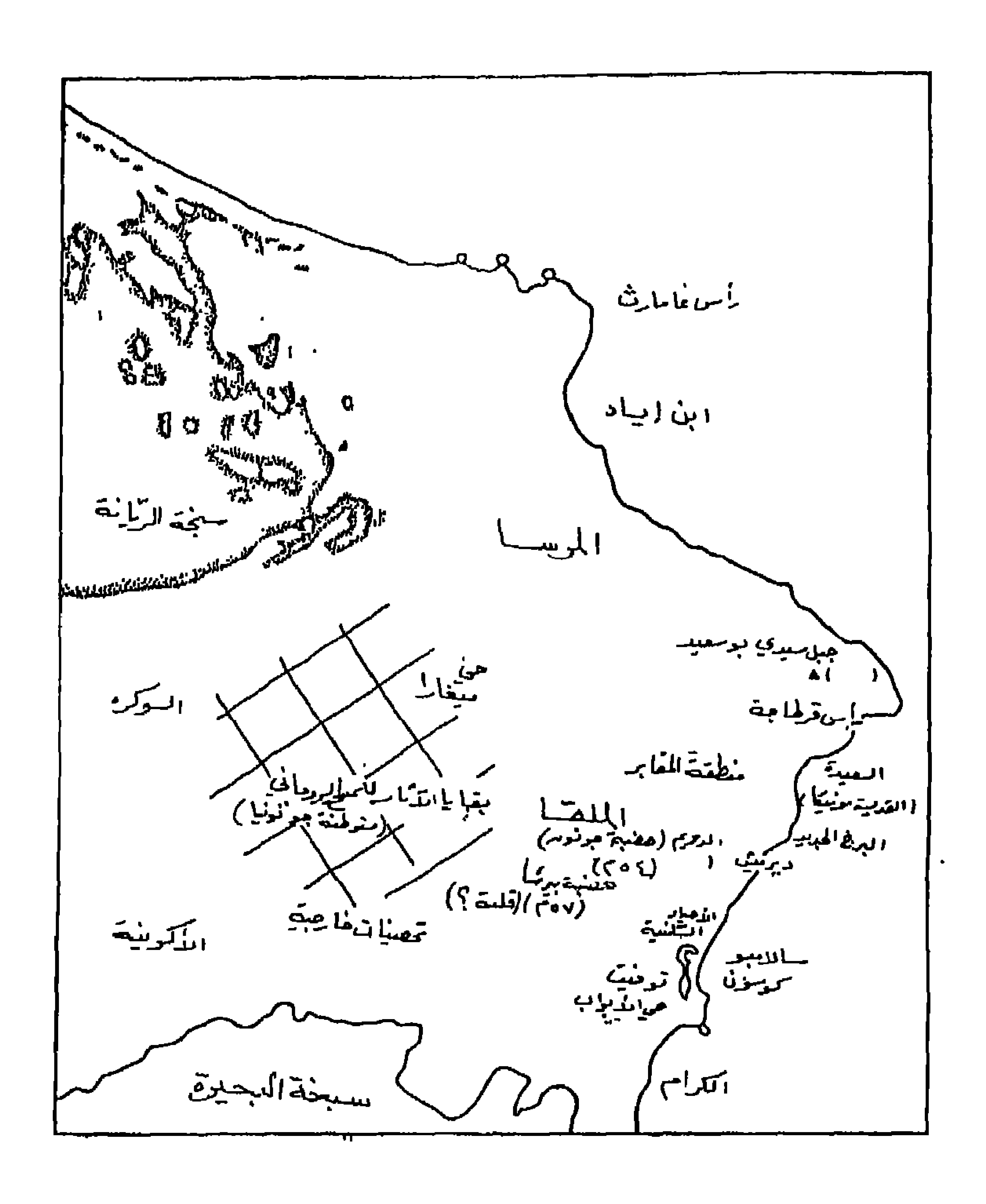


قرطاجة (مقبرة دويميس)
ميدالية من الغضار المشوي
يمثل فارساً مسلحاً وكلباً
(القرن ٤ ق . م)

قرطاجة . (مقبرة سالامبو)
شاهدة نذرية ذات جبهة مثلثية
تمثل امرأة تقدم غطاء وهي
جاثية (القرن ٤ ق . م)


حلب
جبل كاسيوس
(الأقرع)
النهر الكبير
أوغاريت
(رأس شمرا)
قبرص
كيتيون
حماة
أرواد
طرطوس
عمريت
حمص
قادش
ربلة
طرابلس
جبيل
بعلبك
بيروت
خلدة
دمشق
صيدا
جبل حرمون
صور
عكا
الناصرة
جبل الكرمل
دور
مجدو
السامرة
يافا
أريحا
القدس
عسقلان
غزة
البحر الميت
الفينيقيون

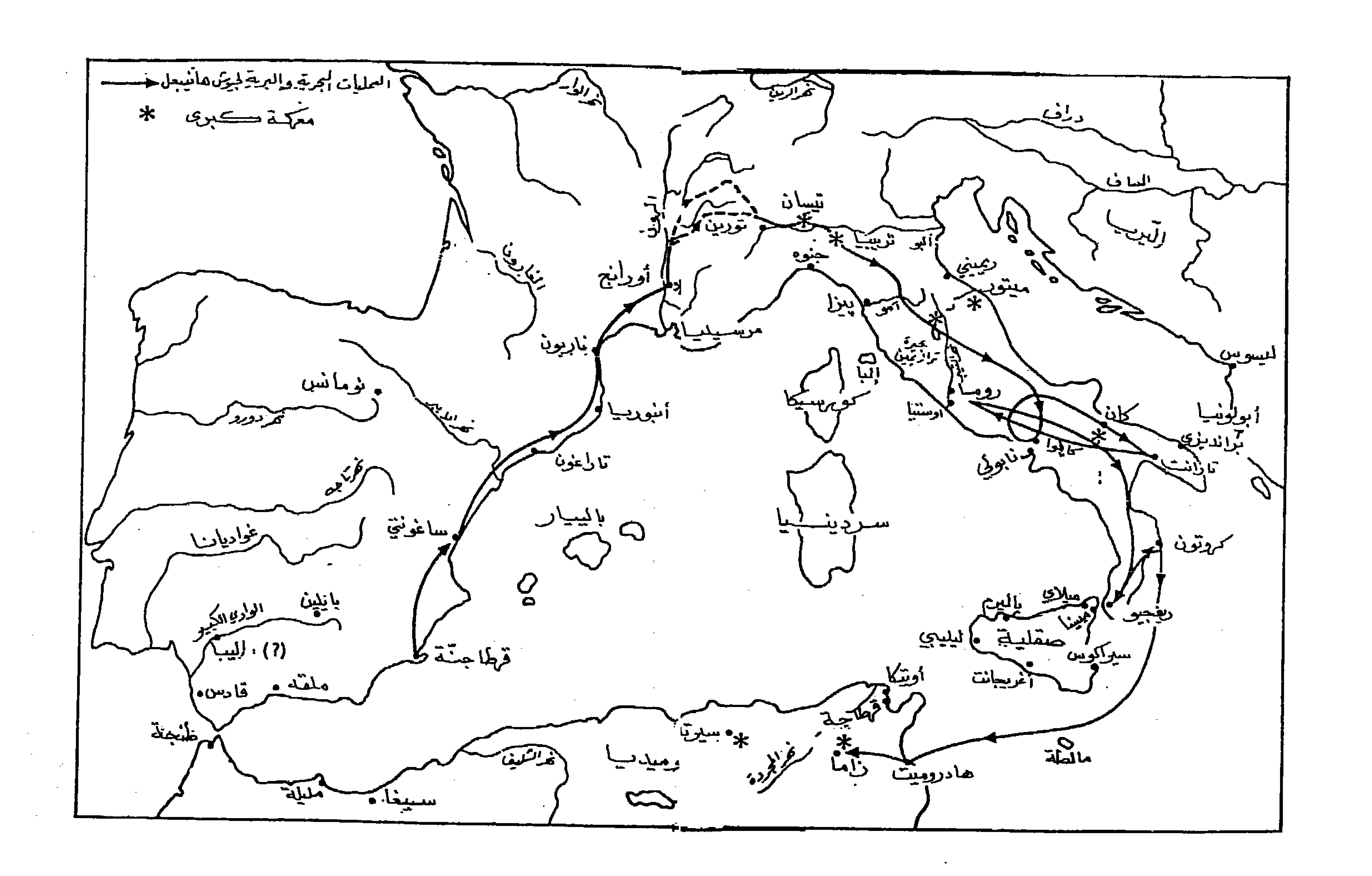


رأس قامارت
ابن إياد
سبخة الريانة
جبل سيدي بوسعيد
رأس قرطاجة
منطقة المقابر
الملقا
تحصينات خارجية
سبخة البحيرة
الكرام

موقع قرطاجة



نهر دورو
مرسيليا
البالييار
البحر التيراني
روما
كورسيكا
أولبيا
ثاروس
نهر تاجا
بحر الأدرياتيك
تارانت
لوكريس
صقلية
سيراكوزا
سيلينونتي
قرطاجنة
اشبيلية
الوادي الكبير
غرناطة
قادس
طنجة
ملقة
سيرتا
تونس
ثوغا
سكيكا
ليبتيس الصغرى
المهدية
أويا
سابراتا
ليبتيس الكبرى



الحرب البونية ٢١٨ ـ ٢٠١ ق . م وخط مسيرة هنيبال

(حن بعل) من قرطاجة إلى زاما


البحر المتوسط
قادس
الصحراء
السودان
خليج غينيا
المراحل الرئيسية لطواف حنون يمكن أن تكون التالية :
(راجع الملاحظة ٧٦)
١ - من قادس الى تيميا تيريون (مصب وادي سيبو قرب المركز الحالي للقنطرة)
٢ - من تيميا تيريون والى الحاجز الصخري (صافي) ثم العودة على مراحل نحو جبتي ومليليا (التي هي بدون شك مستعمرات قديمة لكوتي ومليليا في منطقة طنجة) واخيرا وقفة طويلة في لكسوس (العرائش على وادي لوكوس الحالي)
٣ - من لكسوس الى جزيرة سيرني (خليج ريو دو ورو)
٤ - بعثة استطلاع من سيرني حتى داخل دلتا السنغال والعودة الى سيرني
٥ - من سيرني الى أعماق خليج غينيا (حتى سواحل الكامرون)

طواف حنون

الحواشي

Pour les travaux parus dans des périodiques, on trouvera les références bibliographiques habituelles, c'est-à-dire : nom de l'auteur, titre de l'article, nom de la revue et numéro de volume (généralement en chiffres romains), complété si nécessaire du numéro de la livraison (en chiffres arabes), année de publication du périodique et pagination de l'article (ou indication de la page à laquelle renvoie la note).

1. P. Valéry, *Variété. La crise de l'esprit*, dans *Œuvres*, Paris, Gallimard, « Bibl. de la Pléiade », 1957, t. I, p. 988.

2. Cf. Appien, *Libyca*, 87.

3. Augustin, *Ep. ad Romanos inchoata expos.*, 13, *PL*, t. 35, 2096.

4. Ainsi dans l'inscription accadienne figurant sur la statue du roi Idrimi et, à trois reprises, sur les tablettes d'Alalakh; cf. S. Smith, *The Statue of Idrimi*, Londres, British instit. of archaeol. at Ankara, 1949, p. 14; D. J. Wiseman, *The Alalakh Tablets*, Londres, British instit. of archaeol. at Ankara, 1953, p. 46.

5. Voir l'excellent article de R. de Vaux, « Le pays de Canaan », *Journal of the American Oriental Society*, 88, 1968, p. 23-30.

6. K. M. Kenyon, *Amorites and Canaanites*, Londres, Public. for the British academy (The Schweich lectures), 1966.

7. C. L. Wooley, « La Phénicie et les peuples égéens », *Syria*, II, 1921, p. 176-194.

8. P. Montet, *Byblos et l'Égypte*, Paris, P. Geuthner, 1928.

9. R. de Vaux, « La Phénicie et les Peuples de la Mer », *Mélanges de l'Université Saint-Joseph de Beyrouth*, XLV, 1969, p. 479-498.

10. Voir les travaux d'E. A. Speiser, « The Name Phoinikes », *Language*, XII, 1936, p. 124-125; B. Maisler, « Canaan and the Canaanites », *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 102, avril 1946, p. 7-12; S. Moscati, « Sulla storia del nome Canaan », *Studia Biblica et Orientalia*, III, 1959, p. 266-269; M. Astour, « The Origin of the Terms ' Canaan ', ' Phoenician ' and ' Purples ' », *Journal of near Eastern Studies*, XXIV, 1965, p. 346-350.

11. Cf. C. H. Gordon, *Ugaritic Handbook*, Rome, « Analecta orientalia », nº 38, Pontificio istituto biblico, 1965 (glossaire, nº 2028 et nº 2031).

12. S. Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, t. I, Paris, Hachette, 1921, 3ᵉ éd., p. 371-372.

13. P. Cintas, *Fouilles puniques à Tipasa*, Alger, J. Carbonel, 1949, p. 2 (paru dans *Revue africaine*, XCII, 1948, p. 263-330, cf. p. 264); J.-G. Février, « L'ancienne marine phénicienne et les découvertes récentes », *La Nouvelle Clio*, I-II, 1949-1950, p. 128-143.

14. Voir les remarques suggestives de G. Germain, *Essai sur les origines de certains thèmes odysséens et sur la genèse de l'Odyssée*, Paris, PUF, 1954, p. 444-450.

15. *Odyssée*, XV, 415-482 — trad. fr. par M. Dufour et J. Raison, Paris, Garnier, 1957.

16. Ce sont les dates avancées par E. O. Forrer, « Karthago wurde erst 673-663 v. Chr. gegründet », *Festschrift Franz Dornseiff*, Leipzig, Bibliogr. Inst., 1953, p. 85-93, cf. *Nachtrag, I.*

17. R. Carpenter, « Phoenicians in the West », *American Journal of Archaelogy*, LXII, 1958, p. 35-53.

18. Voir les rapports établis par M. Cagiano de Azevedo *et al.*, *Missione archeologica italiana a Malta. Rapporto preliminare della campagna 1963*, Roma, Istituto di Studi del Vicino Oriente, Università degli Studi, 1964; d'autres rapports portant sur les travaux menés à Malte par la Mission archéologique italienne ont été publiés pour les années suivantes.

19. A. Ciasca, V. Tusa *et al.*, *Mozia-I. Rapporto preliminare della campagna di scavi 1964*, Roma, Istituto di Studi del Vicino Oriente, Università degli Studi, 1964; B. S. J. Isserlin *et al.*, « Motya, a Phoenician-Punic Site near Marsala, Sicily. Preliminary Report of the Leeds-London-Fairleigh Dickinson Expedition, 1961-1963 », *Annual of Leeds University Oriental Society*, IV, Leiden, 1962-1963, p. 84-131; S. Moscati, « Sulla piu antica storia dei Fenici in Sicilia », *Oriens Antiquus*, VII, 1968, p. 185-193.

20. Voir S. Moscati, *Fenici e Cartaginesi in Sardegna*, Milan, Il Saggiatore di A. Mondadori, 1968.

21. R. Rebuffat, « Une pyxis d'ivoire perdue de la tombe Regolini-Galassi », *Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'École française de Rome*, LXXIV, 1962, p. 369-431 (cf. p. 415 *sq.*); « Les Phéniciens à Rome », *ibid.*, LXXVIII, 1966, p. 7-48.

22. P. Cintas, « Deux campagnes de fouilles à Utique », *Karthago*, II, 1951, p. 1-88; « Nouvelles recherches à Utique », *ibid.*, V. 1954, p. 89-155.

23. Voir en particulier les points de vue, parfois contradictoires, de W. F. Albright, « New light on the early history of Phoenician Colonization », *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, LXXXIII, 1941, p. 14-22; A. Schulten, *Tartessos*, Hambourg, Cram, De Gruyter, 1950, 2ᵉ éd.; J. M. Sola Sole, « Tarshish y los comienzos de la coloni-

zación fenicia en Occidente », *Sefarad*, XVII, 1957, p. 23-35; P. Cintas, « Tarsis, Tartessos, Gadès », *Semitica*, XVI, 1966, p. 5-37; J. M. Blasquez, *Tartessos y los origines de la colonización fenicia en Occidente*, Salamanque, Universitad, 1968.

24. *Ez* 27, 1-36. *La Bible-Yehèzqèl*, Paris, Desclée de Brouwer, 1974, (trad. fr. par A. Chouraqui).

25. Cf. Servius, *In Aeneid.*, I, 366 : « Carthago est lingua Poenorum noua ciuitas, ut docet Livius. »

26. Justin, *Histoire universelle*, XVIII, 4-6 — trad. fr. par J. Pierrot, Paris, Panckoucke, 1827.

27. Cf. Flavius Josephe, *Contre Apion*, I, 125.

28. Cf. les documents cités par G. Camps, *Aux origines de la Berbérie — Massinissa ou les Débuts de l'histoire*, dans *Libyca* (série Archéologie-Épigraphie), VII, 1er sem. 1960, p. 26-29.

29. Cf. C. Müller, *Fragmenta historicorum graecorum*, Paris, Didot, 1841 *sq.*, t. I, p. 197 (Timée, fragm. 23).

30. C'est la thèse développée par E. Forrer, *op. cit.*

31. P. Cintas, *Manuel d'archéologie punique*, I, Paris, A. et J. Picard, 1970, p. 310-311 et p. 440-442.

32. Voir les articles de R. Duval, « L'enceinte de Carthage », *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 1950, p. 53-59; F. Reyniers, « Remarques sur la topographie de Carthage à l'époque de la troisième guerre punique », *Mélanges Piganiol*, Paris, S.E.V.P.E.N., 1966, p. 1281-1290.

33. P. Gauckler, *Nécropoles puniques de Carthage*, Paris, A. Picard, 1915, p. 500-501.

34. S. Gsell, *op. cit.*, t. II, Paris, Hachette, 1928, 3e éd., p. 142.

35. Cf. articles cités à la note 32.

36. Sur ce point, fort discuté, voir par exemple les travaux de C. Saumagne, « Le port punique de Carthage; observations et hypothèses », *Historia*, V, 2, 1931, p. 173-195; « Le lungomare de la Carthage romaine », *Karthago*, X, 1959-1960; J. Baradez, « Nouvelles recherches sur les ports antiques de Carthage », *Karthago*, IX, 1958, p. 45-78; P. Mingazzini, « Il porto di Cartagine ed il *Kothon* », *Atti della Accademia dei Lincei, Rendiconti*, cl. di sc. mor. stor. e filol., 23, 1968, p. 137-152. Sur les résultats des fouilles archéologiques en cours dans l'« îlot de l'amirauté », voir H. Hurst, « Excavations at Carthage, 1974 — First interim report », *The Antiquaries Journal*, LV, 1, 1975, p. 11-40 (avec X pl.).

37. Cf. S. Gsell, *op. cit.*, t. II, p. 142. Au sujet de cette traduction, et de son interprétation, outre les remarques avancées par C. Saumagne (voir note 36), il faut lire les observations souvent très pertinentes de P. Cintas, dans son *Manuel d'archéologie punique*, II, Paris, A. et J. Picard, 1976, p. 139-233 — l'auteur veut proposer ici (p. 187) une traduction « non interprétative ni truquée » du texte si discuté d'Appien.

38. Cf. l'état de la question dans le travail de P. Cintas, *op. cit.* (note 37), p. 239-387.

39. P. Gauckler, *op. cit.*, p. 399-400.

40. Aristote, *Politique*, II, 11, 1272 b — 1273 b — trad. fr. par J. Aubonnet, Paris, coll. Budé, 1960.

41. Cf. Strabon, *Géographie*, I, 4, 9.

42. Polybe, *Histoire*, livre VI, ch. 7, paragr. 51 — la traduction de ce passage, comme celle des autres citations de Polybe, est empruntée au travail de D. Roussel, Paris, Gallimard, « Bibl. de la Pléiade », 1970.

43. Sur ce chapitre de l'armée punique, le travail de S. Gsell, *op. cit.*, t. II, p. 331-435, demeure fondamental.

44. Voir l'article de S. Gsell, « Étendue de la domination carthaginoise en Afrique », *Recueil de mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes*, Alger, École supérieure des Lettres, 1905, p. 347-387, à corriger par C. Saumagne, « Observations sur le tracé de la ' *Fossa regia* ' », *Rendiconti della reale Accademia dei Lincei*, 1928, p. 451-459.

45. Columelle, *De re rustica*, XII, 39, 1-2.

46. Voir à ce sujet la communication de M. H. Fantar, « Présence punique au Cap Bon », *Kôkalos*, XVIII-XIX, 1972-1973, p. 264-277; J.-P. Morel, « Kerkouane, ville punique du cap Bon : remarques archéologiques et historiques », *Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'École française de Rome*, LXXXI, 1969, p. 473-518 (cf. p. 474-488 : « La Maison du Sphinx »).

47. Le « tarif sacrificiel » le plus complet a été découvert en 1844 à Marseille; ce document, déposé aujourd'hui au musée Borely, provient de Carthage — pour la traduction, voir l'article de M. Sznycer, « La littérature punique », *Archéologie vivante*, I, 2, 1968-1969, p. 141-148 (cf. p. 144-145), et J.-G. Février, « Remarques sur le grand Tarif dit de Marseille », *Cahiers de Byrsa*, VIII, 1958-1959, p. 35 *sq*.

48. P. Cintas, *Céramique punique*, Paris, Klincksieck, 1950, p. 4

49. *Ibid.*, p. 5.

50. Sur ce sujet des statuettes vasiformes recueillies dans les tophets et les nécropoles de toute la zone d'influence punique de la Méditerranée centrale et occidentale, voir l'étude de J. Ferron et M. E. Aubet, *Orants de Carthage*, 2 vol., coll. *Cahiers de Byrsa*, série Monographies, t. I, Paris, 1975.

51. G. Charles-Picard, *Le Monde de Carthage*, Paris, Corréa, 1956, pl. 18, n° 4.

52. Cf. J. Ferron, « Textes gravés sur rasoirs puniques », *Le Muséon*, LXXIX, 1966, p. 443-451; C. Picard, « Sacra punica, étude sur les masques et les rasoirs de Carthage », *Karthago*, XIII, 1965-1966 (1967), p. 1-116 et XXXVII pl.

53. On trouvera une très bonne description d'une collection de

coquilles d'œufs d'autruche provenant du site punique de Gouraya *(Gunugu)*, sur la côte algérienne — près de Cherchel —, dans l'exposé de M. Astruc, « Supplément aux fouilles de Gouraya », *Libyca* (série Archéologie-Épigraphie), II, 1er sem. 1954, p. 9-48.

54. P. Gauckler, *op. cit.*, p. 398-399.

55. Voir l'étude de G. Camps, *op. cit.*, p. 57-157.

56. A. Mahjoubi et M. Fantar, « Une nouvelle inscription carthaginoise », *Atti della Accademia Nazionale dei Lincei*, CCCLXIII, 1966, *Rendiconti, classe di scienze morali, storiche e filologiche*, XXI, fasc. 7-12, p. 201-209.

57. Cf. la communication d'A. Dupont-Sommer, « Une nouvelle inscription punique de Carthage », *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 1968, p 116-132 (voir p. 129).

58. Plutarque, *Ethika* (lat. *Moralia — Praecepta gerendae rei publicae*, III, 6); sur ce même point, voir S. Gsell, *op. cit.*, t. IV, 1929, 2e éd., p. 215-220.

59. Sur ce traité et le problème de sa datation, voir état de la question et bibliographie dans J. Heurgon, *Rome et la Méditerranée occidentale jusqu'aux guerres puniques*, Paris, PUF, coll. « Nouvelle Clio », 1969, p. 386-395; au sujet des inscriptions bilingues découvertes sur le site de Pyrgi, voir, du même auteur, « Les inscriptions de Pyrgi et l'alliance étrusco-punique autour de 500 av. J.-C. », *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 1965, p. 89-103, et le dernier travail de J. Ferron, « Un traité d'alliance entre Caere et Carthage contemporain des derniers temps de la royauté étrusque à Rome ou l'événement commémoré par la quasi-bilingue de Pyrgi », *Aufstieg und Niedergang der Römischen Welt*, Berlin, Walter de Gruyter, t. I, 1, 1972, p. 189-216 et III pl. (importante bibliographie).

60. Cf. R. Carpenter, « Navigateurs puniques sur les routes de la mer », *Archéologie vivante* (voir note 47), p. 31-36.

61. Outre les travaux déjà signalés (note 19), voir B. Pace, *Arte e civiltà della Sicilia*, I, Milan-Rome-Naples, Società Editrice Dante Alighieri, 1958, 2e éd.; L. Pareti, *Sicilia antica*, Palerme, Palumbo, 1959.

62. Cf. note 20 et F. Barreca, « La città punica in Sardegna », dans *Bolletino del Centro di Studi per la storia dell'architettura*, XVII, Rome, 1961, p. 27-37; sur le Monte Sirai, voir les divers rapports des campagnes de fouilles (pour 1963 et les années suivantes) établis par F. Barreca, M. G. Amadesi, S. Moscati, M. et D. Fantar et autres (publiés par l'Istituto di Studi del Vicino Oriente de l'Université de Rome).

63. Cf. note 18.

64. P. Cintas, *Fouilles puniques à Tipasa*, *op. cit.*, p. 8-9; *Céramique punique*, *op. cit.*, p. 574; *Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc*, Publications de l'Institut des Hautes Études marocaines, no 56, 1954, p. 10-16. (Cf. p. 11 : « On devait veiller sans cesse sur les

coques fragiles et qui devaient, plus ou moins, faire eau sans cesse. Tenir la mer plusieurs jours d'affilée devait donc être un véritable exploit, et il fallait, par conséquent, s'arrêter souvent, et, si possible, tous les soirs, poür tirer les bateaux au sec. »)

65. Voir à ce sujet les remarques de J. Rougé, *La marine dans l'Antiquité*, Paris, PUF, coll. « Sup », 1975, p. 154.

66. Cf. note 46.

67. Pour les références littéraires à l'œuvre d'Augustin d'Hippone, voir C. Courtois, « Saint Augustin et la survivance du punique », *Revue africaine*, XCIV, 1950, p. 259-282; M. Benabou, *La Résistance africaine à la romanisation*, Paris, Maspero, 1976, p. 483-489.

68. J. Carcopino, *Le Maroc antique*, Paris, Gallimard, 1943, 1re éd., p. 26-27.

69. Sur ces différents sites, voir l'excellent travail de G. Vuillemot, *Reconnaissances aux échelles puniques d'Oranie*, Autun, Musée Rolin, 1965; pour l'île de Rachgoun, cf. *ibid.*, p. 36-40 et p. 55-130.

70. A. Garcia y Bellido, « Colonización púnica », dans R. Menendez-Pidal, *Historia de España*, t. 1, vol. 2, Barcelone, Espasa-Calpe, 1952 (1960, 2e éd.), p. 389-462 (« Las colonias púnicas »), et carte p. 314.

71. C'est le point de vue de G. Charles-Picard, *Hannibal*, Paris, Hachette, 1967 (cf. p. 79 *sq.*, 93 *sq.*); cette thèse est contestée par J.-P. Brisson, *Carthage ou Rome ?*, Paris, Fayard, 1973 (cf. p. 131-133).

72. Sur cette question des origines de la deuxième guerre punique, voir les thèses en présence dans J. Carcopino, « Le traité d'Hasdrubal et la responsabilité de la seconde guerre punique », *Revue des Études anciennes*, LV, 1953, p. 258-293 (où l'auteur identifie l'Èbre antique avec l'actuel rio Jucar), et F. Cassola, *I Gruppi Politici Romani nel III° secolo a.C.*, Trieste, Arti Grafiche, Smolars, 1962, p. 246-253 (qui établit les responsabilités romaines). Au sujet du traité entre Hasdrubal et Rome, voir bibliograpnie critique dans G. Charles-Picard, *Hannibal*, *op. cit.*, p. 264-265.

73. Hérodote, IV, 196 (cf. S. Gsell, *Hérodote*, Alger, A. Jourdan, Université d'Alger, Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord, fascicule I, 1916, p. 35, et J. Carcopino, *op. cit.*, p. 108).

74. Voir les observations très pertinentes de R. Dion, « Le problème des Cassitérides », *Latomus*, XI, 1952, p. 306-314.

75. Cf. M. Sznycer, *op. cit.*, p. 146-147, qui reprend, dans l'ensemble, la traduction proposée par S. Gsell, *op. cit.*, t. I, p. 476 *sq.*

76. Parmi ces essais d'interprétation, celui qui fait le plus autorité aujourd'hui — et auquel on se réfère largement dans ce travail — est le mémoire de J. Carcopino, « Le Maroc, marché punique de l'or », repris dans *le Maroc antique*, *op. cit.*, p. 73-173; contre cette exégèse, voir les points de vue de R. Mauny, « La navigation sur les côtes du Sahara pendant l'Antiquité », *Revue des Études anciennes*, LVII, 1955, p. 92-

101, et de G. Germain, « Qu'est-ce que le Périple d'Hannon ? Document, amplification littéraire ou faux intégral ? », *Hespéris*, XLIV, 1957, p. 205, *sq*.

77. J. Carcopino, *op. cit.*, p. 105-119 et 130-163.

78. Voir G. Charles-Picard, *Hannibal*, *op. cit.*, p. 26-35.

79. J. Leclant, « Les talismans égyptiens dans les nécropoles », *Archéologie vivante*, I, 2, p. 95-102 (cf. p. 95-99).

80. Bibliographie dans J. Ferron, « Le dieu des inscriptions d'Antas (Sardaigne) », *Studi Sardi*, XXII, 1971-1972, p. 3-23.

80 *bis*. C. Picard, « Les représentations de sacrifices molk sur les ex-voto de Carthage », *Karthago*, XVII, 1973-1974 (1976), p. 67-138 (cf. p. 67 : « Près de sept mille ex-voto commémorant un sacrifice molk offert sur le sol de Carthage à Baal Hammon et à Tanit Pene Baal se trouvent actuellement dispersés dans les Musées et les collections particulières du monde entier »).

81. Pour ces inscriptions, voir P. Cintas, « Le sanctuaire punique de Sousse », *Revue africaine*, XC, 1947, p. 44-45 (stèle 289); M. Fantar et C. Gilbert Ch. Picard, « Stèles puniques de Carthage », *Rivista di Studi Fenici*, III, 1, 1975, p. 52.

82. Voir les remarques de L. Maurin, « Himilcon le Magonide, crises et mutations à Carthage au début du IVe siècle », *Semitica*, XII, 1962, p. 5-43.

83. Sur ce point si controversé, voir S. Gsell, *op. cit.*, t. IV, p. 377-390; P. Cintas, « Le signe ' de Tanit '. Interprétation d'un symbole », *Archéologie vivante*, I, 2, p. 4-12; C. Picard, « Genèse et évolution des signes de la Bouteille et de Tanit à Carthage », *Studi Magrebini*, II, 1968, p. 77-87. Concernant l'iconographie des stèles, voir M. Hours-Miedan, « Les représentations figurées sur les stèles de Carthage », *Cahiers de Byrsa*, I, 1951, p. 15-160, Pl. I-XXXIX; A. M. Bisi, *Le stele puniche*, Rome, Istituto di Studi del Vicino Oriente — Università degli Studi, 1967.

84. S. Gsell, *op. cit.*, t. IV, p. 378.

85. J. Ferron, « Le caractère solaire du dieu de Carthage », *Africa*, I, 1966, p. 41-59 — Pl. I et II.

86. M. Fantar, « Pavimenta Punica », *Studi Magrebini*, I, 1966, p. 57-65.

87. Cf. J.-G. Février, « Essai de reconstitution du sacrifice molek », *Journal asiatique*, CCXLVIII, 1960, p. 167-187 (voir p. 173).

88. L. Foucher, « Les représentations de Baal Hammon », *Archéologie vivante*, I, 2, p. 131-134.

89. P. Cintas, « Le sanctuaire punique de Sousse », *op. cit.*, p. 13-21.

90. J.-G. Février, *op. cit.*, p. 177-179; S. Moscati, « Il sacrificio dei fanciulli », *Rendiconti della Pontificia Accademia Romana di Archeologia*, XXXVIII, 1965-1966.

91. P. Cintas, *Manuel d'archéologie punique*, I, *op. cit*, p. 313; sur le sanctuaire, cf. p. 311-429.

92. P. Gauckler, *op. cit.*, p. 518.

93. P. Cintas et E. G. Gobert, « Les tombes du Jbel Mlezza », *Revue tunisienne*, 37-40, 1939, p. 135-198. (cf. p. 190 *sq.* — tombe 8).

94. Sur l'interprétation de cette peinture et sur l'évolution non pas tant des croyances eschatologiques que de leur mode d'expression, voir les observations judicieuses et très originales de M. Fantar, *Eschatologie phénicienne punique*, Tunis, Institut national d'archéologie et d'arts, coll. « Notes et Documents », 1970.

95. J. Ferron, *op. cit.* (note 59), p. 201.

96. Sur ce sujet — et plus généralement sur les campagnes d'Hannibal — voir bibliographie dans G. Charles-Picard, *Hannibal, op. cit.*, p. 266-267; sur l'itinéraire d'Hannibal à travers les Alpes, voir bibliographie récente dans Jean Prieur, *La Savoie antique — Recueil de documents*, « Mémoires et documents publiés par la Société savoisienne d'histoire et d'archéologie », t. LXXXVI, 1977, p. 57.

97. Voir, sur ce point, les remarques de C. Saumagne, *La Numidie et Rome. Masinissa et Jugurtha*, Publications de l'Université de Tunis, Faculté des Lettres et Sciences humaines, Paris, 1966, p. 93-95.

98. Cf. L. Déroche, « Les fouilles de Ksar Toual Zammel et la question de Zama », *Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'École française de Rome*, LX, 1948, p. 55-104 — spécialement, p. 87; H. H. Scullard, *Scipio Africanus, Soldier and Politician*, Londres, Thames et Hudson, 1970, p. 271-274.

NOTE ADDITIONNELLE POUR LA NOUVELLE ÉDITION

La campagne internationale de fouilles entreprise sur le site de Carthage depuis 1974, sous l'égide de l'UNESCO, a déjà abouti à des résultats qui infirment absolument plus d'une thèse « classique ». C'est ainsi que la découverte de cales sèches, sur l' « îlot de l'amirauté », associées à des structures remontant à la période punique tardive, permet de certifier que cet îlot et le port circulaire constituaient bien le *cothon* militaire décrit par Appien (cf. *supra*, p. 66-67 et note 36), et que le port commercial se situait sur la lagune contiguë à l'îlot. Les recherches poursuivies sur la colline de Byrsa ont mis à jour un quartier avec habitat punique (début IIe s. av. J.-C.), voirie et installations d'ateliers métallurgiques (IVe-IIIe s. av. J.-C.), de même qu'un monument d'un grand intérêt architectural. Un important habitat (IIIe s. av. J.-C.), particulièrement riche pour ses pavements, a également été exhumé dans la bande longeant le bord de mer (près des actuels services de la Conservation du site de Carthage).

Sur ces récents apports de la recherhe archéologique, voir en particulier les comptes rendus de H. Hurst, « Excavations at Carthage, 1976. Third interim Report », *The Antiquaries Journal*, LVII, 1977, p. 232-261 ; H. Hurst et L. E. Stager, « A metropolitan landscape : the late Punic port of Carthage », *World Archaeology*, 9 (3), févr. 1978, p. 334-346; S. Lancel, « Fouilles françaises à Carthage. La colline de Byrsa et l'occupation punique (VIII[e] s. – 146 av. J.-C.). Bilan de sept années de fouilles », *CRAI*, 1981, p. 156-193 ; F. Chelbi, « Découverte d'un habitat punique sur le flanc sud-est de la colline de Byrsa », *Bull. CEDAC* (Carthage), 3, 1980, p. 29-39; F. Rakob (Rapport sur la campagne de travail 1981), *ibid.*, 4, 1981, p. 12-14.

الفهـرس

قرطاجة : الحضارة والتاريخ/فرانسوا دوكريه؛ ترجمة يوسف شلب الشام . ــ دمشق : دار طلاس، ١٩٩٤ . ــ ٢٤٠ص ؛ ٢٠ سم .

١ ــ ٩٣٩ دوك ق ٢ ــ العنوان ٣ ــ دوكريه ٤ ــ شلب الشام
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ٣٢٧/٣//١٩٩٤ رقم الاصدار ٦٢٩

موافقة وزارة الاعلام
رقم: ٢١٦٤٠
تاريخ: ١٩٩٣/٤/٢٤

قرطاجة

في بلادنا « بلاد الحضارة العريقة » ، لم يرد ذكر لعالم قرطاجة منذ زمن غابر إلّا من خلال ما وصل إلينا من بعض الرحّالة الهواة . خصصت كتبنا التاريخية فصلاً موجزاً عن « الحروب القرطاجية » وهكذا عُرفت شخصية هانيبال « حن بعل » .

كانت قرطاجة بادئ الأمر مدينة تجارية عُرف شعبها بأعمال الملاحة البحرية واشتهر بجرأته وإقدامه وبما يمتلك من عبقرية ومهارات كبيرة . وقد أقام امبراطوريته ـــ على إثر الفينيقيين ـــ في غرب البحر الأبيض المتوسط ، ومضى يبحث عن الثروة على ضفاف المحيط الأطلنطي .

ـــ يعرض هذا الكتاب تاريخ هؤلاء القرطاجيين ويستشهد بقول اليوناني آبيان بوصفهم : « إنهم يعدلون اليونانيين بقوتهم ، والفرس بثرواتهم » .

« المؤلف »

